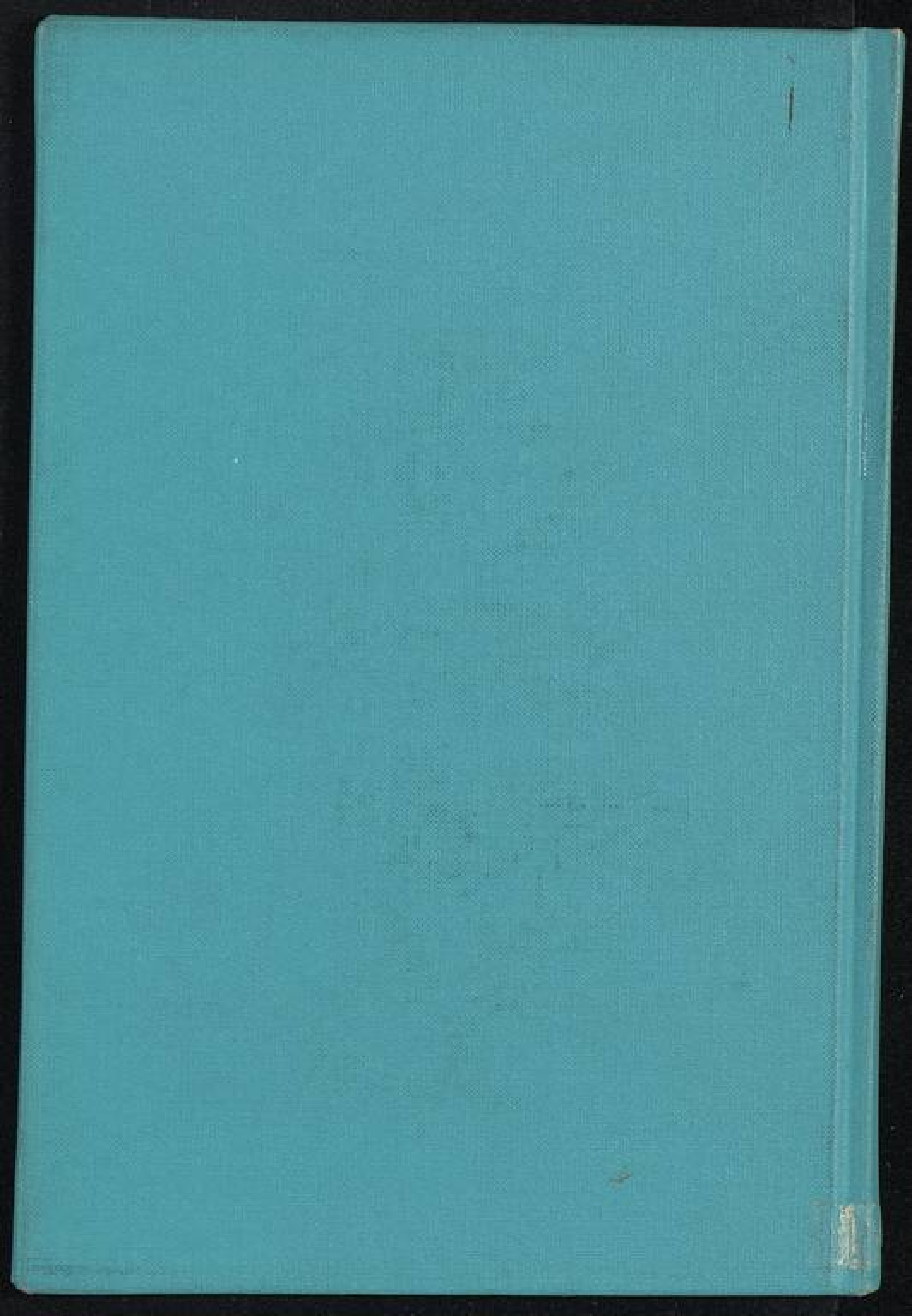
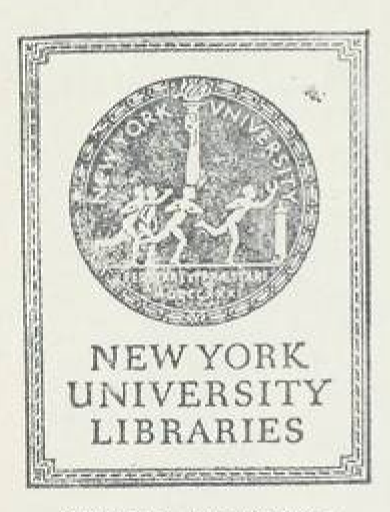
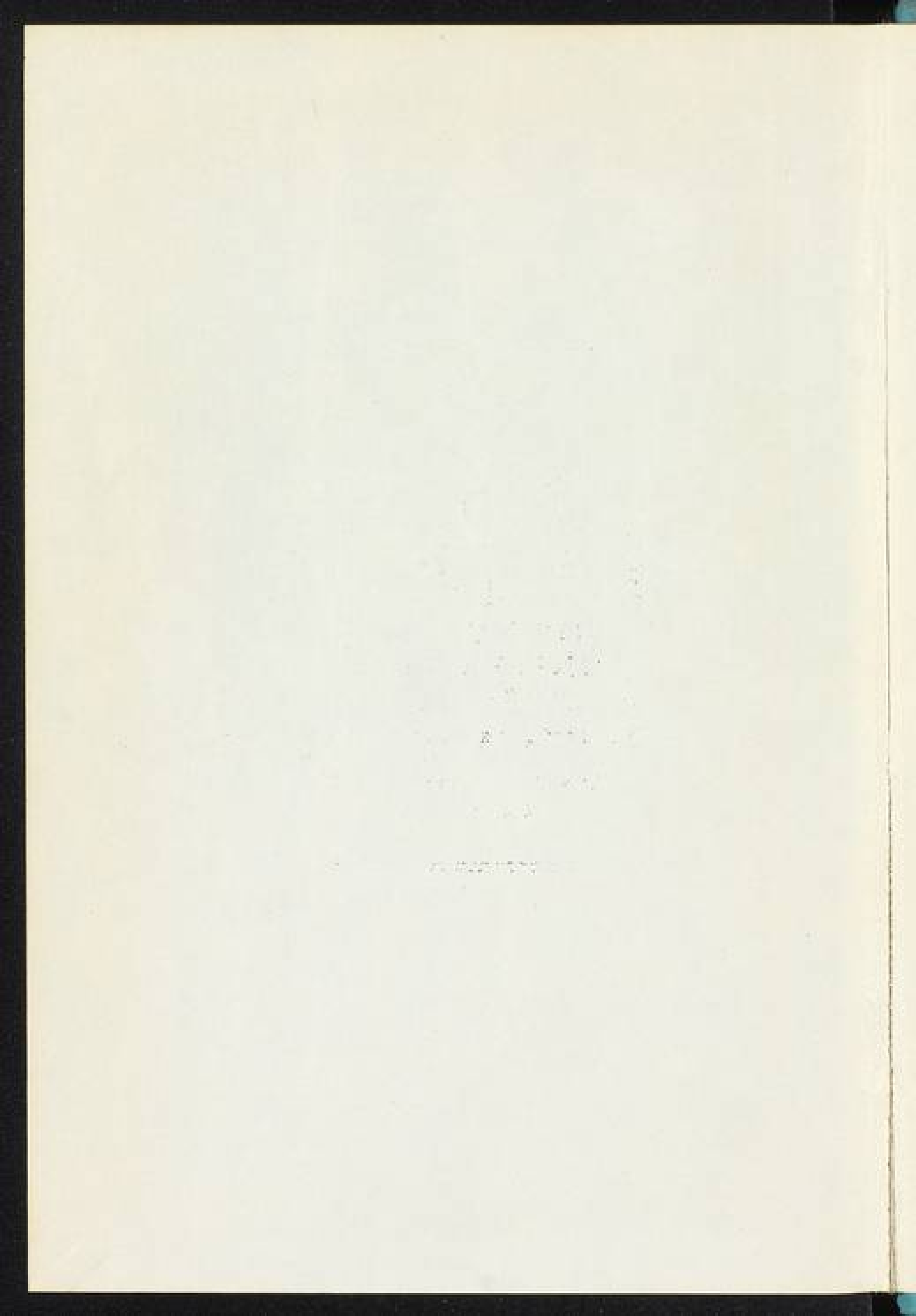



BOBST LIBRARY
3 1142 02823 4402


NEW YORK UNIVERSITY
NEW YORK
UNIVERSITY
LIBRARIES





على الطريق

آراء ومعان لمستها عن طريق الحياة

فؤاد صروف

١٥ ديسمبر ١٩٥٨

طبعة خاصة ومحدودة

١٩٥٤

اهداء

إلى سر أخي المرحوم

أحمد سامح الخالدي

كان احمد سامح الخالدي ، رحمة الله عليه ، مربياً عربيـــاً عظيماً ، ووطنياً عربيـاً عظيماً . ولست ادرى أكانت التربية طريقه إلى الوطنية ، أم الوطنية طريقه إلى التربية . لست ادرى أكانت تربية الشباب العربى ، هي التي أتاحت له أن يمس النار التي تغلى في نفوسهم فآمن بالقدرة الكامنة فيها، اي آمن بمستقبل الأمة العربية فصار في طليعة وطنييها العاملين ، ولا أنا ادرى هل ادرك أولاً بفطرته السليمة أن القوى المدخرة في النفس العربية ، لن تنطلق أقوى انطلاق واوسعه ، ولن تجدي افضل

الجدوى وأعظمها ، على الوطن العربي إلا بالتربية الصحيحة ، فصار في طليعة مربي الجيل . ولكن اياً كان الدافع الذي دفعه في طريقه ، فقد كانت الوطنية والتربية ، قوتين متفاعلتين في نفسه ، ما تردد له نفس ....

في الكلية العربية في أعالي القدس الشريف ، وفي دير عمرو الى جنوبها الشرقي ، أذكره واقفاً ، رأسه مرتفع ، ويمناه ممدودة في إشارة بليغة إلى ما ينوي أن يفعل ، وعيناه ترميان النظر إلى الأفق البعيد ، فيرى الرؤى تتجسد بين يديه ، لا يضعف ايمانه ما عاناه من قبل ، من قلة مال ، أو قلة معاونة ، أو قلة ثقة من الناس بما يريد . وعلى قمة الربوة في دير عمر أذكره واقفاً تلك الوقفة ، وهو يقول: أيتام الثورة نستنقذهم هنا من البوار ، عقلاً وجسداً ، وندخرهم لمستقبل هذه الأمة ، وأرض الأمة التي لم تزل مهملة منذ عشرات السنين ، نستنقذها هنا ايضاً ، على ايدي ايتام الثورة ، فتتم النعمتان : نعمة استنقاذ البشر ونعمة استنقاذ الارض — المربي والوطني اجتمعا في حيز احمد سامح الخالدي .

[من رسالة المؤلف في حفلة تأبين احمد سامح الخالدي التي اقيمت في الجامعة الأميركية في بيروت ، ١٦ تشرين الثاني ١٩٥١]

فصول الكتاب

صفحة

-١-

١١ رسالة الرسول – اليوم
١٧ وحي بيت الحكمة
٢٥ التحدي والاستجابة
٣٥ الحريتان
٤١ مدرستي
٥١ تعبئة كاملة

-٢-

٦١ نحو عالم افضل
٧٠ صفة العصر
٧٨ الطعام والسلطان
٩١ موعد مع الرجاء
١٠٢ عقدة العصر
١١٢ قمم العصر الحديث

صفحة

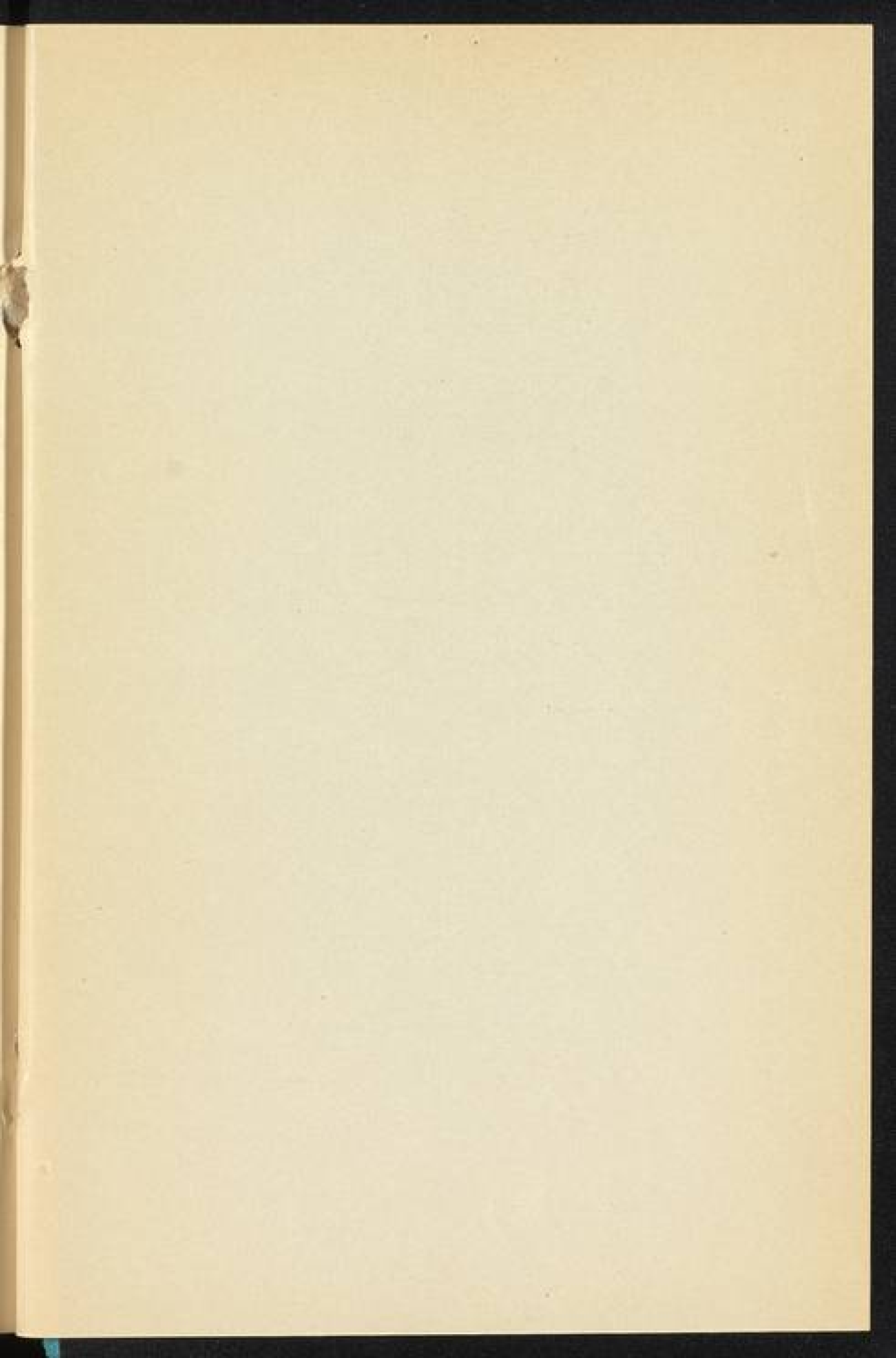
١٢١ نحن وانتم

-٣-

١٣٧ صدمة الجناح الفضي
١٤٦ معانٍ مجنحة
١٥٨ الذرة الكاشفة
١٦٩ الانسان ما هو ؟
١٨١ ثروة في دقيقة
١٨٩ ربة التاريخ تهز اصبعها

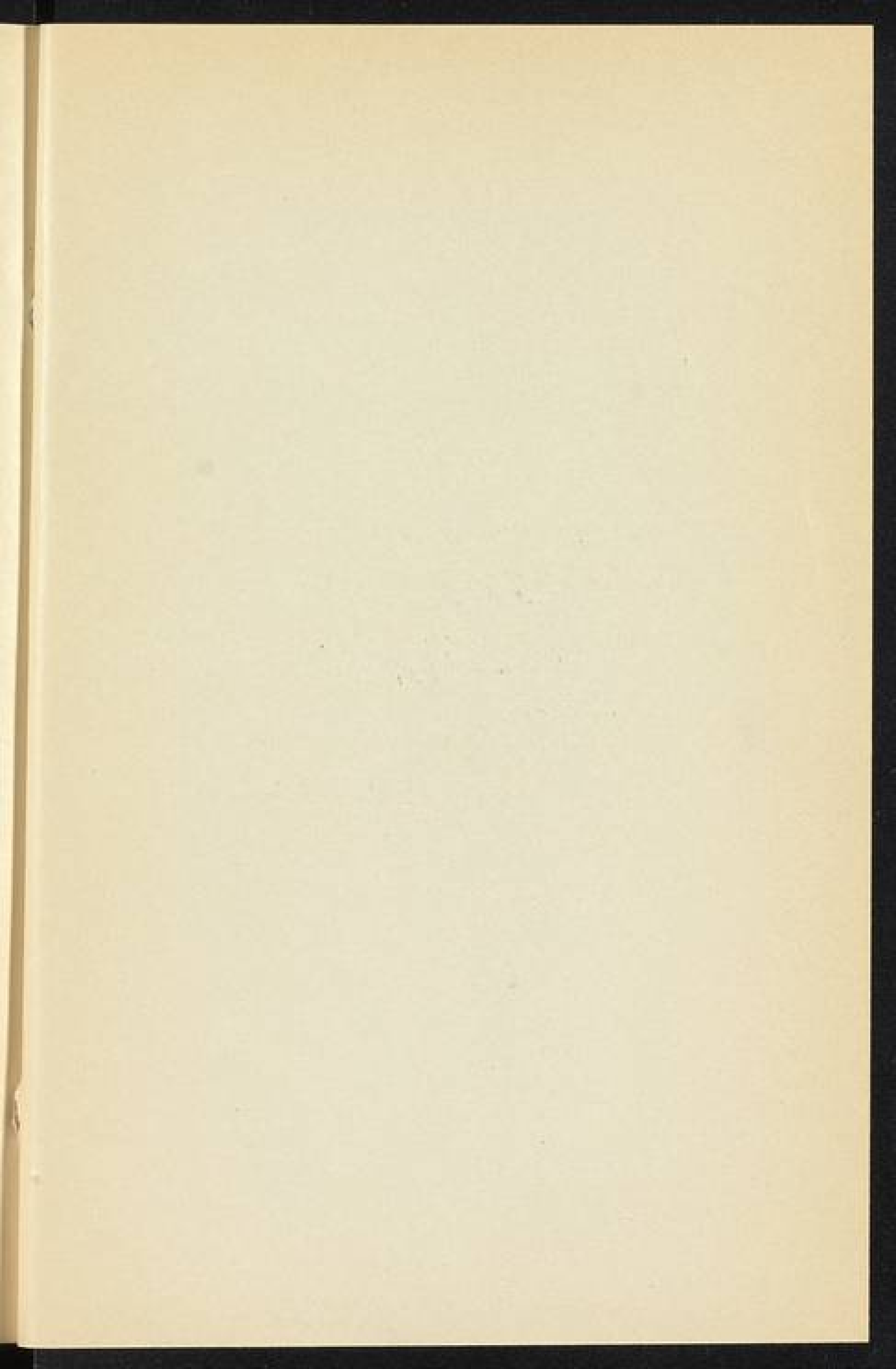
-٤-

٢٠١ صاحب المعلم الثاني
٢١١ مي والمقتطف
٢٢٠ يومان وشاعر
٢٣٠ الحصاة والجبل
٢٣٦ مكتبة ورجل



أَنْ تُضِيءَ شَمْعَةً صَغِيرَةً
خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَلْعَنَ الظَّلَامَ

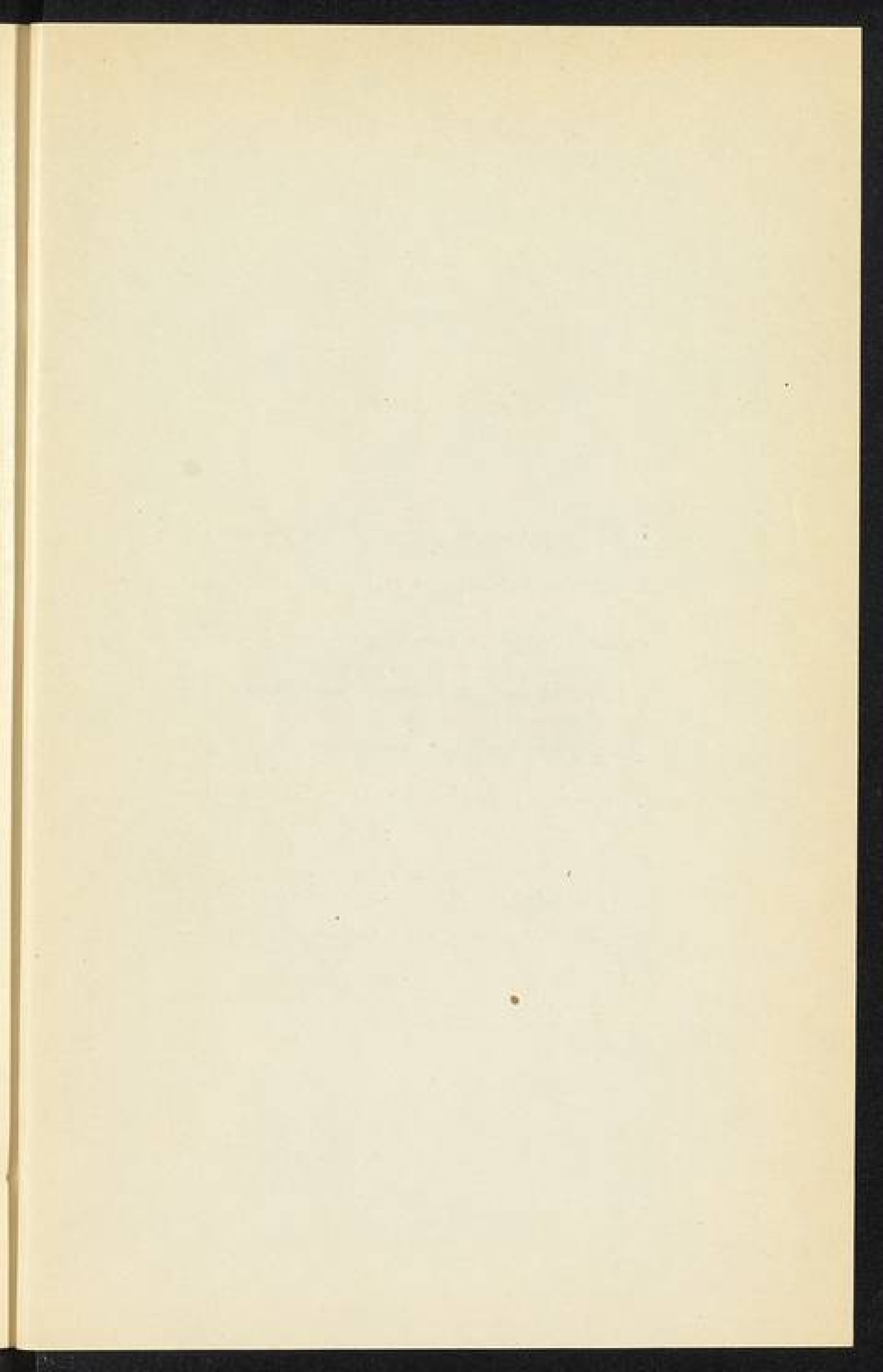
حكمة صينية قديمة
وعبرة لعصرنا هذا



— ١ —

« ان الغرض الاسمى من التربية، ومن الحياة نفسها ، ان تقترن المعرفة بالحكمة ، فالمعرفة هي طريق القدرة، والحكمة هي طريق الفضيلة ، وكل معرفة بغير حكمة هي معرفة ناقصة ، وكل قدرة بغير فضيلة هي قدرة تنطوي على خطر وقد تنتهي الى ان تكون قوة مدمرة ».

[من خطبة « الحريتان » ألقيت في الحفلة السنوية في جامعة بيروت الاميركية ٢٩ حزيران (يونيو) ١٩٥٣]



رسالة الرسول - اليوم

مَن لي بلسان شاعر ، أردُ به عليكم ، أيها الاخوان ، تحية شوقي بأحسن منها ، فليسعد القلب إن لم يسعف اللسان ، وإذا كان «الرفق... والمروءات والهدى والوفاء» قد ولدت يوم مولد عيسى ، عليه السلام ، كما أنشد شوقي ، فان الرسالة التي غمرت بضيائها الحياة العربية ، وهدتها إلى مهيع الحق والخير والرحمة والقوة ، قد ولدت يوم مولد الرسول عليه السلام .

في أوائل الثلث الاخير من القرن السادس الميلادي ، ذهب إلى لقاء ربه يوستنيانوس ، عاهل بيزنطة ، وكانت في أوجها

خطبة ألقيت في حفلة المولد النبوي في كلية المقاصد الخيرية الاسلامية بيروت ٣٠ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٥٢

يومئذ ، ذهب عن عالم ظل قروناً تبهره آيات بينات، من فصاحة اليونان وحكمتهم ، وفنون إيران وزخرفها ، وسلطان روما الممتد الرواق ، ولكن الفصاحة كانت قد خرس لسانها أو كاد، والفنون قد خبت شعلة إبداعها ، والسلطان الممتد الرواق ، قد انكمش ظله ومال بنيانه الى التداعي . وقد جاء حين من الزمن ، ذهب فيه الظن الى أن بيزنطة قد تعيد عهد روما واليونان ، بين فلسفة وحكمة وفن وسلطان ، ولكن لم يكد يقضي يوستنيانوس ، حتى اشتد سريان الضعف في أعضاد العالم وأوصاله ، وإذا غسق يرين على مغاني الحضاره بعد ضياء ، فقد حل الجدل محل الفكر الاصيل ، والطمع محل الثقة ، والشهوة محل التقوى والايمان ، فخارت النفوس ، وصارت لا شوق فيها الى خير ، ولا تطلع الى غاية وراء الآفاق تتحدى العزيمة ، أو قل أن يكون .

ولم تكد تنقضي خمس سنوات ، على وفاة ذلك العاهل ، حتى أهلّ وليد على أسرة عربية كريمة ، في أرض أكثرها فلاة، تقطنها قبائل متفرقة، كل يوم من أيامها صراع عنيد مع الارض والجو ، من اجل الرزق ، وقد كان لهذه القبائل شعر وتجارة وشيء من حضارة ، ولكن شيعهم كانت كثيرة ، ولهجاتهم متعددة وأصنامهم أشتات .

من كان يستطيع أن يتصور يومئذ ، أن قرناً واحداً من

الزمان ، لا يكاد يمر ، حتى ترى أتبـــاع وليد قريش ، وحملة الرسالة التي تلقاهـا وأعلنها ، قد فتحوا نصف آسيا البيزنطية ، وكل فارس ، ومصر ، ومعظم افريقية الشمالية ، وأشرفوا على إسبانيا ، وصنعوا أسطولاً بحرياً هزموا به أسطول بيزنطة في موقعة ذي الصواري ؟ ولم يقنعوا بالفتوح ، بل بذروا في الارض وغرسوا في النفوس والعقول بذور حضارة ظلت حضارة عالمية قروناً متوالية ، ثم لم تنفك معلمة الدنيا قروناً متوالية من بعدها. قلبوا صفحات التاريخ فلن تجدوا سوى في الذرى القليلة الشامخة على الدهر ، كوكبة من الاعلام ، في الادب والشعر والفلسفة والطب والرياضة والفلك والكيمياء والجغرافية والتاريخ ، كالكوكبة التي أنجبتها الحضارة العربية بين هارون الرشيد وابن رشد .

فيوم مولد الرسول ، كان في تاريخ العرب إيذاناً بانبعاث الحقيقة العربية في تاريخ البشر ، فاذا القبائل أمة متماسكة ، وإذا الشرك إيمان ، وإذا اللهجات لغة التنزيل ، ومتى اجتمعت الامة على لغتها وإيمانها فكل مطلب يهون . وكان يوم مولد الرسول إيذاناً أيضاً بانقلاب لم يزل يمس حياة الناس جميعاً قرناً بعد قرن ، حتى حير العقول ، وإذا المؤرخون والفلاسفة يبحثون ويتدبرون ، عساهم أن يجدوا تعليلاً لمـــا كان ، وأيسر تعليل وأدناه الى الحق ، هو أن الله جل جلاله إذا ما أودع سره فيمن يصطفيه من عباده ، فقد غلب العقول التي تزن وتقيس ، ولكن

النفوس المؤمنة تجتليه بيناً رائعـــا كعين الشمس . ولا تزال الرســـالة التي اهلت في ذلك اليوم ، رسالة سُبع البشر على الارض ، وقوة حية يعتد بها في كل تقدير عالمي وفي كل ميزان انساني .

تجيء على الامم ادوار تنطوي فيها على نفسها ، أو تسبح فيها مع شهوات الساعة ، وكأنهـــا الفضيلة الخالدة حتى قيام الساعة ، فاذا كان ، فقل إنها قد فقدت ثقتها بنفسهـا وبالحياة ، وأن مناط أملهـــا قد انحدر من مركب النجم الى مستوى التراب . وقد تسام جوراً وعدوانــاً ، فلا تحس بهما ، وإذا أحست فانها لا تستجيب ، وإذا استجابت فالخور أغلب ، وقد يتراءى لها الحق ملثماً فلا تمزق اللثام ، والعز محصناً فلا تستبق اليه الأسنة والرماح ، ثم تدوي فيها صيحة من وراء الحجاب ، مجسمة في رجل اصطفاه الله ، فاذا نظر ففي نظرته رحمة ، وإذا نطق ففي قوله قوة، وإذا عمل فهو القدوة والمثل ، وإذا الصيحة تعصف بالقلب المستكين كموجة طاغية ، وبالعقل المطمئن كشرر يقدح فيه الفكر ، وبالارادة الوادعة ، كأنها نار الكور فتثقفها حتى تصير أصلب من الصلب ، وإذا الرمـاد في الموقد الخامد ينتثر شرراً ، وإذا الحق الذي كانت تراه ولا يحركها ، يزحف عليها فلا قبل لها إلا بالتسليم به وله ، وإذا الامة تنتفض انتفاضة البعث .

وقد كانت حياة الرسول ، منذ أن ولد إلى أن رأى وجه ربه ذي الجلال ، هي هذه الصيحة ، التي زعزعت الامة العربية، عن طمأنينتها الى الاوثان ، وعن رضاها بالفرقة والقتال بين قبائلها ، وعن الاستكانة الى التجارة تملأ خزائنها بأعراض الدنيا الزائلة ، فرأت الحق ، وتنادت له ، وإذا ربة التاريخ تقول : اقلب يا فتى الصفحات في هذا الكتاب ، وافتح الصفحة العربية ، فلن يسعك بعد اليوم أن تغضى عنها، وإن اردت ، فهذا مستهل عصر جديد في حياة البشر على الارض .

وقد ظلت الصفحة العربية في تاريخ الدنيا زمنا طويلا تزهي بما دون فيها ، حتى دب دبيب الضعف في الاوصال ، فاذا الايمان أوهى من الكلمات على الشفاه ، وإذا الفضائل التي كانت سر القوة لأنها أصيلة مؤصلة قد صارت سر الضعف والهون ، لأنها نفاق، واذا حكمة السلطان قد تبددت بين المطامع والمفاتن والترف . ولكن الارض لا تزال هي الارض، والجو لا يزال هو الجو ، والمادة السنجابية في الأدمغة لا تزال هي المادة السنجابية بجميع تلافيفها، فالفطرة لا تزال سليمة، ومن ذا الذي يجرؤ أن يقول اليوم إننا لا نملك أزمّة العظمة التي أمسكت بها الايدي في عهد الرسالة ، ومن ذا الذي يجرؤ أن ينكر ، أن شتان ما بيننا وبينها !

ونحن إذ نجتمع الساعة ، لنحتفي بذلك اليوم ، الذي أودع الله فيه سره في حيز إنسان، فبعثه رسولاً وهادياً، وجعل دعوته رأس تيار من التاريخ لا يزال يعب عبابه ، نلقي بآذاننا الى الماضي ، ونحدق بعيوننا في الحاضر ، ونومي ببصيرتنا الى ما وراء الآفاق ، ونحن أشوق ما نكون لصيحة جديدة تزعزعنا عن طمأنينتنا وتواكلنا وفرقتنا وضعفنا ، ولكن الصيحة نفسها ما تزال تدوي من وراء القرون ، وأنكد ما في الحياة أن يكون للناس آذان فيجعلون أصابعهم في آذانهم ولا يسمعون.

فكل من أرهف نفسه وهيأها بالفضيلة والتقوى والعلم والرغبة الصادقة في الخير ، يستطيع أن يسمعها ، هي صيحة العظمة من الماضي ، تهيب بنا أن سيروا على النهج القويم ، حتى تكونوا حفدة يسعد بهم الأجداد ، وهي صيحة الضعف من الحاضر ، تستنفرنا عن الرضى وموطأ العيش الى الجهاد الاكبر ، ففي أيدينا جميع عناصر القوة والعظمة ، ولا يعوزنا سوى الايمان والوحدة والعمل المتقن ، وهي صيحة من وراء الآفاق، تجيء اليوم ، كما جاءت يوم مولد الرسول ، على عالم يعيش في الغسق بعد الشروق ، وتهدر في نفوسنا أن أعظم التدهور في حياة الناس ، إنما هو أن تتدهور مثلهم العليا .

ربنا اهدنا سواء السبيل .

وحي بيت الحكمة

لا أكاد التفت في الحين بعد الحين الى نهضة العلم في البلاد العربية ، حتى يحملني التأمل فيها ، على أجنحة لا تزال تطوي القرون الماضية ، حتى تستقر بي في بغداد ، عند السنة الثلاثين بعد المئة الثامنة ، من التاريخ الميلادي ، فإذا أنا أمام (بيت الحكمة) الذي أنشأه الخليفة المأمون، فجعله داراً للكتب، ومجمعاً للعلماء ، ومكتباً للترجمة ، فأقف خاشعاً ، فهذا البيت ، كان منبت حركة من الحركات الفاصلة في تاريخ الفكر الانساني ،

حديث اذيع من محطة الاذاعة اللبنانية ، في بيروت

يتربع على مستوى رفيع واحد ، مع (أكادمية) أفلاطون
و (ميوزيم) الاسكندرية ، ومعاهد اوربا في عصر الاحياء ،
وعهد الاستنارة ، ثم الجامعات العظيمة في العصر الحديث .

وليس (بيت الحكمة) بحاجة الى شهادة تزكى منزلته في
تاريخ الفكر العالمي ، ولكنني وقعت عرضاً على شهادة لروبرت
بريفولت صاحب كتاب « نشأة الانسانية » أحب أن أوردها .
فقد أفرد المؤلف « لبيت الحكمة » فصلا خاصا ، واتخذ من اسم
البيت رمزاً لما أسداه العرب من يد خالدة على الدهر ، الى الثقافة
الانسانية ، فأثنى ولم يضن ، ولكنه ثناء العالم المتمكن المنصف ،
وقول الكاتب الذي يزن الكلام بموازينه الدقيقة ، وقد مهد
له ، بعد كلام طويل معقد عن عقم الحضارة البيزنطية وجمودها في
عهدها الأخير ، برغم مغانيها ومباهيها ، ثم قال ان الشعلة التي
سرت الى الحضارة الاوربية ، المنبعثة ، فاضاءت لها مجاهل
الطريق الوعر ، لم تسر اول ما سرت من الجمر الخامد تحت
اكوام الرماد المتخلفة عن حضارة اليونان والرومان ، ولا من
غزاة الشمال ، بل من العرب .

والحق يقال ، ان ما ابدعه العرب في ميدان العلوم قد اتى
الدهر على جانب كبير منه ، وقل أن تجد في ميدان العلم شيئاً
دائماً ، والحقيقة العلمية ، هي أبداً بنت البحث المستمر والتنقيح

الذي لا يفتر ، ومذاهب العلم تتبدل وتتغير وفقاً لما يكشفه البحث، وتنهار ويقوم مقامها ما يقتضيه الزمن والتنسيق العلمي. وقد تكون دراسة ما أبدعوه تمريناً في التاريخ لغير العرب ، وبحثاً عن الاصول حتى يرد الفضل إلى ذويه ، ولكنه في منزلة الركن في صرح حياتنا الجديدة ، وهو عنصر لا غنى عنه في إعدادنا للاضطلاع بالتبعات الجسام التي لا بد أن تقع علينا ، ونحن في غمار هذا البعث إذا شئنا ألا نتخلف عن الاضطلاع بها. وقد يكون ابن الهيثم أصاب أو أخطأ في بعض آرائه في الضوء وقد تكون سجف النسيان قد أسدلت على بعض آرائه الصائبة، ولكن ذلك لا يهمني اليوم بقدر ما يهمني أن ابن الهيثم قد أبدع في علم البصريات منذ الف سنة من الزمان أو تزيد ، وأن الحضارة الحديثة قد أخذت عنه ما أبدع فكان ما أعطى وما أخذ عنه، لبنة في بناء صرح العلوم الحديثة . وقد تكون مئات المؤلفات والرسائل التي ترجمها وألفها رجال « بيت الحكمة » أو غيرهم ممن سبق عهدها الزاهر ، أو تبعه، شيئاً لا يرجع اليه الآن لمعرفة الرأي الاخير في هذه المسألة العلمية أو تلك ، بيد أن ذلك في نظري يأتي في المنزلة التالية ، للمغزى التاريخي الاول والأهم المنتزع من ذكر « بيت الحكمة ». فهناك جمع الخلفاء طائفة من الرجال ، بغير تمييز بين عنصر أو مذهب ، وأطلقوا لهم حرية البحث ، وأمدوهم بالمال ، وغمروهم بالرعاية ، وشجعوهم بالاهتمام

بما يفعلون وبتقديمهم على غيرهم من الناس ، فانطلقوا يبحثون عن كتب العلم القديم ينقلونها إلى العربية، وطوفوا في أقطار الشرق الاوسط جميعاً يجمعون الحشائش ويصفونها ، وألفوا أنفس الكتب في صورة الارض وطبائعها ومسالكها وممالكها ، وزادوا مسائل الحساب والجبر والفلك والكيمياء وأبدعوا فيها، فوضعوا فيها أشهر المؤلفات ، ومنها ما ظل كتباً تدرس في الجامعات الاوربية إلى قبل قرنين من الزمان ، حتى ليصح أن يقال إنهم ظلوا زمناً طويلاً معلمي الدنيا . قال بريفولت في كتابه ألذي أشرت اليه في الاستهلال « إن الذي نطلق عليه اسم « العلم » قام في أوربا نتيجة لروح جديدة في الاستطلاع وطريقة جديدة في التجريب والاستقراء والقياس – هذه الروح وهذه الاساليب ، مردها في أوربا إلى العرب .

فالعرب حفظوا من الضياع ، خلاصة الحضارات القديمة التي اتصلوا بها وأضافوا إليها من مبتكرات عقولهم ثم نفحوا الحياة الاوربية الجديدة في مستهل عصر الاحياء بهذا التراث المجيد . وإذا كنا حين نقرأ العلوم الحديثة لا نجد كشفاً من الكشوف الخطيرة الاساسية يعزى إلى العرب ، فيجب ألا ننسى ، أن العلم مدين للثقافة العربية ، بأكثر من كشف خطير ، إنه مدين لها بسر من أسرار حياته .

ولست أذكر ما كان ، لاني أحب أن أعيش في الماضي ، ولا لاتغنى به وحسب ، منصرفاً عن متاعب الحاضر وتحدي المستقبل، ولكنني أذكره لانني أحب أن أذكي في نفسي ونفس كل من يريد ، إيماناً بأن ما صنعه السلف منذ أحد عشر قرناً من تعهد « خميرة » الفكر العالمي، نستطيع أن نصنعه نحن، إذا صحت العزيمة، وحسن الارشاد. وقد كان الرجال الذين صنعوه قليلة وسائلهم ، ولكنهم كانوا ذوي مضاء وتوق إلى استشفاف المجهول ، فلم يثنهم، أنهم لا يملكون المجهر الذي يكبر الدقائق والمرقب الذي يقرب الغائر البعيد ، ولا المطياف الذي نحل به الضوء ، ولا الغرفة الغائمة التي نصور بها مسير أجزاء الذرات ، ولا الضوء الكهربائي الذي يجعل أناء الليل موصولاً بأطراف النهار فيضاعف ساعات العمل لمن شاء ، ولا المكتبات الزاخرة بالمراجع والفهارس، ولا الكواشف التي تكشف طلائع الامراض وتفرق الجراثيم بعضها عن بعض ، ومع ذلك خلفوا للناس تراثاً ضخماً فاخراً في شتى العلوم ، لا يزال حتى يومنا هذا يبهر العلماء كلما كشفوا عن ناحية من نواحيه .

أنا أعلم أن العصر عصر سرعة، وأن الزحام على العمل زحام مستمر، وأن الزمن قلما يتسع لكل منا أن يدرس دراسة تبحر ذلك التراث الذي خلفه العرب أو غيرهم من الامم ذوات

الحضارات التي نشأنا في أحضانهـا ، ثم أن يضيف إلى ذلك مـا يقتضيه العصر وتقتضيه الحياة من حذق لأسباب العيش ووسائل الكفاح ، ولكني أعلم كذلك أن حـذق هذه الوسائل ، سواء أعقلية كانت أم مادية ، لا يجديان سوى القليل القليل ، في خلق أمة تحس القدرة في ذات نفسها وتطمح أن تنشىء وأن تبدع ولا تقنع بأن تبقى في حياة العلم – والفكر عامة – عالة عـلى موائـد الغير . فالمصريون والفينيقون والعرب وغيرهم ، شقوا الضباب الذي كان يغشى آفاق المعرفة في فجر الفكر الانساني أو وضعوا بأيديهم أركان هيكل المعرفة وعمـده ، أفيقنعنا أن ندخل أبوابه في الحين بعد الحين لنلمـح الآيات التي نقشت عـلى جدرانه ؟

كل حضارة وكل نهضـة وكل تحول أصيل في حياة الشعوب يرتد إلى أصلين من أصول الحياة . أما الاول فهو الفكر الذي يصور الغايات التي تحدى إليهـــا الركائب ، ومنه تنبع القوة المحركة ، وإليه ترجع الآراء الفلـفية والعلمية والاجتماعيـة التي تمهد طرقاً كانت وعرة من قبل أو كانت غير مطروقة . فمذاهب العلم الحديث في بناء المادة وطبيعة الطاقـة ، والتطور العضوي، والآراء الاجتماعية الحديثـة في الاشتراكية والنظم السياسية والاجتماعية هي التي أفرغت عالمنا الحديث في قالبه المعهود. وهي

جميعاً صدرت أولا من الذهن الانساني، ثم لم تلبث حتى تغلغلت في حيـاة الناس كل يوم . وأمـا الثاني فهو البيئة الاقتصـادية والاجتماعية التي يعيش فيها الناس ـ فكل مـا يحدث في هـذه البيئة تغييراً أصيلاً ، من أساليب الصناعة والزراعة والحذق في استغلال موارد الطبيعية ، يغير الأحوال التي يعيش فيها الناس فيفضي بعد زمن طويل أو قصير إلى تغيير في آرائهم وأفكارهم ونظرتهم إلى الكون والحياة .

والعاملان متفاعلان، فبحوث مكسويل الرياضية في الامواج الخفية التي تملاء الفضاء أفضت بعد زمن إلى جميع عجائب العصر اللاسلـكي، وشيوع الراديو أخذ يفضي إلى توثيق الصلة بين الناس ويفسح المجال لطغيـان الدعاية خيراً كانت أو شراً . وارتقـاء الصناعة الذي نشأ عن التقدم الحديث في علوم الطبيعة أفضى إلى كثير من الرخاء وارتقـاع مستوى العيش فـافضى بدوره إلى نظرية التفسير الاقتصادي للتـاريخ وإلى المذاهب الاشتراكية المعتدلة والمتطرفة ، وقيام بعض الدول وطائفة من الحكومات على قواعد تلك المذاهب .

والأمة العربية اليوم تقف على حد من الزمن ، يتحداها فيه ماضيها المجيد ، ومستقبلها الغامض . فإن لم تجعل العلم المنشىء بعض عدتها في الاستجابة لهذا التحدى ، فأغلب الظن أنها تبقى

متخلفة عن ركب الزمن، مستضعفة عند العدو والصديق كليهما.
و « بيت الحكمة » يوحي الينا اليوم أن هذين الاصلين من اصول الحياة رهن مشيئتنا ، وأننا نستطيع أن ننمي مواردنا الانسانية والطبيعية أتم إنماء وأفضله، وأن ألايمان بأننا نستطيع، المستمد من ذكر « بيت الحكمة » ينبغي أن يكون حجر الزاوية في منهج كل معهد من معاهد التعليم ، وكل وسيلة من وسائل التربية العامة . وقد نختلف كل يوم على عشرات من مسائل الحكم ، وقد نكتب كل يوم الوفاً من الكلمات في التأييد والمعارضة ، فلا تلبث الايام حتى تطويه، ولا يبقى سوى ما نعمله من عمل نافع يذكى في نفوس الشباب إيمانهم الصادق ، بأنهم يستطيعون ، وأنهم لن يستطيعوا الا إذا أخذوا أنفسهم وعقولهم بأدق رياضة وأشدها على القدرة وعلى الخير .

التحدي والاستجابة

بلغتم اليوم في طلب العلم مرحلة ، ينبغي لكم أن تقفوا عندها لتسألوا أنفسكم، لماذا نطلب العلم؟ فذخائر المعرفة الانسانية قد بلغت من السعة مبلغاً يقتضي من طالبها أن يختار الميدان الذي يريد أن يحصر همه فيه ، ويقف نشاطه عليه ، حتى يستولي على مقاليده، ويصير بما فعل، رجلاً أفضل وأقدر وأنفع . وكل اختيار يتضمن معرفة الغرض حتى يتضح النهج ويستقيم .

وهو سؤال ليس بالشيء الميسر على أحد من الناس، وبخاصة

خطبة ألقيت في حفلة توزيع الشهادات في الكلية اللبنانية ، سوق الغرب ، في ١٩ حزيران « يونيو » ١٩٥٣

على الشباب في مقتبل العمر ، أن يجيب عنه . ولكن الاجابة عنه شيء لا مفر منه ولا غنى عنه . فإن لم يفعل ، كان كمن يجوب القفر بغير نجم يهتدى به ، أو كمن يقدم على الغمر في قارب بغير بوصلة ودفة .

وكثير من الشباب يطلب العلم ، لأن الأهل يريدونهم على ذلك ، أو لانهم يرون في الشهادة التي ينالونها بعد سنين من التحصيل الممض ، تطول أو تقصر ، هي زينة لهم في المجتمع ، او سلاح ينتضونه في كفاح الحياة الذي لا يلين، أو لأن المعرفة تعين المرء على ضرب من الاستواء العقلي والعاطفي، ينيله السعادة في الدنيا ، أو يزوده بالقدرة على أن يصير أنفع لنفسه ولجماعته .

كل غرض من هذه الاغراض ، كان غرضاً للتربية ، في عصر أو آخر من عصور التاريخ . ولكن بعضها صار في هذا العصر ، منافياً لروحه . فرغبة الاهل على نيلها ، لا يمكن ولا يجوز أن تعد غرضاً في حد ذاتها ، ولا القوة الدافعة ، التي يستطيع الطالب أن يستمد منها عزيمة صلبة تعينه في مراحل الطلب ، إذا توعر الطريق أمامه وأظلم . والزينة الاجتماعية على حسنها في عصر ، كانت فيه صفات الفتى المهذب ، خليقة أن تنيله المنزلة العالية في المجتمع ، هي شيء تافه في هذا العصر الذي لا يجدى فيه سوى المعرفة الراسخة التي تستوحي الخير العام ،

وترسم لصاحبها طريق العمل النافع ، فهو يتعلم لكي يصبح قادراً على أن يعمل ، وأن يعمل ما هو خير . وقد يكون الاستواء العقلي والعاطفي ، من أجل السعادة في الحياة الدنيا أدنى إلى الاتساق، مع مقتضيات هذا العصر الصاخب ، فالرجل الذي يحسن التفكير، على أصوله التي استصفاها العلماء والفلاسفة من تجارب الانسانية ، والذي نال من تمرسه بالحياة واتصاله بذخائر الحكمة ، سكينة النفس، قد يكون هو الرجل الذي ينبغي أن يكون هدف كل تعليم وكل تربية .

وقد عرفت رجلاً حكيماً وضع ذات يوم في شبابه جدولاً بما يَعُدُّه أطايب الحياة ، فاذا بينها الصحة ، والحب ، والموهبة والقوة ، والثراء ، والشهرة . ثم عرض جدوله ، وهو مزهوٌ بما يعرض، على شيخ مجرب حكيم، فضرب عليها جميعا بقلمه الاحمر، وكتب مكانها جميعاً كلمتين ، هما « سكينة النفس » ثم قال : هذه هي الهبة التي يدخرها الله لأصفيائه، فهو ينعم على الكثيرين بالذكاء ، والصحة ، أما المال فليس عسير المنال على من يضحي بكل شيء لكي يجمع المال ، فإذا جمعه وجد نفسه عاجزاً عن الاستمتاع بما يضفى على الحياة رونقها الأصفى ، والمال مبتذل على كل حال ، والشهرة ليست بالشيء النادر ، وأما سكينة النفس فإنه يمنحها بقدر . هذه صفوة ما وصل اليه جميع الحكماء

في تاريخ البشر على وجه الارض : « خلّ يا رب نعم الحيـــاة الدنيا تحت اقدام الحمقى ، واعطني عقلاً مطمئناً غير مضطرب ونفساً راضية » .

بيد أن الرجل الذي يطلب سكينة النفس عن طريق تثقيف العقل والعاطفة ، ينبغي له أن يدرك ، أنه فرد في جماعة ، وأنه لا يستطيع وإن أراد ، ان يقيم منعزلاً عنها ، بل ينبغي أن يدرك أن شعوره بالعزلة ، هو شيء يعكر عليه السكينة التي يطلبها ، وأنه خير له أن يبني جسوراً تصله بالناس من أن يبنى جدرانـــاً وأسواراً من حوله ، تفصله عنهم . فسكينة النفس مطلب عسير لن يناله أحد إلا إذا قرن العلم بالحكمة في سبيل الخير العام .

وقد قيل منذ أقدم أزمنة الفكر الانساني، إن الانسان حيوان اجتماعي، وقد كان ذلك صحيحاً قبل أن صارت الطائرات تنقل الناس في خمس ساعات ونصف ساعة من لندن إلى بيروت، وقبل أن غدت الامواج الخفية في عرض الفضاء تنقل كل همسة، من أي مكان على سطح الارض أو في أعالي الجو، في جزء من الثانية إلى أقصى أطراف الارض ، وقبل أن صارت كل مجاعة او كارثة في مكان ما عـلى سطح الارض ، تؤثر في اقتصاد العالم كله ، وقبل أن صارت القنابل الذرية، وما كان على غرارها من الأسلحة المدمرة خطراً ينبغي لجميع الناس في كل قطر أن يواجهـوه ، فالقنبلة الذرية

والجراثيم الفتاكة تدمر ولا تستثني . ومن أجل هذا كله قال فلاسفة العصر الحديث إن الحرية ، والسلام ، والرخاء في العالم هي نعم لا تتجزأ ، فكل حر فيه شيء من العبودية ، ما دام في الدنيا عبد واحد، وكل آمن مطمئن لا يزال عرضة لخطر ما، ما دام في الدنيا من هو غير آمن أو مطمئن ، ولن يستتب رخاء لأرض ما ، ما دامت الارض التي تجاورها تتردى في الفاقة والضعف .

وإذا كان الانسان حيواناً إجتماعياً ، قبل أن صار العالم ما صار إليه ، من مصالح مشتبكة وأواصر موثقة ، فكيف به اليوم وليس في وسع أحد ، أن ينعزل عن غيره من الناس ، ليس في جماعته وحسب ، بل في جماعة البشر كلها .

فاذا قبلنا هذا الراي ، اتضح لنا ، ان الغرض الاول من التربية ، ينبغي ان يكون ، طلب المعرفة حتى يصير الانسان حيواناً اجتماعياً أفضل وأقدر على النهوض بتبعاته كإنسان. وإذا استقر هذا في نفس الطالب ، فله بعدها أن يطلب ما يريد من ضروب الاختصاص في ميادين الطب او الصيدلة او الهندسة او الزراعة او التعليم او التجارة او السياسة او غيرها . ولكن ليس له ان ينسى، لحظة واحدة، أن كل نظام من نظم المعرفة يأخذ به عقله ، إنما هو نظام يمهد له أن يكون أقدر على الخير ،

إذا هو أخذ نفسه أيضاً ، وراضها على المعاني الخلقية والدينية التي لم تزل خيراً لا يأتيه التبديل منذ ان كانت البشر .

ولن يكون في وسع أمرىء أن يبلغ أتم نموه ، رجلا أو امرأة ، إن لم يتمثل في نفسه شخصية الامة التي ينتمي إليها بآمالها وآلامها ، وتقاليدها ، وما لم يعب ما ينابيع تاريخها وأدبها وثقافتها ، فهو كالزهرة التي تتخذ مقومات عودها ولونها وعطرها وثمرها من الاقليم والتربة اللذين تركو فيهما . ولذلك ترى الشباب في كل ارض يلتفت بفطرته الى جماعته ليرى ما ينبغي له حيالها ، وهذا أصدق ما يكون على شباب العرب اليوم ، وإذن فحالة الجماعة التي ينتمي اليها الرجل المتعلم، تتحدى عقله ونفسه كل صباح وكل مساء . وقصة التاريخ الانساني كله ، هي قصة التحدي الذي وجهته الطبيعة أو الجماعة إلى الانسان فرداً كان أو جماعة ، وكيف استجاب .

تحداه الخوف من الضواري فصنع النار ليتقي شرها في الظلام قبل ان يبني داراً ذات جدارن . تحدته ضرورة الحركة ونقل الاحمال ، مسافات تطول أو تقصر فصنع العجلة أو الدولاب. تحدته الاوبئة والامراض، فكشف الجراثيم ثم أخضعها لمرامه ، وسَلَّ سُمَّها وجعله ترياقاً ناجعاً. تحدته الظلمة ترين على المدن الكبيرة ، فصنع المصباح الكهربائي والشبكة الكهربائية

تحداه الهواء فطار ، وتحدته الذرّة ففلقها وأطلق كوامنها .

وليس لتحدي الطبيعة والجماعة ، حد يقف عنده . ففي كل عصر من العصور ، تواجه اجيال متلاحقة من الرجال والنساء ، ألوانا من التحدي يقذفها عصرهم في وجوههم . أما كيف يستجيبون فهو الشق الأكبر من مادة التاريخ . فكل إنسان في كل عصر ، يستطيع أن يصنع التاريخ ، بما يفعل أو يدع ، وليس لانسان حق في أن يقف موقف المحايد ، امام تحدي عصره ، لان الحياد نفسه قرار بأن يمتنع عن العمل ، أي أنه يحكم بقراره ، على نفسه ، بأن لا يصنع التاريخ ، وأن يدعه لغيره ، وهذا هو الخذلان الاكبر .

والتحدي الذي يواجهه شباب الأمة العربية في معاهد التربية وفي ميدان الحياة ، هو تحد تختلط فيه أصوات صاعدة من غور الماضي تقول لهم: لقد كتبنا في التاريخ صفحات متألقة فهل أنتم فاعلون ؟

وأصوات متعالية مما يحيط بهم من فقر وضعف وفرقة وثرثرة وهي تقول لهم : في وسعكم أن تغلبوها جميعاً بالوفر والقوة والوحدة والعمل الصامت ، دون القول العريض ، وبعرق الجبين دون التغني بعرق جبين الغير . فهل انتم فاعلون ؟

وأصوات تتردد في أروقة المستقبل وراء الآفاق ، وهي تقول

لهم: المجتمع الذي ينتج هو المجتمع القوي ، والاقوياء وحدهم هم الذين يستطيعون أن يكونوا أحراراً ، فهل يستهويكم أن تبنوا هذا المجتمع القوي ، كما تستهوي القمة الشماء ، عزيمة المصعد الرائد المقدام ؟

فكيف ينبغي أن يستجيب الشباب العربي في معاهد التربية لهذا التحدي ؟ إذا استجاب بتعزيز الايمان في النفوس ، على أن القدرة لا تزال في متناول اليد ، كما كانت في الماضي ، وإذا استجاب بأن سلاح القدرة هو العلم الصحيح – لا عرض المعرفة – الذي يقبض على العنان ، ويخضع الطبيعة للمرام الاعلى ، واذا استجاب بأن القدرة المنبثقة من العلم ، هي والشعور بالتبعة الاجتماعية صنوان لا يفترقان ، فيومئذ يكون التعليم قد بدأ يؤتي ثمرة ، ويومئذ يكون الشباب المتعلم ، قد وضع قدمه على أول الطريق الذي يفضي إلى القوة والخير معاً، فتنجلي من أمامه الغيوم الملبدة في سماء حياته القومية ، وتنزاح العقبات التي تعترض الطريق الوعر ، فإن لم تنجل ، قشعها بقدرته ، وإن لم تتزحزح ، نحاها او نسفها ، ولا عبرة بعد ذلك بطول الشقة ، وإنما العبرة في أن تبدأ السير ، وأن تمضي فيه على نهج ، وإن أدمى المضي أخامص الأقدام .

قد يبدو للفرد منكم أن الغرور وحده يقوده إلى الظن بأنه

يستطيع أن يقبل التحدي ، وأن يصنع التاريخ وأن يسدي يداً لتحسين أحوال النـاس في جماعته ، أو في العـالم الأوسع .
ولكن هذا الرأي هو وهم وخطل . ففي وسع كل من يريد ، في حيزه الضيق وفي صلاته الخاصة بالناس ، أن يسدي صنيعاً ببث شعور اللطف والرضا ، بدلا من أن يحرك روح السخط والغضب ، وبتعزيز الميل الى التعقل دون الميـل الى الهوس ، وبأن يمارس العدالة والانصاف في صلته بكل من يعـامله ، وبأن يضرب المثل على احترام القانون في أهون أمور الحياة — ومجموع هذه الأعمال يقبل عليها الناس، هو الفـارق بين القذر والنظافة في الحي"، وبين القانون والفوضى في البلدة، وبين الخير والشر في الأمة وفي العالم . فـاذا كنت قطباً سياسياً كبيرا كانت بيئتك كبيرة ، وإذا كنت أحد أوساط النـاس كانت بيئتك محدودة ، ففي الحال الأولى تستطيع كثيراً إن شئت ، وفي الثانية تستطيع قليلا إن شئت، ولكنك تستطيع أن تصنع شيئاً على كل حال، ولأن تضيء شمعة صغيرة خير ألف خير من أن تلعن الظلام . وقد يميل الواحد منـا الى تسويغ فتوره وتقاعده عن الخدمة العامة بقوله : ما أقل مـا استطيعه وحدي ضد شر كبير : ولكنّ الشرور الكبيرة ، ترجع الى شرور صغيرة مجتمعة . والخير العظيم ينشأ على المنوال نفسه . فـالخير والشر ينبعان من أعمال الافراد — ما يفعلون وما يدعون .

ولا يقتصر ذلك على الافراد المميزين ، بل يشمل جميع الرجال والنساء الذين يتقوّم بهم المجتمع .

فنحن نستطيع أن نناهض الظلم والتحامل ،والكذب والقسوة والفاقة والجهل ، كلّ على طريقه ، وفي نطاقه ، سواء أضاق أم اتسع. ولكن لن يجدينا في ذلك أن نمضي في طريقنا يفيض الخير الغامض من شفاهنا . فالانفعال المتحرّك في أعماق نفوسنا يجب أن يدفع الى حركة تفضي ، بطريقة مهما تكن غير مباشرة ، إلى إنشاء عالم أفضل من العالم الذي هوى ولن يعود . الصلصال بين أيدينا ، ونحن الخزافون ، وأكبر جريمة نقترفها هي أن نستهتر وأن لا نبالي .

وهذا الروح هو لعمري أشرف ما تسعى اليه تربية ، وأشرف ما يتطلع اليه الشباب المتعلم . خذوا الصلصال بأيديكم وامضوا على بركة الله ، موفقين باذنه وعونه تعالى .

الحريتان

بين صور الماضي المجيد ، ومنى المستقبل المأمول ، ولدت نهضة العرب في العصر الحديث ، وترعرعت ، بعد أن ظلّت قوائمها راقـــدة دهراً طويلا . فلم تكد النفس العربية تتصل بعبقرية تراثها القديم ، وتعبّ من ينابيع أدبها وثقافتها ، حتى اتقدت في العقول جذوة كامنة ، وفي الصدور عزيمة واهنة، وإذا استيحاء الماضي ، والتوق الى بنيان مستقبل كريم ، يحركان في الاعماق قوة ، سرعان ما استأثرت بالولاء الصادق ، فجعل

خطبة القيت في الحفلة السنوية لتوزيع الدرجات العلمية والشهادات العــالية في الجامعة الاميركية في بيروت ، ٢٩ حزيران (يونيو) ١٩٥٣ .

يحيلها ايماناً لا ينثني .

وقد تجيء على الامم ، أيام يعبس فيـــها الدهر ، فيمتحن عودها ، فان لم تطفىء الخطوب نور العقل ، وضياء الايمان ، فهي خليقة أن توقظ الهمة الراكدة ، وتحفز الفكر الى التبصر الحر في أسباب الضعف ، فتقد النفس أمضى سلاح وألزمه في جماعة من الاحرار ويومئذ تستحيل النقمة نعمة ، ويصدق قول ابن حزم : كل مصيبة تصيبني في مدرسة الدهر ، إن لم تقتلني فهي لي قوة جديدة .

في وسع من يشاء أن يقيم الدليل على أن يوم الامة العربية هذا ، هو من أيام الدهر العوابس ، ولكنني إذ ألتفت الساعة إلى وجوه الشباب المنضرة بالفتوة ، المحصنة بالعلم والايمان ، وإذ أرمي البصر إلى هذا الحشد الكريم الذي جاء يستقبلهم على عتبة الحياة العاملة ، أقول إنهم حجتنا التي لا ترد ، على أن الخطوب لم تلن من قناتنا ، وأن النكبة قد صارت لنا في عقولهم وعزائمهم نواة قوة جديدة .

أو ليس الاقبال على التربية ، هو بطبيعته إيمان بالمستقبل ، وتأهب له ، واعتزام عليه ؟

هنا في لبنان ، بلد الطليعة والسماحة ، وعلى مشهد من هذا الخضم الزاخر بالتاريخ ، وهذا الجبل الملهم الملتهم ، قام هذا المعهد منذ

سبع وثمانين سنة ، فكأنه كان ومولد النهضة العربية الحديثة على ميعاد . من هنا انطلقت أجيال متعاقبة من الشباب ، وسرت في عروق الامة العربية ، موجة من الحياة بعد موجة . هنا تلقنوا بالدراسة والتأمل والقدوة ، أن الغرض الاسمى من التربية ومن الحياة نفسها ، إنما هو أن تقترن المعرفة بالحكمة في سبيل الخير العام . فالمعرفة هي طريق القدرة ، والحكمة هي طريق الفضيلة ، وكل معرفة بغير حكمة هي معرفة ناقصة ، وكل قدرة بغير فضيلة ، هي قوة تنطوي على خطر ، وقد تنتهي إلى أن تكون قوة مدمرة .

وقد حرصت هذه الجامعة على أن تجعل عنايتها بجوهر الحكمة والعقل مقدمة على عنايتها بعرَض المعرفة . فلم أعرف في حياتي رجلا حافظاً ، إلا وجدت كتاباً أحفظ منه ، ولا رجلاً عالماً وحسب ، إلا لقيت رجالا أقل منه علماً ولكنهم افضل وأنفع . ومشكلة الحضارة في عصرنا ليست قلة وسائل القدرة أو ضعفها ، بل هي كيف ننتفع بها لتحقيق العدالة والحرية والخير في الجماعة . ولو كانت المشكلة علمية أو صناعية وكفى ، لكان حلها ميسراً فالوفر يكاد يكون طوع البنان ، ولكنها مشكلة خلقية اجتماعية في لبابها ، ولن تحل إلا إذا قدّر لمعاهد التربية أن تردم الهوة بين القدرة والفضيلة ، وأن تصهرهما فتجعلهما وحدة متماسكة في نفس

الانسان الفاضل .

أنا أؤمن بأن البلاد العربية لن تبلغ المدى في يقظتها وثورتها إن لم تؤصل في نفوس ابنائها رغبة نهمة في استبطان قوى الطبيعة بالحب والفهم ، وإخضاعهـــا بالعقل المدرب الذي تومىء إليه المجاهل فلا ينثني عن الاقدام ، أي ينبغي لنا أن تنشىء جيلا بعد جيل من الرجال والنساء ، الذين يردون العلم من أصفى منـابعه ثم يتخذونه عرشاً للعقل وعبداً للانسان . فيومئذ نمسك بأيدينا زمـام الحريتين : حرية من يعرف — وتعرفون الحق والحق يحرركم — وحرية من يستطيع . فإن لم نفعل ظلت أرضنا — برغم يقظتنا — عرضة لمطامع من هو أعلم منـا وأقدر ، وبقيت ثورتنا — برغم بلاغتنا — كالعاصفة تضرب بسياطها ذات اليمين وذات الشمال ، فتدمر وتقتلع ، ثم تسكن ، وإذا الجذور التي نريدها أن تنشب في الثرى ، منطرحة مهشمة على الأديم ، وإذا العيون التي يشوقها أن تمد بصرها إلى ما وراء مسابح النجوم ، قد كدر صفاؤها فلا تستبين الفجر من الغسق .

بيد أن القدرة المستمدة من المعرفـــة الاصيلة ، لن تجدي جدواها، إن لم يسيرها العقل الى غايتها الصحيحة — خير الجماعة. فالانسان المتعلم لا يحق له في هذا العصر ولا يستطيع ، وإن أراد ، أن يعيش في فراغ اجتماعي ، أوبرج من العاج . والمعرفة لايمكن فصلها عن التبعة الاجتماعية ولا يجوز . ولست أجد شيئاً

أوقع في النفس وأدعى الى الرجـــاء من يقظة الشعور بالتبعة الاجتماعية في لبنان وأرجاء الامة العربية جميعاً . إن ادراكنا بأن مواردنا - طبيعية وإنسانية - هي موارد زاخرة ، خير لا ريب فيه ، وأفضل وأجدى أن نقبض على عنـــان القدرة التي تنفعنا بها . ولكن لمن تكون ثمرة الانتفاع ؟ إن الانسان نفسه هو قلب المشكلة ، وإدراك قيمة الانسان الفرد ، كل انسان فرد ، هو أعظم مأثرة للحضارة العربية والحضارات الغربية التي تلتها . وإذا كانت الموارد الطبيعية رأس مال ينبغي أن يستكثر بالعلم والعمل ، فان الناس رأس مال أضخم وأبقى ، ولكنهم بما نفخ الله فيهم من روحه ، هم الغاية ، التي ينبغي أن ينتهي اليها العلم . ولذلك قامت في هذه الجامعة ، كلية الآداب والعلوم أولاً . هنا يتصل الطلبة بذخائر الحكمة والفضيلة الخـالدة على الدهر ويتمرسون بمشكلات الانسان الاجتماعية والروحية . ثم قامت بعدها الكليات الفنية حيث يدربون على أحدث وسائل المعرفة والقدرة واقومها . ومن وراء هذا كله ، يقوم في جميع الكليات ذلك الرجل الذي لن نخطئه إن وصفناه بأنه ، زارع يبذر المستقبل في تربة حية ، أو صائغ يصوغ الوحدة في عقول ونفوس مشوقة ، او حكيم يسير بالفكر وبالعاطفة ، جوادين في عنان واحد حتى يروّضها ، فاذا أشرف بها على مرتبة الاستواء قال لتلميذه: هيا انطلق يا ابني، الدنيا أمامك، فاجعلها في غدك

خيراً شيئاً ما ، مما كانت في أمس والدك .

ان المعلم في عصرنا — ايها السادة — هو الرجل الذي ألقى على منكبيه وشاح الهداة والشعراء .

يسير علينا ، ان نبصر العالم أبلغ تبصير ، بمنزلتنا ، في تاريخ الحضارة الانسانية ، وفي ميزان النضال العالمي ، وبحقيقة ما يحتاج حياتنا من يقظة على قدرتنا الكامنة ، وثورة على وضعنا الذي لا يسر — سوى العدو ، ولكن مقطع الامر في آخر المطاف ، هو كيف ننوي أن ندرب أبناءنا وبناتنا ، على الأخذ بتلابيب الطبيعة ، وعلى الرفع من شأن الانسان ، وعلى الأيمان بأنهم يقدرون — في الحالين — إذا ارادوا . فهذا ، دون غيره ينقلنا من منزلة المساواة التي ننشدها بالعاطفة ، إلى منزلة الرفعة التي نأخذها بالقدرة والحكمة ، فتحنى لنا الرؤوس .

هذا كتابنا بين أيدينا ، وهذا فصله الثالث والثلاثون ، وكل اسم فيه ، هو دليل حي جديد ، على أن هذه الجامعة قد وفت بالعهد ، وستمضي وفية له بإذن الله .

مدرستي

هذه ساعة من ساعات العمر ، وهل في الحياة ساعة أروع من الساعة التي يعود فيها الولد إلى حضن أمه بعد طول غياب؟ أو من الساعة التي يرجع فيها الطالب إلى ربوع تربيته الأولى ، ومراتع أحلام صباه ؟ أو من الساعة التي يستقبل المعلم فيها رجلا كان فيما مضى من الزمان ، كالطين في يد الخزاف فنفخ فيه من روحه ، فصيره بما نفخ وبما صاغ ، كأحد أولاده الذين تحدروا من صلبـــه ؟

(١) خطبة ألقيت في الكلية الوطنية في الشويفات (لبنان) في عيدها الستيني في ٢٢ حزيران (يونيو) ١٩٤٦

وهذه ساعة اجتمعت لي فيها جميع هذه المعاني . فالشويفات منها أمي التي حملتني وحضنتني ، وأهلها أهلي . وبين هذه المباني العريقة ، والآكام النضيرة ، وتحت هذه السماء الصافية ، وعلى مرأى من هذه الرواسي الشم والبحر الذي عكست مرآته آيات التاريخ ، تفتحت نفسي أول ما تفتحت على آفاق المعرفة وأسرارها . وهذا الشيخ الفاضل الذي اجتمعنا اليوم لتكريم أثر عظيم من آثار فضله الكثيرة ، كان لي في منزلة الوالد ، وكان بنوه وبناته – الحاضر منهم والغائب – في منزلة الأخوة والاخوات ، ولا يزالون . فاليوم تعروني هزة ويكاد الدمع يطفر الى عيني إذ أقف لاحيي هذا المعهد النافع ، الذي كان وما فتىء في الطليعة منذ ستين عاماً ، في تهيئة الشباب لنداء الوطن والخير . إنها حقاً لساعة من ساعات العمر .

منذ اثنتين وثلاثين سنة – إي والله أقولها دون أن أخشى الفضيحة ، فهذا الشيب وهذا الصلع أفضح من هذا الكلام – منذ اثنتين وثلاثين سنة وقفت على منبر هذا المعهد لاتلقى الشهادة من يد رئيسه المفضال . ولكن ما حدث قبل الشهادة ، كان فيا أعلم مطوياً بيني وبين الرئيس ، وإنما أذكره اليوم لأنه يدل على سر من أسرار نجاح القس طانيوس سعد في تربية الشبان والشابات . فقد استدعاني قبل الحفلة ببضعة أيام ، وترفق معي في إبلاغي أنني رسبت في علم الجبر ، في الامتحان النهائي وأنه

لذلك الفى نفسه مضطراً ، أن يحبس عني الشهادة الخاصة التي تؤهلني أن أدخل السنة الأولى في القسم العلمي في الجامعة الاميركية بغير امتحان . وكنت قد أعددت خطبة لألقيها في الحفلة وتمرنت على إلقائها على مسمع من أغصان هذه الخرنوبة الباسقة التي تطل على الملعب . وتصورت ما يلحق بكرامة الشاب الغرير المغرور من أذى ، إذا ما عرف بين الاهل والاقران ، أنه قد رسب ، أو إذا منع عن إلقاء الخطاب . فتحير الدمع في عيني وأنا أحاول أن أناقش وأجادل . ولكن القس طانيوس سعد وضع يده الرفيقة على كتفي ، وقال في غنته المحبوبة : يا عيني هذه نعمة . فقد أتيحت لك فرصة لكي تتثبت من هذا العلم ، وما نفع العود القوي ، وإن كان من الحديد الصلب ، إذا أنت ركزته في الأرض ولم تثبته فيها ، فالريح قد تعصف به فتحطمه أو تقتلعه وتطرحه على الارض لقى مهملا ، أتريد أن تكون ، في الحياة ذلك العود ، تكفي نسمة من الهواء العليل لكي تعصف به . إذهب يا عيني ، وراجع هذا الدرس وتثبت منه وعد الى الامتحان في آخر الصيف ، وأنا واثق بأنك موفق إن شاء الله . وقد فعلت . وفي أثناء الطلب في الجامعة الاميركية ، كنت كثيراً ما أعود بالذاكرة إلى إرشاد القس طانيوس ، كلما عرضت لي مسألة في أحد العلوم تحتاج في حلها إلى معرفة الجبر ، فتتردد في جوانب نفسي معاني الشكر الصامت

لما اسداه إلي من يد جليلة .

وقد نسيت الآن معظم الجبر ، حتى القليل الذي كنت أعرفه يومئذ ، ولكنني لن أنسى ما حدث . فقد قبض القس طانيوس على مفتاح ، يفتح به القلوب المغلقة ، فينفذ بها إلى ما وراء العقول من طوايا النفوس . ان كتب المراجع أعلم من أعلم الاساتذة وأحفظ. ولكن المعلم الذي قبض بيديه عل مثل هذا المفتاح ، هو المعلم الخليق بأن يهيء النفوس والعقول جميعاً لمعترك الحياة ، هو المعلم الذي يطبع الاخلاق بطابع يبقى على الزمن إلى الابد : (أما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الارض)

وقد تفنن العلماء في استنباط المقاييس والموازين والمكاييل فقاسوا بها أدق قياس وأحكمه كل شيء على الارض أو في رحاب الفضاء ، من السدم العظام إلى الذرة وأجزائها . ولكن أحداً منهم لم يستطع حتى اليوم فيما أعلم ، أن يقيس بمقياس ما ، أثر المعلم النافع في نفس تلميذه . إن الكلمة السديدة تلقى في الساعة المؤاتية، وإن المثل الحكيم يساق في عرض الكلام، وإن اللمسة الرقيقة على الكتف مقترنة بـ «يا عيني» أو ما أشبه ذلك ، لأبلغ أثراً في كثير من الاحيان من المجلدات الضخمة أو المحاضرات البارعة. والقدرة على أن تقول الكلمة السديدة في الساعة المؤاتية

أو ان تسوق المثل الحكيم في عرض الكلام أو أن تلمس الكتف تلك اللمسة الرفيقة التي تفيد معنى الصداقة للتلميذ ، هي نعمة من نعم الله على المعلم ، تشد التجربة من أزرها ، وتسبغ عليها الفطرة الطيبة ، حناناً وعطفاً – هما سر هذا المفتاح – مفتاح التربية الصالحة . وقد تجتمع للطالب وللاستاذ جميعاً معرفة واسعة وذاكرة متوقدة وأسباب التفكير المستقيم ، فإن لم يفتح المعلم بمفتاحه ذلك الباب الضيق الذي يفضي بـه إلى أسرار النفس ، فلربما ضاعت المعرفة والذاكرة والتفكير وذهبت بدداً أو لربما انقلبت شراً مستطيراً .

كانت المعرفة تطلب في مواضي الأيام لتكون حلية يزدان بها أصحاب المال والجاه فتميزهم عن سائر النـاس . أو لتكون رياضة للعقل ، كما تكون الالعاب رياضة للعضلات . أو للاستعانة بها على الرزق . وهي جميعـاً أغراض لا تزال خليقة بأن تطلب ، ولكن العصر الذي نعيش فيه يقتضي أن يكون للمعرفة وظيفة اجتماعية . ففي العالم اليوم قوى متفجرة ، نستطيع أن نرتدّ بها إذا ما توسعنا في دراستها إلى ارتقاء العلوم الطبيعية وثمارها ، وإلى انتشار المذاهب السياسية والاجتماعية ، فإن لم تروض هذه القوى المتفجرة وتوجه الى الخير ، أقام الناس في كرب لا ينقضي ، وخطر كالسيف المصلت فوق الرقاب .

والعقل وحـــده عاجز عن هذا الترويض والتوجيه ، فينبغي

أن يقترن بالخلق الكريم وحب الخير العام حباً صادقاً والعزم الحديد على بذل ما في الوسع والطاقة لتحقيقه، لأن الفكرة الصالحة لا تجدي شيئاً إن لم يتهيأ لها الأفراد من رجال ونساء فيوالوها بالعمل النافع المثمر. فلذلك ترى الناس اليوم لا يقتصر طلبهم على المعرفة وحدها بل هم يطلبونها مقترنة بهذه الفضائل الخلقية العالية – أي إننا نطلب التربية في أوسع معانيها وأنبلها، وأدناها الى النفع ايضاً.

ومن إحسان التاريخ، إلى الشعوب العربية في هذا العصر، أن يجدوا في تاريخهم العريق ذينك الركنين اللذين لا غنى عنهما في بناء الصرح الجديد، الذي نتولاه اليوم بأيدينا. ونحن إذا قلبنا النظر في حياة هذا العصر، وجدنا أننا في حاجة إلى نهج جديد نسير عليه، فقد تغلغلت آثار العلوم الطبيعية الحديثة وثمارها في حياة الناس، حتى بتنا لا نستطيع أن ننهض نهضة صالحة، إن لم نتذرع بحقائقها وأساليبها كأحسن ما يكون التذرع. ولكن العلوم قد تجمح بنا فتركبنا شططاً فينبغي أن نضبطها بما يصح أن نسميه الأسلوب الديمقراطي في الحياة – ولست أقصد الحكومة الديمقراطية أو النيابية وحسب – بل أريد تلك النظرة إلى الحياة التي تعد الفرد خيراً قائماً بذاته، يجب أن تتاح له فرص النمو تحت ظل الله وأن ينشد الخير والسعادة لنفسه، وأن يدرك أن

خير الجماعة وسعادتها ، كل لا يتجزأ . فالمنطق والحاجة يقتضيان أن نصهر في بوتقـــة المدرسة هـذين العنصرين ، العلم والنظرة الديمقراطية ، ثم أن نتخذ منهما أساساً لتربية تصلح لهذا العصر ـ سواء أنظرنا اليه من ناحية الوطن المستقل ، أم من ناحية العـالم الذي أصبحت أممه اليوم وكأنها أمة واحدة ـ أو ينبغي أن تكون .

وفي تاريخنا لو استلهمناه ، أساس لهذا النهج . ففي الأديان السمحة التي نبتت في هذه الارض ، أركان النظرة الديمقراطية ، وفي هذه البقاع العريقة في نشأة المعارف الانسانية ، قامت منذ ألف سنة أو تزيد ، حضارة كان العلم من أرسخ دعائمها ، وقد أسدت إلى العالم فيما بعد نظرات صائبات في الكيمياء والطبيعة والطب والصيدلة والجغرافية وغيرها، لقحت بها قرائح الاوربيين في العصور الوسطى ، فأسفر التلقيح عن عنصر النهضة المجيد ـ الذي كان طليعة لعصرنا . فلم لا نعود إلى منابتنا ، فنجمع بين هذين الأصلين الكريمين من أصول حياتنا في الماضي ونروض أنفسنا عليها ، ثم نقيم المثل للدنيا بالقدوة الحسنة . فالامم التي أنجبت الرازي وابن سينا وابن الهيثم والغافقي والزهراوي وغيرهم لا تزال هي الأمم ، وإذا كان الفساد السياسي قد ارهقها قروناً فقد كشفت عنها أو كادت تكشف عنها ـ غماء التدخل

في شؤونها فصار أمرها بأيديها. وإذا كان الصدأ قد علا الحديد — حديد القرائح والهمم — فينبغي أن يزال حتى ينجلي جوهرها ويصقل. والتراث الذي أخذناه من أدياننا السمحة لا يزال يوري في كثير من النفوس أنبل الخصال.

فهذا في نظري هو أجل مهمة تتولاها المدرسة العربية في مطلع العصر الجديد.

وقد يكون معظم ماسقته من هذا الحديث كلاماً مألوفاً طال عليه القدم. وهو كذلك. ولكن في الدنيا اليوم، ما يجعل الاهتمام به والسير على نهجه، مهمة كل مفكر، وعمل كل قادر، لأن القوى الاجتماعية المتفجرة، تجعل الخطر الذي تواجهه الانسانية خطراً داهماً، فلا بد من المبادرة، فإن لم نفعل اليوم، فقد يوصد الخطر باب الغد في وجوهنا، والارجاء جناية كالاهمال.

منذ عهد قريب، صدر كتاب في الولايات المتحدة عنوانه «إما عالم واحد وإما فناء العالم». وقد قرأت عنه، فطلبته فجاءني قبل سفري من القاهرة ببضعة أيام فحملته معي، وطالعت بعض فصوله في الطائرة. وقد كتب معظم فصوله جماعة من كبار علماء العالم الذين كانت لهم يد في صنع القنبلة الذرية. وهم مجمعون على أن العقل البشري لا يدرك اليوم، ولا في المستقبل

المتوقع، وسيلة ما لدرء خطر هذه القنبلة. وخطرها ليس مستقراً في تفجرها الهائل وحده، بل هو مقترن بما صنعه الناس من طائرات متفوقة من الضرب المألوف والطائرات النفاثة، أو من الحاملات الصاروخية، فهذه جميعاً، أسرع كثيراً وأبعد مدى من كل ما عرفناه من الطائرات. وفي الوسع تسييرها مثقلة بهذا الجحيم المتفجر، بدون طيار أو ملاح، على طرق لاسلكية مخططة في عرض الفضاء، إلى أية بقعة من بقاع الأرض، فقدرتها على الفتك لا يحدها التصور.

على أن الدفاع الذي تكلم عنه العلماء هو الدفاع العلمي، أو الدفاع الحربي الفني فقالوا باستحالته على قدر ما يعلمون، وإذن فينبغي للعالم أن يلتمس أسلوباً للدفاع، في غير ميدان الوسائل العلمية والفنية. ينبغي أن يلتمسه في ميدان السياسة — أو قولوا وأنتم أصدق قولا، في ميدان التربية. فالناس يجب أن يتدربوا على أن يفهم بعضهم بعضاً، وعلى أن يحسن بعضهم معاشرة بعض وعلى أن يثق بعضهم ببعض. والناس يجب أن يستأصلوا من بيئاتهم جميعاً تلك البواعث التي تمهد للحروب بأن يشنوها حرباً لا هوادة فيها على الجهل والمرض والفاقة. ومن لهذه الحرب غير الشباب الذي تسلح بالعلم وتحصن بالخلق القويم وحب الخير العام. ومن لاعداد الشباب غير المدارس والمعلمين. فهذه

هي الوظيفة الاجتماعية للتربيــة الحديثــة . ونحن الذين يشتغلون بالنشر والكتابة والصحافة، نتجه اليكم يارؤساء المدارس ، ويا معلميها ونقول سيروا في الطليعة على بركة الله ، فنحن جنودفي الجيوش التي تعدونها وتعبئونها لتشن حرب الصحة على المرض ، وحرب العلم على الجهل ، وحرب الوفر على الفاقة وحرب الخير العام على المأرب الضيق الصغير .

ولتكن هذه الساعة الجليلة في تاريخ هذا المعهد الحافل ، ساعة يقف فيها نفسه أمام الله والناس ، على هذا العمل الحيوي النبيل ، في قابل ايامه الطويلة الزاهرة باذن الله، والسلام عليكم.

تعبئة كاملة

سيدتي المرأة — المرأة التي اجتمعت في كيانها جميع النساء من كل عمر وكل عصر وكل جنس وكل أرض ، ألقى الدهر عليك غلالة تكثف حينا فتخفي وراءها عوالم وعوالم ، وترق حيناً حتى تشف عن روائع ومفاتن ، فاذا البصيرة تائهة ، والعقل محير في استشفاف أسرارك. قلب ذوو النظر نظرهم ، واستحث ذوو الخيال خيالهم ، واستغرق أهل التأمل في تأمل طبائع اخواتك — السمر اللواتي يلهبن الحس بدلالهن ، والشقر الفاترات

خطبة القيت في مهرجان رابطة الهيئات النسائية ، في لبنان ، في ٢٠ آذار (مارس) ١٩٥٣

اللواتي يغرين وينفرن ، والدمشات اللواتي يحنون ويخدمن ، والغيد الرقيقات اللواتي يعذبن ويندمن، والامهات اللواتي يحملن ويرضعن ، والزوجات الحبيبات اللواتي يتقاسمن العبء ويضاعفن البهجة ويلهمن العزيمة، والزوجات النكدات اللواتي لايرحمن ولا يرضين، والجدات الحكيمات اللواتي يفرين الظلام، ويقطعن الشك بحكمة متقطرة من فطرتهن أو تجربتهن، والشاعرات والكاتبات والمحاميات والطبيبات والممرضات والمعلمات والعاملات الاجتماعيات اللواتي يعشن ويمتن لذواتهن أو لغيرهن – جميع النساء اللواتي خلقهن الله وأنبتهن، قلب العقل فيهن النظر، وتطلع الخيال إلى أغوار أسرارهن ، فاختلف الرأي، وإذا المرأة لم تزل على الدهر ، وعلى العقل ، وعلى الخيال ، لغزاً مغلقاً لأن سرها منتزع من سر الحياة التي تجددها وتديمها على الأرض، وإذا هي في رأى، حبيبة الأرباب الذين اغدقوا عليها هبة هذه القدرة العجيبة، وإذا هي في نظر ، وسيطة بين أهل الأرض والآلهة ، وإذا هي عند الفيلسوف كيان يغلب عليه حب الأم وهو أغلى الحب وأدومه وأنقاه ، وإذا هي عند الشاعر شيطان يغوى، أو ملاك يرحم ، وإذا هي عند عالم الأحياء وعالم الاجتماع مستقر أمل الحضارة وعند بابها حصن حمايتها .

فالمرأة كانت منذ أن أسفر فجر الوعي على العقل البشري ،

كل شيء في كل زمان ، بها فسروا الخير والشر كليهما ، والبؤس والنعيم كليهما ، والرقة والقوة كلتيهما ، والبناء والتدمير والطغيان واللين والاستعلاء والاستخذاء والاحساس المرهف بالمعـــاني الانسانية العالمية جميعاً . أسدل الشعراء والفلاسفة على منكبيها رداء من أرجوان ، فاذا هي ملكة ، وأراحوا رؤوسهم الشعث على صدرها فاذا هي أم أو غانية ، ونزعوا النقاب عن وجهها والوشاح عن عطفيها فاذا هي عروس الفنـــان الملهمة الخفرة ، وتصوروها على صهوة جواد أو بعير تقاتل ، أو في دير تعتزل الدنيا لتبتهل أو تعلم أو تؤاسي ، فإذا هي في الحالين تجاهد في سبيل الله . ما أكثر الشعراء والمصورين والمثالين والعشاق الذين ذهب بهم الظن والخيلاء إلى أنها دخلت في سلطانهم ، فإذا هم يفيقون من غشية التأمل ، أو سكرة الهيام ، أو سورة الابداع الفني على كائن ، أسراره لا تنفد ، وفطرته لا تسبر ، وسلطانه لا يحد .

ليست هذه الدقائق العشر أو العشرون ، هي المقام الذي يصلح للمفاضلة بين هذه الآراء ، ولكن الشيء الذي لا يخامرني شك فيه ، هو أن العصر الذي نعيش فيه ، قد صار بما تعدد فيه من وسائل القدرة التي تبني ، والتي تدمر ، ومن مذاهب الرأي التي تتآلف وتتباين وتصطرع ، خليقا أن ينهشه القلق حتى ينتهي الى

التهلكة ، إن لم يجتمع له شرطان ، لا غنى عن المرأة فيهما، فهي دون الرجل ، تحمل وتلد وترضع ، والمادة الحية التي تتخلق طفلاً في رحمها ثم تنطلق إلى النور، هي كالصلصال في يد الخزاف تصنعه على صورتها أو على الصورة التي أودعها الله في سرها.

أما الشرط الأول، فهو «حكمة البيت». فالمرء إذا نشأ في بيت ليس فيه رضى، أو عدل، أو صدق ، أو رحمة أو إيمان أو غيرها من الفضائل ، وخرج إلى ميدان الحياة الأوسع ، وتزود بما شاء أن يتزود من أسباب القدرة ، ولم يجد من ضميره وخلقه « وحكمة البيت » التي أنبتت فيه ، عاصماً يعصمه ، كان شر البلاء عل نفسه وعلى الجماعة . بيد أن « حكمة البيت » لا تقتصر على كونها عاصماً من شر أو واقياً من زلل ، بل هي قوة دافعة تمهد سبيل الانشاء للخير وهو أعظم وأجدى وأبقى على الدهر . فبين يدي الانسان اليوم من وسائل العلم والصناعة، ما هو خليق أن يكون رحمة وبناء ، إن أحسن الانتفاع به ، ونقمة ودماراً إن أسيء. والمرأة بحكم طبيعتها هي القيّمة على هذه « الحكمة » وهذا ، في أغلب الرأي هو ما يريده علماء الاجتماع حين يصفونها بأنها حارس المجتمع ، ومعقد رجاء الانسانية .

وأما الشرط الثاني ، فهو « التعبئة الكاملة » للأمة ، حتى يتاح لها أن تنتفع أكمل انتفاع وأفضله ، بما عندها من موارد

الطبيعة وموارد العقول والنفوس ، لبنيان مجتمع سليم ، قوي ، منتج ، حر ، خيّر ، أركانه أن الحكم الشعبي ممكن قيامه بغير طغيان ، وأن الحرية مثل عال بعيد ، ولكن الدنو منه مستطاع ، وأن إتاحة الحياة الوافرة لكل فرد من أفراد الأمة شيء يتيحه العلم ، وواجب يلقيه الاجتماع على كاهل كل إنسان ، وأن في قدرة الناس أن يدنوا من العدالة الاجتماعية بالتواصي على الألفة والخير قبل التشريع ، وكيف تستطيع الأمة أن تبني هذا البنيان إن لم يبذل نصفاها المتكاملان ، خير ما عندهما ؟

وقد يندر أن نجد من يخالف في أن البيت هو مملكتها ، التي يتصل فيها نسيج الحياة على نول الزمن ، وقد يكثر من يخالف في أن الأمة لا تكمل حتى تقف نساؤها مع رجالها في عمل التعبئة وعمل البنيان ، ومن مآثر هذا العهد ، أن رجال لبنان لا يخالفون ومن هنا هذا القانون الذي نحتفي به اليوم .

أن القانون الذي اعترف للمرأة اللبنانية بجميع الحقوق السياسية ، قد فتح أمامها بابا على مصراعيه ، للمشاركة في كل عمل تحسنه ، سواء أكان ذلك العمل وقفاً على الرجال من قبل ، أم كان عملاً مهملا لا يتولاه أحد بعنايته . وهذا الاشتراك أدعى الى « التعبئة الكاملة » للامة ، وأحفظ على العدالة الانسانية في معناها الأعلى ، فهي كائن له عقل يحسن التفكير ، وفطرة سليمة تحسن

التقدير، وعاطفة مرهفة مطبوعة بطابع الخير، وعزيمة صادقة لا تلين في طلبه. إنها بحكم ما فطرت عليه « من حب الأم » « وحكمة البيت » تنزع أقوى نزوع وأصفاه الى الرحمة بأوسع معانيها ، وما ينطوي فيها من رغبة في حفظ الصحة ودرء السقم، وتقشيع ظلمات الجهل بنور المعرفة، ورعاية الطفل حتى يستقيم عوده الغض، ورفع الحيف عن العامل المظلوم في ساعات عمله ، وقلة أجره ، وسوء مسكنه وملبسه ومأكله ، وعن السجين الذي يصير في بعض السجون ، أدنى إلى الاجرام وأحذق لوسائله، وأشد نقمة على المجتمع الذي أنبته ، وهذه جميعاً ، وغيرها على غرارها أصبحت في عالمنا المعقد ، مشكلات لا مفر من غلاجها حفظاً لسلامة المجتمع ، ولا يجدى في علاجها جدوى كاملة ، جمعيات للخير تنشئها المرأة وتسهر عليها ، مهما تحسن نيتها ويصدق عزمها ويجلُ بذلها، بل هي تحتاج إلى العمل السياسي في جميع مراحله من مجلس القرية الى الندوة النيابية ، ولا غنى لها عن برامج تؤيدها المرأة وتؤيد من يؤيدها، وتتنادى لها المرأة بالحجة البليغة والمثل الأبلغ ، ثم تضيف اليها من وراء الحجة والمثل، قدرتها السياسية المنظمة ، المستمدة من حقها أن تنتخب وأن تنتخَب ، وأن تمنح الثقة وأن تحجبها .

فالمرأة اللبنانية الجديدة ، ليست جديدة من حيث أنها تريد اليوم لوطنها خيرا لم ترده أمس ولم تسع اليه ، بل هي جديدة

لانها تملك اليوم القوة السياسية ، التي تمهد لها أن تمضي قدما الى تحقيق ما تريد . اللهم ألهمها الحكمة والعزيمة حتى تكون قدوة فيما تفعل ، اللهم وفقها فيما تريد .

أما وقد اكتمل كيانها الاجتماعي ، وصارت تحس في ذات نفسها ، أن ليس ثمة حيف واقع عليها ، فينبغي أن تعلم هي ، وأن نعلم نحن أنها في ميدانها الجديد ، لا تمثل فئة تحارب فئة كانت تنكر عليها حقوقها ، وينبغي أن تدرك هي، وأن ندرك نحن ، أنها تضيف اليوم جوهراً جديداً من معدن كريم ، إلى الحياة العامة في هذه الأمة الكريمة ، فقد طغى على هذه الحياة شيء كثير من العنف، حتى تبلد الاحساس بالكلمة النابية، وفشا الاندفاع إلى قياس قيمة الأمور بمقاييسها العادية العابرة ، ووقر في النفوس أن القوة والسطوة والاثرة هي السبيل إلى تحقيق ما يصبو اليه المرء ، وصار الاستهتار بالقانون الموضوع أحياناً ، والقانون الخلقي أحياناً لا يثير نقداً وقل أن يثير عجباً، فعسى أن يكون اشتراك المرأة اللبنانية في الحياة السياسية اشتراكاً أصيلاً تاماً ، وعلى وجه يلائم فطرتها ويجلوها ، فتردع عن العنف بالاناة، فالغضب ريح تطفىء سراج العقل ، وترد الجفوة بالسماحة والرقة ، كالعود اللدن يغلب العاصفة بلينه، وتكافىء عن احترام القانون بالرضى تفترّ عنه ويشع من عينيها، وتعاقب على انتهاكه

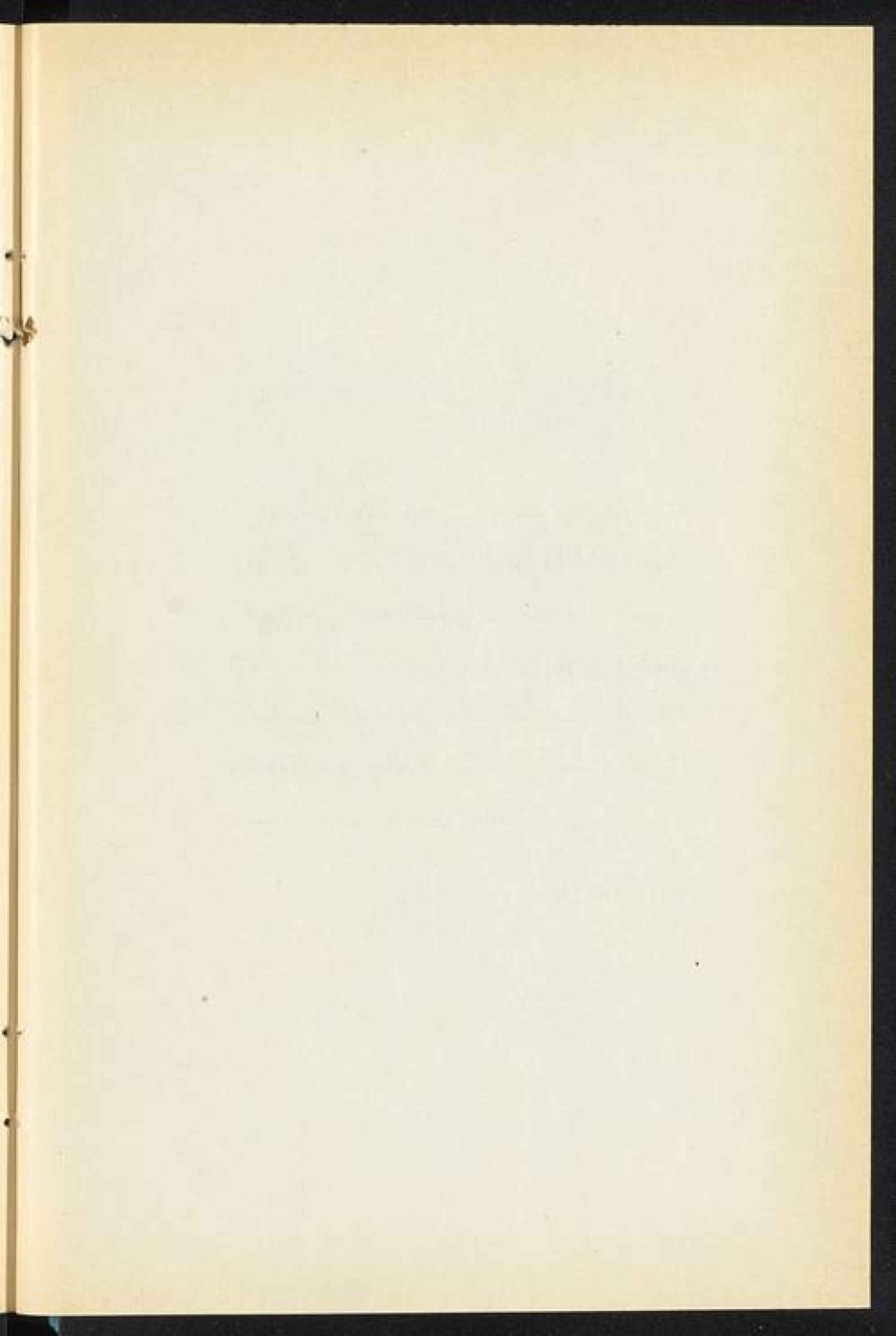
بالاحتقار والتحقير، وتفتح أمام العقل أبواباً تفضي إلى عرش، تراه البصائر وإن دق عن الابصار ، وترتفع عليه المعاني الانسانية والادبية العليـــا ، ثم لا تزال تحرق لها البخور ، في البيوت والمدارس والمجالس والصحف والندوة النيابية حتى يصير الناس أدنى الى الولاء لها ، والأخذ بهـــا في سرائرهم ومعاملاتهم على السواء، فإن فعلت ، كانت مكملة للرجل لا منافسة له ، وتمت تعبئة قوى الأمة جميعاً على خير وجه وأنفعه .

سيدتي، المرأة التي اجتمعت في كيانها جميع النساء أمدّ يدي أنا الرجل الذي اجتمع في كياني جميع الرجال ، فتفضلي ومدي يدك إلي ، حتى نقيمها معاً حرباً عوانا ، على العنف والهوى ، والمرض ، والظلام والفرقة والاستهتار ، حرباً تجعل لبنان أمة واحدة سليمة ، قوية ، حرة ، خيرة ، ومثالاً يحتذيه الناس في كل أرض .

- ٢ -

« ... وعالمنا الحديث قد بلغ هذه المرحلة، فيما أرى . فالتعاون على الوفر والخير ، أجدى كثيرا على جميع النـاس من التحارب عليهما . فالوفر والخير مكفولان ، عن طريق تطبيق الأساليب العلمية والوسائل الصناعية الحديثة ، وخطر التدمير والهلاك مكفول أيضاً عن طريق تطبيق اساليب التدمير الحديثة . »

[عن برتراند رسل في حديث « نحو عالم أفضل » أذيع من محطة الشرق الأدنى للاذاعة العربية]



نحو عالم أفضل

منذا الذي يستطيع أن ينكر اليوم أن التفكير في إنشاء عالم أفضل ، قد غدا ضرورة ملحة ، وليس ترفاً عقلياً وكفى ! والتفكير وحده لن ينشىء هذا العالم المأمول ، ولكنه التمهيد الذي لا غنى عنه ، لأن كل إصلاح اجتماعي ، ينبغي أن يبدأ فكراً يقوم الدليل على سلامته ، ثم يعتنقه الدعاة من رجال ونساء ، فيمهرونه بوهج من عاطفتهم وبلاغتهم ، ويطبّقه الرواد في نطاق صغير ، فتثبت جدواه ، ويومئذ يسير الاصلاح في طريقه كأنه قوّة من قوى الطبيعة التي لا تكبح .

حديث أذيع من محطة الشرق الادنى للاذاعة العربية .

ولم يزل الكتّاب والفلاسفة منذ أقدم عصور الفكر، يعنون بموضوع « الفردوس على الأرض » وهل يستطيع الناس أن يقيموا مجتمعاً فاضلاً أو مدينة فاضلة ، فيخضعوا لقوانينها الصالحة فتبطل الحروب ، ويستتبّ الأمن ، ويشيع الانصاف والخير ، وتتاح لكل امرىء فرصة يحقق فيها سكينة النفس التي تعدّ خير فضيلة ، في الحياة الدنيا .

أقدم عليه أفلاطون ، في القرن الخامس ، قبل التـــاريخ الميلادي ، فوضع « الجمهورية » كتابه الخالد في تاريخ الأدب الانسانيّ والسياسة والاجتماع ، وجـــاراه الفارابي في « المدينة الفاضلة » ، ثم توماس مور الانكليزي ، في القرن السادس عشر الذي جعل عالمه الأمثل في جزيرة «يوتوبيا» ومعناها « لا مكان» ولكنها صارت اليوم كالعلم لكل شيء مثالي ، لا يدرك ، أو مناله بعيد ، ثم كمبانلا الايطالي في أواخر القرن السادس عشر وأوائل القرن السابع عشر ، في كتابه « مدينة الشمس » ، وولز الانكليزي في القرن العشرين في كتابه «يوتوبيا الجديدة». ولو حاول الباحث أن يفصّل رأي كل كاتب أو فيلسوف من هؤلاء في « دولته المثلى » أو « عالمه الأفضل » لاستغرق ذلك بحثـــاً مطولا ، ومع ذلك ، فثمة عدا عن هؤلاء جماعة غير قليلة من عباقرة الكتّاب عالجوا هذا الموضوع ، في بحث مطوّل ، أو

في إشارة عارضة في خطبة أو قصيدة .

وفي هذا كله دليل قاطع على أن البشر يتوقون إلى عالم ، يتوافر فيه الاطمئنان ، والعمل ، والعدل ، والخير ، والسلام ، والحرية ، لجميع الناس ، وقد كان هذا التوق الشديد ، أقرب إلى الأدب والتخيل الفلسفي في العصور القديمة، ولكنه صار ولا ريب ضرورة ملحة في عصرنا الحديث ، وأقطاب الفكر الذين عالجوه منذ عهد أفلاطون إلى عهد جمعية الأمم ، والأمم المتحدة هم كالأعلام المنصوبة على جانبي الطريق ، الذي يبدأ عند فكرة، أو خاطر وحسب ، وعسى أن ينتهي إلى أن يصير حقيقة في خاتمة المطاف .

أما أنه ضرورة ملحة في هذا العصر ، فبيّن لمن يريد ان يرى ويعي، بيّن في هذا الاتصال الوثيق الذي تمّ بين أمم الأرض عن طريق التقدم الباهر في وسائل المواصلات والمخاطبات. وقد ألف الناس اليوم ، هدير الطائرات النفّاثة وغير النفّاثة ، حتى لكأنها شيء معهود منذ زمن طويل . وقد تعوّدوا الاستماع إلى الاذاعة ، من أقاصي المعمورة ، حتى لكأنها لم تكن ألهية علمية صناعية منذ نصف قرن أو أقل ، يتندّر بها الناس في المجالس كما يتندّرون بالخوارق ، ويعدّهـا العلماء شيئاً مستحيلاً على مسافات بعيدة ، حتى أثبت ماركوني أنه يستطيع أن يرسل

إشارة لاسلكية من غرب أوروبا إلى شرق القارة الأميركية .

هذا الاتصال عن طريق وسائل المواصلات والمخاطبات الحديثة ، جعل الناس جيرة واحدة ، فلما ازدادت بين أيديهم وسائل القدرة على التقتيل والتدمير ، واستفحلت ، صار العالم كله عرضة لحقيقة بسيطة ثابتة مؤداها : أنهم إذا لم يتعلموا أن يعيشوا بعضهم مع بعض في محبّة وسلام ، وأن يفهموا بعضهم بعضاً ، فقد ينتهي بهم الأمر إلى أن يدمروا بعضهم بعضاً . ومن هنا صار البحث في قيام « عالم أفضل » والسعي الجاهد إلى تحقيقه ، شيئاً تقتضيه الضرورة الملحّة ، وليس ترفاً عقلياً نلهو به ساعة ثم يطوف به طائف من الاهمال ، أو طائف من النسيان .

والشيء العجيب في هذا الأمر ، هو أن الوسائل المادية التي لا غنى عنها لقيام هذا العالم أصبحت ميسّرة بين أيدي الناس ، لو احتكموا إلى العقل في تطبيقها ، وهو خير مشير ضمّه النادي على قول الشاعر العربي .

فأساليب العلم والصناعة في هذا العصر ، تستطيع أن تكفل لأهل الأرض عيشاً رضياً إن لم نقل عيشاً رخيـاً . قد يقتتل الناس على موارد الطاقة ، وموارد الطعام ، وموارد خامات الصناعة ، لان هذه الموارد جميعاً ، لا غنى عنها ، لقوة كل أمة ورفعتها . ولكنّ الشيء الجديد ، في العمران ، هو ان العلم

أخذ يمهد السبيل ، بما كشف أهله واخترعوا ، للظفر بكل قدر من الطاقة ، أو الطعام ، أو خامات الصناعة ، يحتاج اليه الناس . وقد كان الفحم الحجريّ المصدر الاول للطاقة في طليعة العصر الصناعيّ الحديث ، فقامت الصناعات الكبيرة الأولى ، عند مناجمه أو قربها . ولكن الناس يستخرجون الطاقة اليوم ، من مساقط المياه ، ومن جزيئات النفط ، ومن القوى الكامنة في الذرة ، وهم يحاولون أن يستخرجوها من طاقة الشمس التي ينصبُّ منها على سطح الارض كل يوم ، أكثر مما يستنفده الناس جميعاً من الطاقة في سنة أو في سنين كثيرة . وقد كانت موارد الطعام قليلة يوم كان الناس ، يعتمدون على أساليب قديمة في الزراعة ، حتى قام الرأي بأن تزايد الناس على سطح الارض ، يفوق تزايد موارد الطعام ، وإذن فالمجاعة المهلكة واقعة وليس منها مفر. ولكن أهل العلم الحديث، طلعوا على الناس بأساليب جديدة في الزراعة ، فصنعوا الاسمدة الكيميائية ، وطبقوا أساليب التأصيل والانتخاب، وبدأوا يستعينون بوسائل الكيمياء ليحيلوا مادة السلولوس ، وهي المادة الخشبية في كل نبات، التي لا تهضمها معدة الانسان ، الى طعام يستسيغه المرء ويتغذى به وتهضمه معدته ، وربطوا عجلة المحراث والآلات الباذرة والحاصدة والناقلة إلى العمل في الحقول ، فازداد الانتاج ازدياداً عظيماً، ومع ذلك لا نزال نجد في أرجاء العالم مساحات مترامية

من الارض الخصبة ، ولكنّ قوام الزراعة فيها لا يزال كما كان قبل ألف سنة أو ألفين أو ثلاثه آلاف من السنين، وعلاوة على هذا وذاك لا يزال سرّ الورقة الخضراء ، وهي أعظم معمــل كيميائي للطعام في العالم – مستغلقاً علينا ، ولكنه لن يبقى مستغلقاً إلى الابد .

فاذا استطاعوا أن ينفذوا إلى سرّ التركيب الضوئي في الورق الاخضر، فتحوا أمام الذين يتناحرون على موارد الطعام وموارد خامات الصناعة، باباً واسعاً، وخطوا نحو الوفر المادي في العالم الافضل ، خطوة تصغر في جنبها مآثر العلماء في القرن التاسع عشر وما مضى من القرن العشرين .

ونشوء الصناعة الحديثة ، جعل الطلب على المعادن الفلزية في جوف الأرض، طلباً شديداً ، حتى خشي علماء المعادن وطبقات الأرض ، أن يستنفد الناس ، ما اختزنته الأرض في جوفها منذ أقدم العصور الجولوجية ، ولم يكادوا يفعلوا ، حتى عمد رجـال الكيمياء ، إلى ابتداع موادّ تحلّ محلّ بعض المعادن ، ولكنهم صنعوها من أشياء تتجدّد كلّ سنة ، هي منتجات الزراعة ، أو صنعوها من الماء والهواء والجير . فجميع اللدائن الكيميائية ، التي تدخل في أقلام الحبر ، وأكر الابواب ، والموائد والمقاعد صارت تصنع اليوم من أشياء لا معدن فيها على الاطلاق. وقد

صنعوا منها أشياء كان الظن أن الحديد الصلب فيها شيء لا غنى عنه ، كأجسام بعض الطائرات والقطرات وما أشبه .

ولكن يبدو كأنما النزاع مركب في طبيعة البشر منذ أن كان البشر ، وإذا استقرأنا التاريخ تبيّنا أن الانسان لم يزل في صراع مستمرّ مع قوى ثلاث ، فثمة أولاً نزاعه مع الطبيعة ، وثانياً صراعه مع أخيه الانسان ، وثالثاً صراعه مع نفسه .

أما نزاعه مع الطبيعة فقد كان أقدمها على سطح الأرض ، وربما كان أعظمها شأناً ، بل كان حتماً أعظمها شأناً ، لأنه لو خذل الانسان في صراعه مع الطبيعة ، لقضي عليه ، ولما قامت المشكلات السياسية والاجتماعية التي نشأت عن تزايد عدده .

وسلاح الانسان في صراعه مع الطبيعة ، هو العلم – قد يكون علماً بدائياً وقد يكون علماً دقيقاً معقداً كالذي نراه مبذولاً بين أيدينا في عصر الذرّة . وكل ظفر ناله الانسان في صراعه مع الطبيعة، أمّن الانسان على عنصر أو آخر من عناصر العيش على الأرض ، فأعقبه ازدياد الناس .

وعلى قدر ما يفهم الانسان الطبيعة ويسيطر على قواها ، تزداد صلته بسائر الناس شأناً وخطراً . وسبب ذلك أن ألوان التقدم الأولى التي نشأت عن الغلبة – بعض الغلبة على الطبيعة

صارت تقتضي قيام الجماعات، والجماعة التي تلفي نفسها اقدر قليلاً على تأمين موارد الطعام ، تلفي نفسها أيضاً ، أقدر على محاربة الجماعة التي تجاورها لتخضعها أو تبيدها حتى تستأثر هي بموارد الطعام لعددها المتزايد .

بيد أن أطراد التقدم على هذا النحو ، يبلغ الانسان مرحلة من العمران ، يصير فيها الغنم من التعاون على الطبيعة ، أعظم جداً من الغنم الآتي من إبادة الأعداء . فإذا بلغ الناس هذه المرحلة ، صار شيئاً لا مفر منه ولا غنى عنه ، أن يضع الناس حداً للصراع بين الناس . وعالمنا الحديث قد بلغ هذه المرحلة اليوم ، فيما أرى . فالتعاون على الوفر والخير ، أجدى كثيراً على جميع الناس، من التحارب عليهما. فالوفر والخير مكفولان، عن طريق تطبيق الأساليب العلمية والوسائل الصناعية الحديثة ، وخطر الهلاك والتدمير ، مكفول أيضاً عن طريق تطبيق أساليب التدمير الحديثة .

ومن هنا صار للصراع من اللون الثالث ، منزلة خاصة في بحثنا – أعني صراع الانسان مع نفسه. وإذا كان العلم هوسلاح الانسان في صراعه الأول ، صراعه مع قوى الطبيعة ، فالتربية القوية ، هي سلاح الانسان في الصراعين التاليين كليهما ، أي صراعه مع أخيه الانسان ، ثم صراعه مع نفسه .

فالتربية القوية تبين على أوسع مدى وفي أبلغ قول ، أن المصلحة القاهرة هي التي تقضي على الناس بالتعاون المجدي ، حتى لا يهلكوا ، وتبين لهم أن ما قاله علي بن أبي طالب ، رضي الله عنه ـ الناس أعداء ما جهلوا ـ هو حق وأحرى بأن يتّبع ، وتدربهم على سعة الصدر ، ورحابة الأفق ، وأن الانصاف أفضل من الظلم ، وأن القانون خير من الفوضى ، وأن سكينة النفس فضيلة تحدى إليها الركائب ، أي أن المعرفة والحكمة ينبغي أن تندمجا في وحدة النفس الانسانية ، فيكون الرجل الفاضل ، ويكون هو الطريق إلى عالم أفضل ، والركن الركين الذي يقوم عليه .

صفة العصر

يطيب لبعض الكتاب، أن يوجهوا إلى أنفسهم في الحين بعد الحين ، أسئلة قائمة على الفروض التاريخية ثم يحاولون الاجابة عنها . فمنهم من يقول مثلاً – ترى أي مصير كان خليقاً أن يكون مصير العالم ، لو لم يصل القائد الألماني بلوخر إلى معركة واترلو، ساعة وصوله، إذ بدأت تتضعضع صفوف الجيش البريطاني وحلفائه ، بقيادة ولنغتون ؟ أو ترى أي مصير كان خليقاً أن يكون مصير العالم ، لو لم تأذن القيادة الألمانية العليا لنيقولاي لنين ، بالمرور في قطار مختوم من سويسرا إلى روسيا في سنة ١٩١٧ ؟ أو ترى أي مصير كان خليقاً أن يكون مصير الولايات

حديث اذيع من محطة الاذاعة اللبنانية

المتحدة الأميركية ، في العقد الرابع من هذا القرن، لو لم يصب روزفلت الذي انتخب رئيساً سنة ١٩٣٢ بشلل الأطفال قبل ذلك بعشر سنوات ، فأتيح له في خلال المرض ، أن يغلب مرضه بقوة الارادة والاحتمال ، وأن يدرس في خلال مرضه مشكلات عصره في بلده ؟

وهذا الضرب ، من الكتابة ، مسلاة للقراء ، ولكن العامل الأقوى في التاريخ ، ليس هو الحوادث الفردة ، بل القوى المتحركة كالتيار ، فأهم من وصول بلوخر ، وانتقال لنين ، ومرض روزفلت قبل انتخابه ، هذه القوى الاقتصادية الاجتماعية التي جعلت أوروبا في عهد نبوليون الأخير ، تواقة إلى حكم غير حكم رجل فرد نال سلطانه بالعبقرية العسكرية ، والتي جعلت روسيا في عهد لنين ، تواقة إلى نظام اجتماعي أقرب إلى العدالة وإنصاف الناس ، والتي جعلت أميركا في العقد الرابع من هذا القرن ، في حاجة إلى من يصحح فيها أخطاء تقدمها الصناعي الباهر ، بإقامة الميزان بين الاجتهاد الحر في الأعمال ، وحقوق العامل . ولو لم يكن ثمة بلوخر ، أو لنين ، أو روزفلت ، لتحقيق بعض الأغراض التي تتجه اليها تيارات التاريخ العميقة ، لكان غيرهم فعل ، وإن تأخر زمانهم شيئاً قليلاً .

فاذا اتبعت أثر هؤلاء الكتاب ، فيما أنوي أن أوجهه من

سؤال الليلة ، فلأن الجواب عنه ، فيما أرى ، ليس مستقراً في حادث فرد خليق أن يغير مجرى التاريخ ، بل هو وصف قوة من قوى التاريخ ، ينبغي لنا أن ندخلها في كل حساب نحسبه ، كلما حملنا الحديث على البحث في شكل عالمنا المقبل ، أو حتى في حاضرنا الراهن .

أما السؤال فهو هذا: ترى لو وقف مؤرخ على ذروة القرن الخامس والعشرين، ورمى ببصره إلى الوراء ستة قرون ، وسأل نفسه بما يمتاز النصف الأول من القرن العشرين ، فماذا يجيب ؟

أيجيب بأن الصفة التي تميز النصف الأول من القرن العشرين هي هاتان الحربان العالميتان المدمرتان ، اللتان بلي بهما الناس في أواسط العقد الثاني، وأواخر العقد الرابع إلى أواسط الخامس ؟ أم يجيب بأن هذه الصفة المميزة هي قيام الشيوعية الدولية وانتشارها ؟ أم هي الحركة الاجتماعية التي تجمع بين انتشار التعليم وتحرر المرأة وسيرها قدماً إلى اتخاذ مكانها في المجتمع الانساني أسوة بالرجل ، في مجالس الحكم ، والمتاجر والمصانع ومكاتب العمل ، ومعاهد التربية ؟ أم هي التقدم العجيب في استجلاء طائفة كبيرة من أسرار الكون ، وتطبيق كثير من مكتشفات العلوم في ميادين الصناعة والزراعة والمواصلات والمخاطبات ؟ أم هي محاولة أقطاب الامم محاولة واعية أن

ينشئوا آداة لتوطيد أركان السلام على الأرض ، وحسم الحروب بالاحتكام إلى هيئة عامة كعصبة الامم أو الامم المتحدة ؟

كل صفة من هذه الصفات ، لها شأن خطير ، في تحديـــد طبيعة النصف الأول من القرن العشرين ، وفي وسع من يريد أن يقيم الحجة ، على أن هذه أو تلك من هذه الصفات هي الصفة المميزة لما مضى من هذا القرن .

بيد أنني اريد الليلة أن اقيم الحجة على أن الصفة المـــميزة للنصف الأول من القرن العشرين ، هي أن منافـــع الحضارة صارت فيه لأول مرة ، في تاريخ البشر على الأرض ، خليقة أن تتاح لجميع الناس ، لو عقل الناس . أي أنه في قدرتنا اليوم أن نقيم « دولة الخير في عصر الذرة »

وليس ثمة ريب في أن إتاحة منافع الحضارة ، لجميع الناس ، هو مثل اجتماعي عال ، لا يرتد الى الحضارات القديمة ، وإن كانت له نواة صالحة في جميع الأديان السموية . وقد نشأ هذا المثل العالي ، وتجسم في العصر الحديث منذ أن صارت الصناعة الكبيرة قادرة على الانتاج الواسع النطـــاق ، ولازمه إدراك جديد طرأ على الوعي البشري ، ومؤداه أن الرخاء والحرية لا يتجزآن . وقد قال الحكماء إن الحرية هي الشيء الوحيد الذي لن يسعك أن تأخذه دون أن تعطيه ، وأثبت الاقتصاديون ،

ان رخاء بلد مـــا لن يتم إن كان البلد الذي يجاوره أو حتى البلد الذي يبعد عنه ، متردياً في فاقة سوداء .

وليس ثمة ريب أيضاً ، في أن تحقيق هذا المثـل الاجتماعي العالمي ، هو ضرورة تقضي بها طبيعة العصر ، علاوة على كونه خيراً مطلقاً . ففي عصر كالعصر الذي نعيش فيه ، ليس في وسع أحد من الناس ، أن يغمض العين عن حال سائر الناس ، وقد مضى الزمن الذي كانت فيه أنباء الامم تستغرق أياماً وأسابيع حتى تنتقل من مكان إلى آخر على سطح الارض. أما وهي تنتقل اليوم بسرعة البرق ، فكل ما يحدث في بلد ما سرعان ما يؤثر في كل بلد آخر . ولن تجد في هذا العصر أمة قـــادرة على الاستكفاء بمواردها أو الاستغناء عن غيرها ، وأنت يا سيدي الذي تكرمني بالاصغاء إلى هذا الحديث ، أو أنت يا سيدتي ، أيفكر أحدكما ، حين يدير مفتاح المذياع ، أو يرفـــع سماعة التلفون في أن هذا الجهاز أو ذاك ، يحتاج إلى عنصر الكروم من روديزيا أو روسيا ، وإلى عنصر الكوبلت من الكونغو البلجيكي ، والنيكل من كندا ، والأنتمون من الصـــين أو المكسيك ، والقصدير من جزائر الهند الشرقية أو بوليفيـــا ، والمطاط الطبيعي من ملايا أو المطاط الصناعي الذي يستخرج من نفط البحرين أو الكويت أو العراق أو غيرها ، والحرير من

الصين أو اليابان ، والقنب من الفيلبين أو الباكستان ؟ وكل منا يستمتع طوال يومه بأشياء ذات منفعة أو ذات جمال، مردها إلى أننا أعضاء في مجتمع يأبى التقيد بحدود الجبال والبحار . فالعالم كله قد صار جيرة واحدة، ومصير كل امرىء فيه مرهون بمصير جاره .

وليس ثمة ريب أخيراً ، في أن تحقيق هذا المثل الاجتماعي العالي ، هو شيء مستطاع ، فرجال العلم ، ورجال الصناعة قد تمكنوا على الزمن، وبخاصة في النصف الأول من القرن العشرين أن يتعاونوا مع الطبيعة ، على توفير ما يحتاج اليه الناس . وهو شيء لم يكن معهوداً في الحضارات القديمة ، فليس ثمة اليوم ضرورة طبيعية قاسرة لا مفر منها تقضي بأن تبقى جماعة من الناس في رق الفاقة والعوز . أقول أن « يتعاونوا » مع الطبيعة ولا أقول « أن يخضعوها » لأنه ليس في قدرة الانسان أن يخضع قوى الطبيعة ، ولكن في قدرته ، أن يفهمها ، وأن ينفذ إلى بعض أسرارها ، فيصير قادراً على الانتفاع بها ، بتسييرها في وجهة تجدي عليه أحياناً — وتؤذيه أحياناً . ولكن الجدوى في الحالة الاولى ، والأذى في الحالة الثانية ، ليس مردهما إلى علم الانسان وصناعته ، بل إلى أخلاقه وسياسته . وعلى كل حال فليس ثمة ريب ، في أن توفير الوسائل المادية لقيام دولة الخير في

عصر الذرة ، وتحقيق ما ينطوي فيها من مثل اجتماعي عـال ، هو شيء مستطاع .

وإذن فقد اجتمعت لدينا ، ثلاث حقائق : أولاها أن إتاحة منافع الحضارة لجميع الناس ، صار مثلاً إجتماعياً عالياً ، تحدى اليه الركائب ، ولا يحتمل أن ينزل النـــاس عن السعي اليه . وثانيتها ، أن إتاحة منافع الحضارة لجميع الناس ، هي ضرورة تقضي بها طبيعة العصر ، علاوة على كونها خيراً في حد ذاتها . وثالثتها ، أن إتاحة منافع الحضارة لجميع الناس ، صارت شيئاً مستطاعاً ، بفضل التقـدم العجيب الحديث في ميادين العـــلم والصناعة .

أتوافقني إذن أيها المستمع الكريم ، أن هذه الصفة ، من صفات النصف الاول من القرن العشرين ، هي الصفة الغالبة عليه من حيث هي حقيقة ومن حيث هي تحدّ للعزائم . وأنهـا أهم شأناً على التقدير التاريخي البعيد ولعلها أبعد أثراً ، من بعض مسائل الامم المتحدة ، والشيوعية ، والحربين العالميتين ؟ بيد أنك ولا شك تسأل نفسك ، كما أسأل نفسي . أيكون مـــن نصيب النصف الثاني من القرن العشرين ، أن يدنو بالناس خطوة ما إلى تحقيق هذا المثل الاجتماعي العالي؟ أيستطيعون أن يضمنوا قسطاً من السلام يتيـح للعقول أن تزدهر ، ولأولي الهمم أن

يعملوا ؟ أيزدادون قدرة على الانتفاع بموارد الأرض المتجددة كل عام ، اجدى إنتفاع دون ان يدمروا البيئة الطبيعية التي تركو فيهـــا ؟ أيستطيعون ان ينشئوا في الامة الواحدة دولة تكفل الخير العام دون ان تفتئت على حقوق الافراد الاصيلة ، أيستطيعون ان ينيلوا الامم التي لم يتح لهـــا قسط من التقدم الاقتصادي والصناعي ، منافع الحضارة الحديثة دون ان يساير الركب قيد من قيود الاستعمار ؟ كل مشكلة من المشكلات التي تثيرها هذه الاسئلة ، عسيرة او هي تبدو عصية على الحل ، وهي في مجموعها أعسر وأعصى ، . ولكن تاريخ الانسان على الارض ، والتجارب التي مرت به ، والويلات التي ذاق مرارتها والوسائل التي اتاحها له العلم ، والوفر الذي تستطيع الصناعة والزراعة الحديثتان ان تخلقاه – كل ذلك ينبغي ان يمهد للانسان إن عقل ، إلى حلها . فان لم يفعل فالعاقبة وبال ، وعندي ان الاصطدام بكوكب يفتت الارض ويبيد من عليها في لحظة من الزمان خير من تناحر لا حد له ، او حرب ذرية ، تشن من أجل أشياء ومغانم نيلها بالتعاون أضمن وأبقى .

الطعام والسلطان

- ١ -

قرأت منذ عهد قريب في مجلة من مجلات العلوم الحديثة نبأ مؤتمر حضره ستة من العلماء الذين ظفروا في العهد الأخير بجوائز نوبل في الكيمياء ، ووجه إليهم السؤال التالي : ماذا يسعنا أن نصنع لتوفير الغذاء الكافي لأهل الأرض ، لو ذللت العقبات السياسية وأتيح لكم المال اللازم وأفسح امامكم المجال لتنظموا بحوثكم وتجاربكم على خير ما تريدون ؟ فأجمع هؤلاء العلماء على

حديث أذيع من محطة الاذاعة اللبنانية

أنه في الوسع مضاعفة مقدار الطعام المتاح ، فيرتفع مستوى التغذية لأهل الأرض اليوم، ولضعفيهم بعد قليل. ومن الوسائل التي اقترحها العالم الفنلندي « فيرتانن » زيادة البروتين في النباتات التي تؤكل ، وتأصيل أصناف من النبات تفوق النباتات المألوفة في قدرتها على الانتفاع بطاقة الشمس ، أي في تركيب المواد الغذائية الأساسية ومنها البروتين وزيادة الاعتماد على مواد الطعام المستخرجة من البحار ، وهي وافرة .

فلم أكد أطلع على هذا المقال ، وما ينطوي في الآراء المعروضة فيه ، من رجاء بمستقبل البشر على سطح الأرض، حتى تزاحمت على ذهني عناصر مشكلتين خطيرتين يعانيهما البشر اليوم، إحداهما سياسية يدور عليها البحث في المؤتمرات العالمية ، وفي جلسات انباؤها تستأثر بالجانب الأكبر من صفحات الصحف ، وبالقسط الاوفر من حديث الناس في مجالسهم . ومدار هذه الازمة هو النضال في سبيل السلطان واسباب القوة التي تتيح للناس – في آخر المطاف – أن يفنوا بعضهم بعضاً. وأما المشكلة الثانية فهي مشكلة الصلة بين ازدياد سكان الأرض، والموارد التي يخرجون منها ما يقيم الأود ويسبغ العافية وقلما تستغرق انباؤها أكثر من أسطر قليلة في الصحف ، حيناً بعد حين ، ويندر أن ينعقد لها مؤتمر خطير يسير ذكره في الخافقين. وحقيقة الأمر أن هناك مؤتمراً منعقداً اليوم في الهند لمعالجة نواح من هذه المشكلة

ولكن قلّ منـــا من سمع به . ومع ذلك ليس من الغلو في التقدير ، أن نقول إن الأزمة الثانية ليست أقل شأناً من الأولى بل في الوسع أن نقول ، إن مشكلات الأزمة الأولى ، لن يرجى لها حل يرضى ، بل هي خليقة أن تستفحل ، إن لم تحل مشكلات الأزمة الثانية .

وأساس هذه المشكلة في نظر فريق من العلماء، وفي طليعتهم جوليان هكسلي (المدير الاول لمنظمة اونسكو) ، أن موارد الأرض لا تكفي سكانها ، ولو أردنا أن نرفع مستوى التغذية لجميع سكان الأرض، إلى معدل مقبول ، خلال ربع القرن المقبل لوجب أن يضاعف مقدار الطعام الذي كان ينتج في السنة السابقة لنشوب الحرب العالمية الثانية . وهذا شيء لا يمكن أن يتم في سنة أو سنتين، وفي خلال ذلك يزداد عدد سكان العالم نحو مئتي مليون كل عشر سنوات . أي أن سكان العـــالم ، يزدادون ازدياداً يفوق ازدياد موارد الطعام . وفي الوقت الذي يزداد فيه سكان العالم ، نحو عشرين مليوناً كل سنة ، ترى الانسان الحديث قد أتقن سلاحين لتدمير الحضـــارة ، أحدهما الأسلحة الذرية ، والثاني الاهمال الذي يفتت تربة الأرض ويؤدي إلى انجرافها . والسلاح الثاني أشد خطراً على الحضارة من الاول . فالحرب ، والتقاتل بالاسلحة الذرية ، يدمران البيئة الاجتماعية التي تنبت فيها الحضارة وأما تفتت التربة وانجرافها وما يلحق ذلك

من قلة الارض المنتجة وانكماش رقعتها، فتدمر البيئة الطبيعية التي تنبت فيها الحياة نفسها وتركو .

هذا مجمل رأى هكسلي ومن يجاريه . ولكن رأيه لا يسلم من النقد ، والذين يسددون اليه سهامه، ليسوا أقل منه رسوخاً في علوم الأحياء ، بل هم أعلى منه كعباً في علوم الزراعة وفي طليعتهم السر جون رسل كبير علماء الزراعة في بريطانيا .

ورسل لا ينكر حدة أزمة الطعام التي يعانيها العالم، والنذير الذي طلع به جوليان هكسلي في العهد الاخير ، طلع بمثله على العالم من قبل، مالثوس في سنة ١٧٩٨، والسير وليم كروكس في سنة ١٨٩٨ . ولكن العهد الذي تلا نذير السير وليم كروكس ، شهد فيما شهد ، صنع الأسمدة الكيميائية، بعد أن ابتكرت طريقة لتثبيت نتروجين الهواء ، كما شهد وجوهاً مختلفة من التقدم في أسباب الزراعة العلمية والعملية ، وتحسين أصناف النبات وزيادة إنتاجها بالتأصيل والانتخاب ، فجاءت سنة ١٩٣٠ ومرت ولم يمنَ العالم بالمجاعة التي توقعها كروكس . والعلماء الذين يجارون رسل ، في رأيه ، يذهبون إلى أن الانتفاع بالمعارف العلمية الحديثة في الزراعة، والتعاون الدولي على تطبيقها ينبغي أن يزيدا موارد الطعام زيادة كافية . وقد بين منذ عهد قريب عالم معروف أن الكيمياء كفيلة بتحويل مادة السلولوس

الخشبية إلى ضروب من موارد الطعام ، فان صح ما يقول كان في ذلك وسيلة جديدة لزيادة موارد الطعام ، تضاف إلى غيرها. وحجة هذا الرجل أن معدة الانسان لا تستطيـــع أن تهضم السلولوس ، وأن تحويل السلولوس مـع مواد غذائية أخرى ، إلى لحم في الأنعام كالضأن والبقر وغيرها ، ليس عملاً مجديـــاً جدوى كافية ، فالعجل لا يحول إلى لحم سوى ١٢ في المئة ممـا يأكل ، إن حسن أكله ، وإلى أقل من ذلك إن لم يحسن ، وتحويل السلولوس بالكيمياء إلى مواد غذائية كالسكر والبروتين وغيرهما أجدى كثيراً . وهذا مستطاع . والرجل يرى أنه إذا انتفعنا بعلوم الكيمياء كان في وسع الأرض أن تكفل غذاء ١٥ ألف مليون من الناس بدلاً من ألفي مليون وربع مليون وتضيق بهم .

وعلى كل حال فان هيئة الطعام والزراعة التـــابعة للامم المتحدة قد أعلنت في دستورها أن أغراضهـــا تتلخص في رفع مستوى التغذية ومستوى المعيشة لجميع شعوب الأرض، والسعي إلى زيادة الكفاية في إنتـاج الطعام وسائر المحصولات الزراعية وتوزيعها ، وتحسين حال الجماعات الكبيرة التي تسكن الريف ، فتسدي بذلك كله يداً إلى إنتعاش الاقتصاد العـالمي واطراد اتساعه .

ومن الامور المتفق عليها في هذه الهيئة أن ثلثي سكان العالم

ينالون ما هو دون الكفاية من الغذاء ، وأن صحتهم خليقة ان تتحسن ، وعافيتهم أن ترتد ، إذا نالوا قدراً وافياً من الغذاء الملائم ، وأن فلاحي العالم هم ثلثا سكانه ، وأنهم يستطيعون أن ينتجوا الكفاية من مواد الطعام إذا استعانوا بمعارف العلم الحديث وأساليبه ، وأن ازدياد الانتاج وتحسين وسائل التوزيع ، يكفلان عملاً لجميع الناس ، وإذا نحن في رأس تيار اقتصادي اجتماعي زاخر ينتهي إلى القضاء على الفاقة والعوز ، وأن تحقيق هذه الأغراض لن يتم إلا عن طريق التعاون بين الدول ، ونشر المعارف والتنظيم الاقليمي ، وهذا هو أسلوب الهيئة في عملها .

ومنطقة الشرق الادنى ، هي إحدى المناطق ذات الشأن العظيم ، في العالم اليوم ، لما فيها موارد زراعية وافرة تستطاع تنميتها ، فاذا اتسع فيها نطاق تطبيق المعارف الفنية والعلمية أفضى ذلك إلى منافع دائمة . ففي الوسع زيادة الانتاج الزراعي فيها ، حتى يصير كافياً لسد الحاجة ورفع مستوى العيش، وربما كان هناك فائض للاصدار. وتفصيل الحقائق الخاصة بهذا الموضوع يحتاج إلى فصول كثيرة ، ولكن الرأي مجمع على أن موضوع تحسين الزراعة في الشرق الادنى ، بفروعه المتعددة ـ زيادة مساحة الأرض التي تصلح للزراعة ، ومشروعات الري ، وتحسين الانتاج في ميادين النبات والحيوان ـ هو مهمة ينبغي

ان يزداد تشجيع القائمين بها بكل وسيلة ، وهو ميدان للتعاون بين شعوب الشرق الأدنى وحكوماتها من ناحية، ثم بينها وبين أهل العلوم الزراعية الحديثة التي أجدت في بلاد كثيرة أعظم الجدوى . فالانتفاع بهذه الاسباب ، وبالخبراء الذين يحسنون تطبيقها ، يفضي إلى خير كثير ، والاقدام على هذا الانتفاع تحدّ للعزيمة والعقل ينبغي أن تقبله .

إن الآفاق التي يستشرفها العلم الحديث ، في زيادة الانتاج الزراعي ، وتوفير الطعام الصحي ، هي آفاق لا تحدّ ، ولكن المشكلة لا تحل بالوقوف عند حد ما يستطيعه العلم ، بل تتعداه إلى ما تستطيعه الحكومات، من وسائل توفير الانتاج، وإحسان توزيع الأرض ومنتجاتها ، ورفع مستوى العيش ، وإعداد الخبراء وتشجيعهم على البحث ، وما تستطيعه معاهد العلم ، وطرائق التربية العامة كالصحافة والاذاعة ، من نشر حقائق التغذية الصحيحة والحث على الأخذ بها، وتعليمها للصغار في البيوت والمدارس ، ثم ما تصنعه هيئة التغذية والزراعة التابعة للامم المتحدة من تنسيق هذه المجهودات جميعاً على أساس من التعاون العالمي .

فهذا كله ، هو في نظري أهم وأجدى ألف مرة ومرة ، من المجهودات التي تبذل والأموال التي تهدر في كثير من الشؤون السياسية. ولست أستصغر السياسة ولا أستهين بوظيفتها

في الامة أو بين الامم ، ولكن جماعة البشر اليوم تواجه أزمة كيانها – أو كيان شطر كبير منها – على سطح الأرض ، والسياسة المنشئة المجدية هي التي يصب أصحابها قدراً وافراً من عنايتهم على حفظ الكيان قبل أن يصبّوه على الصراع في سبيل السلطان – الزائل !

- ٢ -

كل من يتأمل عجيبة نمو النبات لا ينقضي عجبه. تفرخ النبتة من بذرة فيبلغ ارتفاعها في زمن قصير بضع أقدام ، مستمدة حياتها ونموها من ثاني أكسيد الكربون في الهواء ومما تجده في الماء والتربة من أملاح، مستعينة على ذلك بضوء الشمس وحبات صغيرة خضر في بنيتها . وتركيبها الكيميائي تركيب معقد . ففيها ألياف وزيوت ومواد ملونة واخرى عطرية أو مغذية . فالنبتة تنشىء كل هذا من الماء والهواء والتراب ، بفضل ضوء الشمس وحبيبات اليخضور (Chlorophyl) . والمركبات التي تتركب في جسم النبات، لا يمكن تركيبها في المعامل الكيميائية إلا بشق النفس – إن كان ذلك مستطاعاً . فالاحتفاظ بالموارد الطبيعية الزراعية التي تجدد سنة بعد سنة وزيادة نفعها بالتأصيل،

والانتخاب والرعاية ، وإحلالها محل ما يصنع من بعض الموارد المعدنية التي لا تتجدد هو شيء تقتضيه طبيعة العمران الحديث . وأفضل من ذلك أن يكشف العلماء سر التركيب الضوئي فيصيروا قادرين أن يصنعوا ما يصنعه النبات الاخضر .

وهناك موارد كثيرة نافعة يمكن الظفر بها ، بالاعتماد على فعل الاحياء المجهرية. فهذه الأحياء تخمر طائفة من المواد فيصنع الخل والكحول . وبالاعتماد على غيرها يمكن الحصول على مواد اخرى لا غنى عنها، ومنها ما هو ضروري لصناعة اللدائن الكيميائية (البلاستيك) .

ولا يخفى أن رُبّ الخشب يستعمل في صنع الورق وكثير من اللدائن الكيميائية والخيوط الكيميائية كالحرير الصناعي وغيرها . واتساع نطاق هذا الاستعمال أفضى إلى قطع الشجر في حراج كثيرة، حتى كادت الأرض أن تصبح جرداء في بعض المناطق ، وتفاقم الخطر على موارد الخشب وعلى مصير التربة أيضاً ، وارتفعت صيحة بعض العلماء منذرة بالخطر الداهم .

وإذن فالبحث الزراعي والتنظيم الزراعي لا غنى عنهما في جني أعظم فائدة من التربه والاقليم ، أي من موارد الطبيعة التي يمكن تجديدها سنة بعد سنة . وهذا يقتضي البحث العلمي والتعاون الدولي في أوسع نطاق وينبغي أن يجاريها كذلك

سيطرة دوليـة قائمة على التعاون ، تفرض على الموارد المعدنية وتحول دون الاسراف والتبذير في استنباطها واستنفادها .

تشير كتب السياسة التي كتبت ونشرت قبل قرن ونصف قرن من الزمان أو أكثر قليلا، إلى أن أرباب التفكير السياسي والاقتصادي كانوا غارقين في بحر من التشاؤم حيـال موارد الطعام المتاحة للانسانية على سطح الأرض . فقد كتب مالثوس رسالة بيّن فيها أن معدل إزدياد النـاس يفوق معدل إزدياد موارد الطعام ، فإذا صح هذا فالجنس البشري محكوم عليه في مجمله بالعيش على حدود الفـاقة والجوع . ولم يكن أحد من المفكرين قادراً على إدحاض مذهب مالتوس يومئذ ، لأن أحداً منهم لم يكن قادراً أن يتصور ما يجيئهم به العلم في غدهم القريب .

وما جاء به الغد ، لم يكن فتح مناطق شاسعة من الأرض البكر وحسب . فهذه حكمها على طول المدى ، خاضع لمذهب مالثوس . ولكن الذي جاء به كان زوال الزراعة القديمة ، وحلول الزراعة الحديثة القائمة على العلم محلهـا . فزادت قدرة الانسان على إنتاج الطعام من الأرض، وعلى إتاحته لمن يحتاج إليه وإن كان بعيداً عن موقع إنتاجه ، فازداد سكان الأرض خلال القرن الذى انقضى بعد وفاة مالتوس زيادة يفوق معدلهـا كل زيادة سابقة في السكان، بيد أن معدل إنتاج الأرض زاد كذلك،

ولكن يشترط في اطراد هذا الاتجاه أن يستمر البحث العلمي ، وأن تطبق هذه القدرة في جميع أرجاء الأرض المترامية التي لم تزل تعتمد على أساليب الزراعة القديمة، فيعظم الرجاء بحل مشكلة الطعام التي يخشى أن تتفاقم بانجراف التربة في أصقاع ، وازدياد اهل الأرض ازدياداً مطرداً .

فلما قامت الصناعة الحديثة واتسع نطاقها ، نشأت مشكلة طعام جديدة . هنا معدة لا تشبع ، وهي ليست معدة الانسان بل معدة الآلات . فالآلات نهمة تلتهم المواد الخام . وكل مخترع صناعي جديد ذو خطر ينشىء طلباً على معدن جديد . فاذا أتقن وشاع استعماله ، ازداد الطلب، فالمحرك البخاري خلق الطلب على الفحم في الصناعة ، ومحرك الاحتراق الداخلي خلق الطلب على النفط ، وصناعة الطائرات على الألمنيوم والمغنيزيوم وهكذا .

وليست الفلزات هي المعادن الوحيدة التي لاغنى عنها للاجتماع الحديث ، ولولا ما كشفه العلم من وسيلة لصنع الاسمدة الكيميائية لاستنفدت موارد نترات الصودا الشيلية ولمني العالم بمجاعة .

فالحكمة والضرورة جميعاً تقضيان بالاقتصاد في استنفاد الموارد الطبيعية التي لا تتجدد إذا نفدت ، وتشير إلى وجوب

إحلال المواد المصنوعة من موارد متجددة ، أي زراعية ، محل المواد المصنوعة من موارد غير متجددة ، أي معدنية ، متى كان ذلك مستطاعاً .

وقد فتحت صناعة اللدائن الحديثة آفاقاً جديدة في هـــذا الميدان لا يكاد يكون لها حدود. فقد صنعت منها مواد وأشياء متينة جميلة : أجسام طائرات ، وكرات محاور، وأكر أبواب، ومقابض أقلام ، وفرش وعلب وموائد ، وتجاريهـــا الآن صناعة آلاف من المواد والأشياء النافعة تستخرج من جزيئات النفط (الهيدروكربونية) حتى لقد قيـل أن جزيء النفط هو كنز وذخيرة لا يكاد أحد يعرف لهما قراراً أو نفاداً .

ظن أولاً أن موارد الطعام المحدودة بحدود الزراعة القديمة لا تكفي لاشباع الناس الذين يزداد عددهم على الأيام ، وكذلك ظن عندما نشأت مشكلة الخامات اللازمة للآلات ، أن الموارد الطبيعية لهذه الخامات لا تكفي لاشباع نهم الآلات . فقامت نظرية خاصة بالخامات الصنـــاعية تشبه نظرية مالثوس الخاصة بموارد الطعام فتهافتت الدول عليها ، وأصبحت ذات أثر في السياسة الدولية، واليها مرد كثير من بواعث الخصام بين الدول.

وكلتا النظريتين كانت صحيحة، عند قيامها . ولكن ارتقاء العلم غيّر القواعد التي قامت عليها الاولى . وارتقاء العلم قد بدأ

يغير القواعد التي تقوم عليها الثانية . ولعل العلم يفرض علينا بعد عهد غير طويل — إذ اتيح له اطراد الارتقاء — أن نحسب تطبيق نظرية مالثوس على الخامات الصناعية ونفادها ، سخافة من سخافات عهد سابق . ولعل أعظم مأساة يعانيها البشر في هذا العصر ، أنهم يتنازعون على مواد طبيعية يستطيع العلم أن يصنع بعضها أو بدلاً منها ، من الضوء والماء والهواء .

ولا يزال هذا التطور العلمي الصناعي في مستهله ، فإذا مضى قدماً ففيه شبع للمعدتين النهمتين ، ولو كان مستقبل البشر على سطح الأرض مرتبطاً بما يستطيعه العلم وحسب ، لما كان هناك شك في أنه مستقبل باهر ، بيد أنه مرتبط في المقام الأول بصلات الامم بعضها ببعض ، فإذا خضعت هذه الصلات لحكم العقل ومنطق المعرفة صح قول السيد المسيح : « وتعرفون الحق والحق يحرركم » — من الخوف والفاقة . فالعقل في الناحيتين — العلمية والسياسية — هو مناط الأمل ، وهو كما قال الشاعر العربي : « خير مشير ضمه النادي » .

موعد مع الرجاء

من المفارقات العجيبة في حياة العصر، أن تجد العلم والصناعة قد بلغا من الارتقاء مبلغاً يمهد للناس جميعاً أسباب الوفر والخير وأن تجد في الوقت نفسه ثلثي أهل الأرض متردين في هوة من البؤس والجوع والسقم تتفطر لها القلوب : الطعام بينهم قليل لا يكاد يقيم الأود ، والمرض فاش فلا يقدر للوليد أن يبلغ من العمر عشرين ربيعاً ، والمأوى قليل وحقير لا يوائم كرامة

خطبة ألقيت في حفلة فرع عكار لجمعية الصليب الاحمر اللبناني ، في طرابلس ٢٩ آذار (مارس) ١٩٥٣ .

الانسان ، والقدرة على العمل وهنانة واهية فكأن الرجل شبح يلهث .

ولكن العلم الحديث كشف الاسرار، وفتق الحيل الصناعية ومهد الأسباب المجدية لاستغلال موارد الطبيعة ، وتوفير المأكل والملبس والعلاج الواقي أو الشافي لجميع الناس ، والعلماء مجمعون على أن الموارد الطبيعية تكفي عدداً من الناس يفوق كثيراً عدد أهل الأرض اليوم إن حسن استغلالها وتوزيعها ، وهم لم يقتصروا على استكشافها ، وابتكار الأساليب لزيادة الانتفاع بها بل جعلوا يضيفون إليها موارد جديدة لا عهد للناس بها من قبل

كان الظن منذ نصف قرن أو أكثر قليلا أن موارد الزراعة لا تكفي البشر الذين تطرد زيادتهم عاماً بعد عام ، ولكن الانتفاع بالبحوث العلمية وتطبيقها خلق الزراعة الجديدة ، فاذا اصحابها يزيدون ما يجنونه من التربة ، ثم خلقوا أيضاً الوسائل الجديدة لحفظ الطعام وتعزيزه بالمواد الحيوية ، ونقله ، فصار ميسراً لمن كان محتاجاً إليه ، وإن كان بعيداً عن مواقع انتاجه.

وكان الظن أيضاً أن موارد الخامات اللازمة للصناعة لا تكفي ، فهنا منجم فحم ، وهناك بئر نفط ، وكل من يملك المنجم أو البئر ، أو يقبض على زمامها ، يستطيع أن ينتفع بها وأما غيره فعليه أن يقنع أو أن يحارب . ولكن العلم الحديث

أثبت أننا نستطيع أن نركب مواد كثيرة جديدة كنا نعتمد فيها على المنـــاجم أو الآبار التي تنفد أو تغيض ، فطائفة من اللدائن التي تصنع من مـادة الخشب أو القش تحل الآن محل الحديد والنحاس ، والسماد الكيميـائي يحل محل السماد الطبيعي. أما الطاقة التي تولد من الأنهـار المتدفقة ، أو التي قد تقنص من إشعاع الشمس ، فخليقة أن تجعل الطاقة المحركة وكأنهـا نعمة حرة من نعم الطبيعة ، فتكسر من حدة التنافس على آبار النفط أو مناجم الفحم واليورانيوم .

فاذا صاح رجال السياسة والاجتماع : التحرر من ربقة العوز والفاقـة والمرض ، قـال رجال العلم والصناعة : لبيكم ، عبد بين أيديكم . هذا خاتم سليمان في العصر الحديث ، ولكن أين الحكمة وأين الرشد في الانتفاع به على اوفى وجه وأضمنه للعدل؟

جاء على البشر زمن ساد فيه الاعتقـاد ان الانسان مسير كالآلة ، لا خيار له في شيء ، فشاع التنجيم والاستسلام لقوى الطبيعة الخارقة التي تتخذ في الحين بعد الحين ، مظهر العنف ، فيثور البركان ، او يفيض النهر فيضاناً مدمراً ، او يعم الجفاف فيسير القحط والجوع في ركابه ، او يستفحل الوباء وينتشر ، ولكن أئمة الفكر الفلسفي والادبي ، نعوا على هـذه العقيـدة ، أنها ترفع عن كاهل الانسان تبعة ما يعمل ، حتى القاتل يستطيع

ان يزعم ان الكواكب دفعته الى القتل، فلم يكن له خيار وليس عليه تبعة .

بيد ان الانسان قد تعلم على الدهور ، ان له من قدرة العقل وسعة الحيلة، ما يمكنه من اخضاع القوى الطبيعية لنفعه. نعم، لا يزال يقف عاجزاً امام البركان الثائر والزلزال المدمر، ولكنه يستطيع أن يلجم الأنهار بالجسور وبالقناطر والسدود ، فلا تفيض فيضاناً مهلكاً ، وتوزع مياهها للري ، وتدفع في الآلات فتولد الطاقة المحركة وتصنع السماد ، وهو يستطيع أيضاً أن يسيطر إلى حد بعيد على المجاعات بزيادة المحاصيل حيث تجود ، وتوزيعها حيث تمحل ، وعلى الأوبئة بالحجر الصحي والحقن الواقية والعقاقير الساحرة ، فالانسان الحديث ، الذي نهل العلم من منابعه ، لا يخشى الطبيعة ، فقد علمه العلم ان يحنو عليها وأن يفهمها وأن ينتفع بقواها .

وقد يبدو أن الانسان مقـــدر عليه أن يدمر نفسه بنفسه ، فمنذ أن نشبت الحرب العالمية الأولى ، تراه مندفعاً كأن به مساً من الخبل ، الى حرب تليها حرب ، الغـالب فيها خـاسر كالمغلوب ، حتى ليخيل إلى المرء أن الشياطين قد تألبت عليه ، فساقته إلى أن يهدم بيديه كل ما شاد وما أبدع ، أو كبلته بأغلال من الشر لا انطلاق له من أسارها . بيد أن الذي ينعم

النظر في حال البشر اليوم ، وحالهم منذ آلاف السنين، يدرك أن أكبر الخطر الذي يخشاه الانسان اليوم ، ليس مرده الى الطبيعة على الاكثر كما كانت الحال في العصور القديمة ، بل مرده إلى الانسان نفسه .

فالحروب الكبيرة ، لا تثيرها القوى الطبيعية التي تحرك الكواكب في افلاكها ، بل يثيرها انفعال الخوف وشهوة الطمع ، وقد كان الخوف في العصور القديمة ، وسيلة من وسائل البقاء ، فالخوف من الحيوانات الضارية ، والخوف من خطر الموت جوعاً ، ركبا في طبيعة الانسان ترجيعاً عصبياً ، يدفعه حيناً إلى القتال ذوداً عن الكيان ، وحيناً إلى الفرار ، وحيناً إلى إعمال الذهن لابتكار وسيلة أو أداة تمكنه من قتال الوحش أو تأمين نتاج الحقل .

فالخوف انفعال قديم متأصل في تركيب الانسان ، ولكن الأسباب التي دعت إليه يومئذ قد زالت ، كلها أو معظمها ، باطراد العمران والاجتماع والعلم . فصار انفعال الخوف اليوم ، هو الخوف من الانسان ، وهو أحد الاسباب الأساسية التي تجعل الانسان خصماً لأخيه ، فهو لا يجد منفساً له في الطبيعة كرد غائلة الضواري عن الباب، فيتجه إلى البيئة الاجتماعية فيولد الريبة والضغينة والحسد والافتراء . ومن الحكم المشهورة عند

رجال الحرب أن الهجوم خير وسائل الدفـــاع ، فلذلك ترى الناس يهاجمون غيرهم لانهم ينتظرون أو يخشون أن يُهاجموا .

فاذا أراد الناس أن ينتفعوا بمـا آتاهم العلم من سيطرة على الطبيعة وجبت تربية النفس ورياضتهـــا ، حتى يغلب شعور التقارب والتآلف على شعور الخوف والنفور . نعم من العبث أن تقول لأخيك عليك بهذا الوحش الهائج ، أو بهذه الأفعى التي تفح ، فادنُ منه أو منهـــا ، وفي نفسك المحبة والعطف ، فيسلس لك الوحش قيـاده وتعنو لك الأفعى . ولكن إذا أدركنا أن الأحوال الاولى ، التي نشأ فيها انفعـــال الخوف وتأصل الرد العصبي عليه ، قد قلّت أو زالت ، وأن فهم الانسان لقوى الطبيعة والانتفاع بها قد زاد ، فمهد للتعاون المجدي ، فقد قبضنا بأيدينا على زمام المبدأ الفلسفي الذي يستطيع أن يوقينا مهالك الحروب .

فالحرب هي عدوان الانسان على أخيه الانسان ، عدواناً سداه الخوف ولحمته الطمع ، والخوف قد بيّنا شأنه في الدفاع عن النفس ، وأمـا الطمع فيخلق في النفس شهوة السيطرة ، وكلاهما يولد الخوف في نفس الغير ، فاذا نحن أمام سلسلة تبتدىء حيث تنتهي ، وليس في الوسع تحطيمها إلا إذا عولج انفعـال الخوف وشهوة الطمع .

امـا الخوف فينبغي أن يقام كل دليل تمكن إقامته، للدولة التي تخاف العدوان ، على أن لا حاجة بها إلى توقعه ، وأمـــا الطمع فينبغي إقامة الدليل أيضاً على أن لا جدوى منه ، وأن الجدوى إنما تكون في التعاون على تكثير الخيرات التي جعلها العلم والصناعة طوع البنان لمن ورثوا الأرض وما عليها .

حقاً إن القول في هذين الأمرين أسهل من العمل ، وحال العالم اليوم هي حاله ، فهو اليوم كتلتان ، كلٌّ منهما ترى ما يحملها على الخوف من الأخرى ، وأن خوف الأخرى منها سخيفٌ لا مسوغ له ، فهي لذلك تعتقد أن خصمها غيرُ صادقٍ ولا مخلص في ما يساوره من خوف . فالمشكلة النفسية من وراء الحالة العالمية معقدة متأصلة في النفس ، ولكن كثيرين من المفكرين لا يرون أنها مستعصية على الحلّ ، وعلى كلّ حال فإن الاحتكام الى القوة لا يحلها ، بل يزيدها تعقيداً وتأصلاً .

وليس الغرض من هـذا الحديث أن نخوض في النواحي السياسية والحربية لهذه المشكلة، ولكنه القول الصادر عن إيمان، بأننا لا نجد شيئاً خارجـاً عن شهوات البشر وضعفهم ، يدفعهم حتماً وقسراً الى كارثة عالمية . نعم إن ما شهدناه من بلايا حربين عالميتين ، ومـــا نشهده الآن من تخشية حربٍ عالمية ثالثة ، خليقٌ أن يدفع إلى التشاؤم ، ولكنّ مـا شهدناه أيضاً

خلال القرن المنصرم من اطراد الغلبة على الفاقة والجهل والمرض والتفاوت الاقتصادي والاجتماعي ، يُغري بالرجاء والثقة .

ننظر في ناحية من حياة هذا العصر ، فيغلِبُ الرجــاء ، وننظر في ناحيـة أخرى فيغلِبُ الخوف ، فيخيَّل إلينا أن الاثنين متنافيان لا يمكن التوفيق بينهما حتى ليذهب الذين يغلبهم الخوف الى ان الحرب لا مفرّ منها، لأن الآراء والعقائد الغالبة على الكتلتين متنافية ، وانه يتعذّر على إحداهما أن تعيش في عالم تسيطر الأخرى عليه . يقول فريق : لابد من عالم تترعرع فيه الحرية ، فان لم تترعرع فيه كلّه، فلن يتاح لها أن تترعرع زمناً طويلاً في بعضه وحسب . ويقول الآخر أو يفعل كأنه يقول : لابد من عالم يصان فيه السلطان بالقوة والتحكم ، من زعازع الحرية وآمال اصحابها ، لأنه إن لم يكن كذلك في العالم كله ، فلن يسلم منها في بعضه وحسب . ولذلك يقال إن الصدام بينهما لامفرّ منه إن عاجلاً وإن آجلاً .

بيد أن الفريقين ينسيانِ عبرةَ التاريخ ، وهي أنـــك لا تستطيعُ أن تصنع عالماً ما بالسلاح ، لا على أساسٍ من الحرية، ولا على أساسٍ من السلطان . فالسلاح ، قـــد يستعمل لخنق الحرية ، وقد كان. والسلاح قد يستعمل لزعزعة السلطان وقلبه، وقد كان أيضاً. فالسلاح لايبني ولا ينشىء. والمشكلة التي يعانيها

العالم اليوم ، بشطريه وما بينهما ، والتحدّي الموجّه إلى العالم اليوم بكتلتيه وما بينهما ، إنما هما كيف نبني عالماً جديداً يوائم كرامة الانسان الحرّ ، ففي وسعنا أن نجعل أحد أركانه ، لأول مرّة في تاريخ البشر ، وفراً من أسباب العيش والكرامة ، التي كشف العلم مبادئها ، فأحالتها الصناعة حقائقَ تُلمس لمسَ اليد من مشرق الشمس الى مشرقها .

منذ ربع قرن من الزمان قال أحد رجال التعليم : إن العالم في سباق بين التربية والكارثة . وقد كان هذا التعبير يومئذ ، مجازاً يأخذ النفس ، ولكنّ الكارثة في العصر الذرّي صارت حقيقة كالحة ، والتربية نفسها هي عملٌ يدلُّ على إيمان بالمستقبل . فالتعبير اليوم أصبح أصدق مما كان ، والمعنى المضمن في التفاوت بين شطريه صار ألحّ مما كان . وفي إدراك هذه الحقيقة معقد رجاء المستقبل . فالانسانية ، برغم ما يمزقها في هذه الأيام من أسباب الضغينة والطمع والخوف ، هي على موعدٍ مع هذا الرجاء ، وعسى أن لا تتخلف عن موعدها .

كنت أقلب أوراقاً منذ أيام ، في ظرف قديم حملته معي مع ما حملت من شؤوني يوم عُدت إلى لبنان ، فوقفت على صورتين تمثلان غرق الباخرة تيتانيك ، أما الصورة الأولى فتمثل الباخرة العظيمة وقد اصطدمت بجبل الجمد ، فشق جنبها ،

واخذت تميل إلى الغرق في اليمّ ، وقــد كتب تحت الصورة « ضعف الانسان ــ قوة الطبيعة » . وأمـا الصورة الأخرى ، فتمثل قارباً مدلىً من جانب الباخرة ، وهي توشك أن تذهب إلى غير رجعة ، وأمام القارب الحافــل بالركاب ، رجلٌ يهمُّ بالنزول ليجلس أو يقف في آخر مكانٍ متاح فيه ، لينجو مع الناجين ، ثم تراهُ وقد ارتدّ ، ليخلي المكان لسيدة وطفلها ، وهو يعلم انه شارب كأس الموت إلى الثمالة . وقد كتب تحت الصورة : « ضعف الطبيعة ــ قوة الانسان » .

منذا الذي يستطيع أن ينكر أن في طبيعـة الانسان ، ذخيرة من الخير ، غلاّبة ، ومنـذا الذي يستطيع ان يزعم أن هذه الذخيرة ، المتمثلة فيما تصنعة المرأة ، من أجل الانسانيـة ، كما تصنع سيـدات هذا الفرع الكريم في جمعية الصليب الأحمر اللبناني ، لايصحُّ أن يكون قاعـدة لسلوك الناس ، سلوكاً يفضي إلى الخير العام .

لايخامرني شكّ في حكمة البشر ، على كثرة ما نبلى به من علمهم وحمقهم ، فالذكاء الانساني يرهفه التعليم ، وتصقلهُ المرانة ، والارث الثقــافي ، يحييهُ البحث ، وتوسعه التربية ، ويمحصه الاختبار ، ولا بد ان يجيء يوم تلحق فيه نفوسنا ، بالعلم الذي ابتدعتهُ عقولنا ، وترتفع حكمتنا الى مستوى المعــارف التي

انتزعناها من صدر الطبيعة ، وعند ذلك ندرك أن أعظم رجال الدولة والسياسة هو رجل يرشد بالمعرفة ويقود بالعطف والحكمة، وأن أعظم الجماعات ، هي جماعة لا تخضع للقوة بل تعنو للفهم والخير ، ويومئذٍ يكون العلم قد اندمج في الأغراض العليا ، الروحية والاجتماعية ، فخرج لنا من البوتقة إكسير الحكمة المصفاة .

عقدة العصر

قرأت مرة أن الفرق بين المتشائم والمتفائل، إنما هو فرق في وجهة النظر، لا أكثر ولا أقل، فاذا وقف كلاهما أمام كأس فيها ماء إلى نصفها، قطب المتشائم حاجبيه وقال: هذه كأس نصفها فارغ، وافترّ المتفائل: هذه كأس نصفها ملآن.

وأنا إذ أدير نظري في هذا العالم، وأتفرّس في أخباره التي تنشر أو تذاع، ثم أعود الى نفسي أراجعها، أراني محيّراً في أمري: أفي زمرة المتشائين أحشر أم في زمرة المتفائلين. فالعالم

(١) حديث أذيع من محطة الاذاعة اللبنانية.

اليوم ، هو كتلك الكأس ، يستطيع المرء أن يقول فيه ، إن نصف ما فيه ينذر بخطرٍ مستطير ، فالقدرة على التدمير تستفحل يوماً بعد يوم ، والصراع على القوت وعلى السلطان مستحكمٌ ، حتى لكأن البشر عجزوا عن أن يستخرجوا العبرة من سير التاريخ ، ومن واقع الحياة ، فيتناحرون بدلاً من أن يتعاونوا على الخير ، الذي صار طوع البنان ، أو يكاد أن يصير . وفي وسعه أن يقول أيضاً إن نصفه الآخر يبشر بخير عميم ، فالناس اليوم أوسع معرفة ، ووسائل نقل تجارب الماضي تزداد ازدياداً مطرداً ، والمعارك الصامتة التي تدور في معامل البحث العلمي ، تعد للانسان على الارض مستقبلاً أبهى وأفضل من كل عصر مضى ، والانسان الذي فتح عينيه على نور العقل ، وفضائل الحرية وقيودها ، لهو خير من انسان جاهل مستعبد . فالاول متشائم ، وهو على حق ، والثاني متفائل وهو على حق أيضاً ، فأية الكفتين أرجح ؟

وإذا أردنا أن نستخرج العبرة من الماضي على ما نبلوه من حيرة في يوم الناس هذا ، لم يكن بد من أن نلتفت ألى ما بلاه الناس في عصر مضى ، وليكن مثلنا مستخرجاً من القرن التاسع عشر ، عسى أن نجد فيه مرشداً لنا وهادياً .

في سنة ١٧١٨ كتب الفيلسوف شوبنهاور ، كتاب « العالم

إرادة وفكرة » وهو ينطوي على أشد حملة شنها كاتب على إيمان الانسان بالارتقاء والحضارة . وفي ١٨٢١ مات الشاعر كيتس مسلولاً ويائساً بعد أن نظم شعراً علوياً تعطره أوراق الخريف المتساقطة ، وتثقله مأساة الآمال الخائبة . وفي السنة التالية مات شلي غرقاً دون أن يحاول أن ينقذ نفسه ، على ترجيح الذين ترجموا له، لأنه برم بالعيش بعد خذلان الاحرار في اوربا. وفي سنة ١٨٢٤ مات بيرون عن عالم كان قد وصفه في قصيدته « دون جوان » ذلك الوصف اللاذع ، وفي سنة ١٨٣٥ نشرده موسيه « اعترفات ابن القرن » وقد رسم فيه عالماً ينعق فيه البوم، وقوماً لا ينير طريقهم شعاع من أمل ، وفي سنة ١٨٣٧ مات بوشكين في روسيا وليوباردي في ايطاليا ، بعد أن عبرا عن تشاؤم عصرهما وقومهما تعبيراً شعرياً لم تدن منه أمة الروس ولا أمة الطليان من بعدهما .

كان ذلك الجيل ، جيل تشاؤم وقنوط من قدرة الانسان على الارتقاء والخير .

ولكن لم يكد ينقضي النصف الأول من القرن التاسع عشر حتى أخذت حيوية أوربا تنبعث ، وإذا الكتاب والمفكرون، يكبون على أعمالهم إكباب الباحث عن ذخيرة في قصر مدمر مهجور ، وإذا العلم والاختراع يوطدان الأركان التي قامت

عليها عظمة الحضارة العصرية في وسائل العيش ، وإذا الآلات تحرر الانسان ، أو تتيح للانسان أن يتحرر من ربقة الاستعباد لساعات من العمل المضني ، وتفتح له ، أو تتيح له أن يفتح بيديه ، نوافذ واسعة على فرص يستمتع فيهـــا بالنزهة والثقافة وعبقرية الفنون ، وإذا طرق المواصلات والمخاطبات الجديدة ، أسباب تمهد لترابط الامم وتلاقح الحضارات، وتبـادل البضائع والأفكار. في هذا الجيل نقع على ظفر الأدب الباهر، في قصص هوغو وبلزاك ودكنز وثاكري، وأشعار هوغو وهايني وتنيسون وبراوننج ، وفيه أيضاً تكونت العوامل الفكرية التي حفزت داروين إلى وضع « أصل الأنواع » وسبنسر إلى كتابة « فلسفة التطور » ورنان إلى تأليف « مستقبل العلم »، فكانوا جميعاً كحملة المشاعل يتقدمون بها حقبة جديدة في الحضارة ، فـكان جيلهم جيل نهضة وبعث .

صورتان متعاقبتان لجيلين متعاقبين من القرن التاسع عشر، في أوربا . فالحياة انتفضت قائمة على قدميها، من براثن الموت ــ أو ما ظن موتاً ــ وقرن التجدد ذر في أعقاب الدمار ــ أو ما ظن دماراً ــ والحقيقـــة في الحالين ، أن الفترة التي أوحت بالتشاؤم إنما كانت فترة مخاض أليم، والفترة التي تلتها كانت فترة أثبتت فيها الحياة سلطانها الذي لا يرد .

كانت فكرة الارتقاء والتقدم مما شغف به رجال الفكر منذ العصور المتغلغلة في تاريخ الفكر . ولا تزال الآراء متضاربة فيها حتى يومنا هذا . ففي أيام الحضارة اليونانية الزاهرة كان بين الفلاسفة من يرى أن الحضارة سائرة في سبيل التقهقر ، صائرة إلى الفناء . وكان فيهم كذلك من يعتقد أن الحضـــارة ماضية في سبيل التقدم والرقي . إلا أن الفئة الأولى كانت أكثر عدداً وأقوى أنصاراً . فغلب الرأي أن لكل حضارة أجلاً مسمى ، فتتوالى عليها أربعة أطوار - طور الطفولة فطور الشباب فطور الشيخوخة ثم طور الفناء . وقد ظل فريق كبير من رجال الفكر والفلسفة حتى أواخر عصر « الاحياء » متأثرين بهذا اللون من التفكير ، ينظرون إلى الماضي في لهفة المتحسر ، إن لم أقل في لهفة اليائس القانط من الحاضر والمستقبل . ويذهب بعض مؤرخي الفكر إلى أن هذا الأثر الذي تركه هـــذا التفكير اليوناني في تفكير القرون الوسطى وعصر الاحياء ، كان جناية على الحضارة لأنه كبت الجهود وأخمد المواهب زمناً طويلاً .

هذا النضال بين الايمان بالارتقاء وإنكاره، لا يزال قائماً وإن تغيرت صورة وتبدلت أوضاعه. ففي الفترة التي انقضت بين الحربين العالميتين ، نزعت فئة من فلاسفة الغرب إلى القول بأن الحضارة الغربية على شفا جرف هار ، وقد كان شبنجلر الالماني لسانها

البليغ في كتابة « انحطاط الغرب »، وكانت تقابلها فئة أخرى، تذهب إلى أن الحضارة الغربية – وهي الحضارة الغالبة في القرن العشرين – هي حضارة قائمة على العلم والصناعة ، وأنها تحوي في ثناياها بذور بعثها وتجديدها ، لأن العلم ليس وقفاً على طائفة واحدة من الناس، ولأن رجال العلم لا ينحصرون في طبقة دون غيرها ، من طبقات الامم ، ولا في أقليم دون غيره من أقاليم الارض ، فاذا دمرت معاهـــد العلم في قوم ازدهرت في قوم آخرين ، وإذا أقوت المصانع في لانكشير أو ولايات أميركا الصناعية ، فليس ثمة ما يمنعها أن تزدهر في الهند أو الارجنتين أو قلب روسيا الاسيوية، فالارتقاء في رأيها، أمر لا ريب فيه.

طبعاً إن الحضارة الصناعية التي ترجع في شكلها الحاضر الى قرنين على الاكثر ، لم تنجب في الفنون الجميلة عباقرة من طراز هوميروس وفرجيل وشكسبير، أو من طراز فيدياس ورفائيل وبيتوفن ، ولكن في وسع الباحث أن يقيم الدليل ، على أن خيال العلماء الذين نفذوا إلى قلب الذرة أو رادوا رحاب الفضاء القصية ، ليس دون خيال الشعراء ، وإن كان هناك تحول في بعض ما ينصرف الخيال إليه . وإذا كان ابناء الحضارة الصناعية لم ينشئوا تلك المباني القدسية التي عليها روحانية العباد – على حد قول شوقي في الأهرام – فيجب أن نعترف بأن لكل عصر

روحا تظهر في مبانيه، فالجسور المعلقة العظيمة الجميلة، وناطحات السحاب الضخمة ، ومباني المعاهد العامة ، وحتى مباني المصانع في بعض البلاد التي اخذت باسباب الارتقاء الاجتماعي والصحي للعمال ، تنطوي على نزعة عالية الى الفن ، تجسمت فيها حاجات العصر الذي نعيش فيه وتجلت دوافعه الفنية .

على أن الحضارة الصناعية في نشأتها وطبيعة الاجتماع الذي ولدته ، خلقت للناس مشكلة لعلها أمّ مشكلات العصر في باب النظام السياسي والاجتماعي. وهي مشكلة النزاع القائم بين نزعة الحرية في نفس الانســان وضرورة التنظيم والتوجيه في عصر الصناعات الضخمة والشركات التجارية الكبيرة. فالى نزعة الحرية مرجع الابداع الذي هو سر كل ارتقاء . وإلى التكتل الضخم في الصناعة والتجارة مرجع غير يسير من التحكم والاستبداد بالطبقات العامة، وإلى ترك الحبل على غاربه، لهذه الكتل الصناعية والتجارية ، وعدم التنسيق بينها وبين حاجات الأمة الواحدة ، وحاجات الأمم جميعاً ، مرجع كثير مما شهدناه من الأزمات الأقتصادية وأسباب النزاع الأقتصادي المفضية إلى الحروب بين الامم .

فمشكلة التوفيق بين السلطان والحرية، أو بين الحرية وحسن التنظيم في نطاق السياسة والاقتصــاد هي المشكلة الاجتماعية

الأولى في هذا العصر، والأصل في هذه المشكلة هو أن في وسع البشر أن يستمتعوا بالحرية بغير أن تنتشر الفوضى، وأن في وسع الحكومة أن تمارس السلطان بغير أن يعم الاستبداد ، وأن في وسع الناس أن ينتجوا أوفر إنتاج، وأن يستمتع جميع العاملين بقسط عادل من الربح يكفل لهم العيش الرخي ، ولكن كيف السبيل إلى تطبيق هذا المبدأ ، على شؤون الناس ؟

في الطرفين المتطرفين ، نجد في اليمين اصحاب الرأي القائل باطلاق حرية الانتاج والتجارة اطلاقاً لا ضابط له سوى قانون العرض والطلب. ونجد في اليسار أصحاب الرأي القائل بأن الدولة ينبغي أن تسيطر على جميع أسباب الانتاج ووسائل التجارة ، فلا رأي إلا رأيها ولا قانون سوى كلمتها . وكلا الرأيين متطرف ، فالأول يفضي الى ضروب من الاستبداد الاقتصادي لا تتواءم مع دعوى الحرية التي خرج هذا الرأي باسمها ، ثم إلى ضروب من المنافسة على الأسواق، هي مبدأ الاستعمار ومعاده. وانتشار العلم في هذا العصر ، ويقظة الشعور بحقوق الانسان ، مناف للاستبداد الاجتماعي ، وللاستعمار السياسي والاقتصادي، وإليهما جميعاً يرجع ما ينسب إلى النظام الرأسمالي من مساوىء وشرور . وأما الثاني ، فيؤخذ عليه احتشاد السلطة في يد طبقة جديدة مستبدة ، لا تلبث شهوة السلطان أن تفسدها وتستبد

بها، فتميل إلى تخليد سلطانها بالقمع والتحكم والاضطهاد، وبايهام الناس وتعويدهم الخوف من جيرانهم، وباستغلال هذا الخوف في اثارة الشعوب بعضها على بعض ، وضرب حواجز دون تعارفها وتفاهمها ، أي دون تشاركها في بنيان عالم واحد ، صار قيامه أمراً لا بديل منه ، بعد أن خطت العلوم والصناعات خطواً حثيثاً إلى جعل شعوب الأرض أمة واحدة في الواقع ، وبعد أن صار خطر القنبلة الذرية في نوعيها المعروفين خطراً ماثلاً بين أيدينا ، لا وهماً من الاوهام .

وقد تجلت مساوىء الرايين المتطرفين فيما عهدناه من خطط الدول الرأسمالية برغم ما أخذت به من أساليب الحكم النيابي في بلادها ، وفيما عهدناه أيضاً من أساليب الدول الآخذة بمبدإ السلطان المركز وعبادة الدولة ، مهما تختلف الأسماء التي نطلقها عليها .

فالمشكلة مشكلة حقيقية ، وهي تحرك القلق في داخل الدول، بما تثيره من نضال أصيل مديد، يبلغ مبلغ العنف احياناً بين طبقة العمال وطبقة أصحاب الأعمال ، ويكاد أن يشل الحياة الاقتصادية أحيانا ، وما تفضي اليه أحياناً من تكتيل السلطان في دول أخرى حتى يصبح التغني بالحرية ضرباً من النفاق على أوسع نطاق. ثم هي تحرك القلق أيضاً بين الدول، بما تثيره من

ريب ومخاوف، يرتد إليها الباعث الأول على نظرة التشاؤم من مصير الحضارة ومستقبل الانسان على سطح الارض .

أفتثبت الحياة سلطانها مرة أخرى فتخرجنا من هذه الغمرة كما فعلت من قبل ؟

قمم العصر الحديث

« لن تجد في دراسة الحضارات ، وأسرار قيامها وانحطاطها، نعمة أعظم من نعمة النظر المشارف » قولة حق قالها لي طاغور – رحمة الله عليه – يوم نعمت بلقائه في القاهرة منذ ربع قرن أو نحوه . والنظر المشارف ، لن يهبط على المرء عفواً في كيس من السماء ، ولا يلم بذهنه ، كما يلم خيال شارد فيقيده في قصيدة أو صورة أو لحن، بل هو صفة من صفات العقل في رجل يكب على دراسة التاريخ المقارن ، وله من عدة الفكر وعدة الخلق ما

حديث أذيع من محطة الشرق الادنى للاذاعة العربية

يمكنه من مكابدتها ، فاذا انتهى إلى حكم ما، فكأنه انتهى إليه، على ذروة عالية ينتحيها، فيشرف منها على ما كان ، وعلى ما هو كائن، فيرى نسج الحياة المتصل ينساب من تحته ، فيستبين فيه الصفات الغالبة عليه ، ولا يرى الصغائر التي تشغلنا كل يوم ، فنؤخذ بها ونحير ، ونشيح بوجوهنا عما يمر بنا عن أشياء قد تنطوي على خواص ومغاز تجعلها باقية على الدهر ، فلا يكشفها بعد زمن - يطول أو يقصر - سوى أصحاب النظر المشارف.

ونحن نشغل اليوم - كل يوم - بكثير من الأحداث والأقوال، التي يصح أن تتخذ دليلاً على انحطاط البشر، وفسادهم، ولكننا إذا ألقينا نظرة مشارفة على سير البشر في بضعة القرون الأخيره تبينا صفات غالبة ، استصفاها الزمن بمصفاته الدقيقة ، فاذا هي كالاعلام المنصوبة على الطريق أو كالقمم الشامخة .

وبعد انقضاء سنين على هذا الحديث مع طاغور لقيت رجلاً ليس له شهرة طاغور ولا سمته ووقاره ، ولكنه مع ذلك رجل عرك مراحل الفكر والحضارة في مجلدات تشهد له بوفرة العلم وثقوب النظر، هو ويل دورانت مؤلف «قصة الفلسفة» التي اشتهرت في العقدين الثالث والرابع من هذا القرن ، وصارت المثل الذي يحتذى في كتابة كتب « القصص » عن العلوم المختلفة . وقد اضطلع ويل دورانت منذ خمس عشرة سنة أن نحوها بكتابة

« قصة الحضارة » في سبعة مجلدات ، كل مجلد منها كتاب ضخم في نحو ألفي صفحة ، وقد ظهر منهـــا حتى الآن خمسة مجلدات أولها « تراثنا الشرقي »، وثانيها « اليونان »، وثالثها « بين قيصر والمسيح »، ورابعها «عصر الايمان» وفيه خلاصة جيدة عن حضارة العرب وعلومهم، وخامسها « عصر الاحياء » .

وقد قابلته عرضاً منذ سنوات قليلة في حفلة ثقافية في فندق شبرد بالقاهرة قبل أن تأكله النار ، فعرفته قبل أن أقدم اليه ، وانتحيت به زاوية من البهو ، عند أول فرصة سنحت ، فتطرق بنا الحديث إلى قولة طاغور، فابتسم ووافق، فسألته وهو الذي غاص في أطوار تاريخ الحضارة : ألك أن تنسى الماضي البعيد ، هنيهة، وأن تستخرج بالنظر المشارف إلى العصور الحديثة، فتذكر لي القمم التي تظنها أعلى ما بلغته الانسانية في القرون الحديثة وأثمن ما تخلفه للأجيال المقبلة ، فابتسم ثانية واسترسل ، فدونت في مذكرتي ساعة عدت الى داري ، رؤوس ما قال فاذا هي « الآلة » و « العلم » « ووسائل التعليم » « الكتابة والطباعة ». وأذكر أنه قال لي يومئذ: حسب أي مجموعة من عصور التاريخ أن تكون قد أنجبت هذه الآثار لتبقى حية على الدهر، وحسبنا نحن الناس أن ننظر إلى هذه القمم في تطور الانسان الحديث ، لكي نخفف قليلاً مما يلم بنا من يأس أو تشاؤم ، حين نحدق فيما

ما لا يسر من شؤون الساعة أو أحداث اليوم .

لم افصل في مذكرتي ما قال ، ولكنني عدت مصادفة منذ عهـد قريب إلى فصول كتبهـا في هذه المعاني - ونقلتها - فاستخرجت منها ما يلي :

الآلة : في وجه الخياليين ، ودعاة تحطيم الآلات والعودة إلى أحضـان الطبيعة والفطرة ينشد فريق كبير من مفكري العصر الحديث أنشودة الادوات والآلات التي استعبدت الانسان وها هي ذي تحرره . يجب ألا نخجل من نجاحنا المادي . لأنه من الخير أن تكون ضروب الرفاهة التي كانت مقتصرة من قبل على الأعيان قد أصبحت بفضل الصناعة متاحة لمن يشاء. كان لا مندوحة أولاً عن تقليل ساعات العمل وإكثار ساعات الفراغ - وإن أسيء استعمالهـا - قبل نشوء ثقافة عامة تشترك فيها طبقات الشعوب . فهذه المخترعـات المتكاثرة قد أتاحت لنا ذلك . هي أعضاؤنا الجديدة التي نسيطر بها على بيئتنا من غير أن تكون أجزاء من أجسامنا. فنحن نصنع أذرعاً جبارة نبني بها في أشهر صروحاً كان بناء ما يماثلها يقتضي عمل ألوف وألوف من العمال في العصور الغابرة ، وعيوناً ضخمة ترود الفضاء بين النجوم والسدم النائية ، وعيوناً صغيرة دقيقة تنفذ إلى خلايا الأجسام الحية التي لا ترى . إننا نتكلم إذا شئنا بأصوات خافتة من قارة الى قارة

فوق البحار والجبال . إننا نسير فوق سطح الأرض وفي الهواء بتلك الحرية التي اتصفت بها آلهة الأقدمين . نسلم بأن السرعة لا تطلب لذاتها . ولكن معنى الطائرة الأسمى إنما يقوم في دلالتها على الشجاعة والارادة التي لا تقهر . لقد مضت علينا قرون كنا فيهـا مقيدين – كما قيد بروميثيوس في الأساطير – الى سطح الأرض ، أما الآن فقد تحررنا .

كلا . إن هذه الأدوات لن تسيطر علينا . إن خذلاننا الحالي أمامها أمر وينقضي . إنه وقفة في سيرنا المستمر نحو عمران خال من الاستعباد . لأن العمل الجسدي الذي سفل بالسيد والمسود في الازمنة الغابرة قد رفع عن كواهل الانسان وعهد به إلى عضلات من الحديد والفولاذ لا تتعب . وقريبـاً يصبح كل شلال وكل ريح تهب مصدراً تنسكب منه الطـــاقة المفيدة في المعامل والبيوت ويمسي الانسان حراً من كل قيد لينصرف إلى أعمال العقل والخير .

العلم : لقد صدق المؤرخ بكل يوم قال إن الارتقاء الصحيح إنما هو الارتقاء في المعرفة وغيرها من المواهب المتصلة باستنارة العقل. هنا – بين أشراف البحث الذين لا يتمتعون بألقاب النبل، وفي المعارك الصامتة التي تدور في معامل البحث العلمي ، نقع على صفحات جديرة بأن ترجح ما نراه في السياسة من فساد وفي الحرب من تدمير . هنا الانسان الذي يخوض الظلمة ويصمد

للاضطهاد في طريقه نحو النور . انظر اليه واقفاً على سطح هذا السيار الصغير يقيس الكوكبات التي لا يكاد يراها ويزن أجرامها ويحل أشعتها فيعرف مـــا تتقوم به ، وينبىء بأحوال الأرض والشمس والقمر، ويشاهد ولادة عوالم جديدة وفناء عوالم قديمة. أو انظر إليه رياضياً نظرياً (في الظاهر) يعالج معادلات تسفر عن استنباط يضاعف قوة الانسان . هذا جسر قوامه مئة ألف طن من الحديد معلقة على أربعة حبـــال من الصلب ممتدة من شاطىء الى شاطىء فيروح عليها الناس راكبين وراجلين بمئات الألوف ويغدون. هذا شعر بليغ. وهذه البناية المتطادة الذاهبة في الجو مئة طبقة وطبقتين تميل من جانب الى جانب ولكن على مقدار ، أو ليست هي في مناعتها ولينها أروع مثل على جرأة المهندسين وثقتهم بحساباتهم الدقيقة . وهذه العلوم الطبيعية تفتق الطاقة من قلوب الذرات . هنا في المعامل تستعد علوم الأحياء لتغيير وجه العالم العضوي كما غيرت علوم الطبيعة وجه العـــالم المادي. إنك تقع على مئات من العلماء في كل ناحية ، يدرسون، في غير جلبة ولا ادعـــاء ولا انتظار للجزاء ، ولا تكاد تدري مصدر هذا الانكباب والاخلاص ، مع أنهم يعلمون أن الموت مدركهم قبلما تؤتي الأشجار التي يغرسونها ثمارها الجنية .

بيد أن ما يقال من ان فوز الانسان على الطبيعة لا يجاريه فوز مثله للانسان على نفسه هو قول صحيح. إن الحجة التي تؤيد

القول بالارتقاء تضطرب هنا وتهن . فعلم النفس لا يكاد يدرك سلوك الانسان وشهواته دع عنك السيطرة عليها وتوجيهها . إنه مختلط بجانب كبير من التصوف وما وراء الطبيعة ، وبالتحليل النفسي ، والنزعة المسلكية وحالات الغدد وأمراض المراهقة وغيرها. ولكن علم النفس لا بد أن يقوى على ما يعصف به من العواصف وينتابه من الأدواء ، ولا بد أن ينضج كسائر العلوم بما يأخذه على نفسه من التبعات. فاذ جاءه رجل كباكون ووضع حدوداً لمباحثه وبيّن طرقه وأساليبه ووضح أغراضه وغاره – فمن منا ونحن نعرف مفاجآت التاريخ وصلابة الرجال – يستطيع أن يعين حدود المآتي التي نستطيع أن نجنيها من اتساع معرفتنا بالعقل البشري. فقد بدأ الانسان في عصرنا يحرف نظره عن بيئته التي خلقها خلقاً جديداً إلى نفسه ليخلقها خلقاً جديداً أيضاً .

التعليم : كانت وسائل نقل التجربة والخبرة المتجمعة على الدهور ، قليلة تافهة فيما مضى من القرون ولكنها آخذة في الازدياد والانتشار . إن إنفاق الأموال الطائلة وبذل المجهود الضخم لتزويد المدارس وإعداد المعلمين يكاد يكون أمراً جديداً في العمران . ولعله أهم ما يمتاز به عصرنا . كانت الكليات في العصور الغابرة كمالات لاينال شرف الانتساب إليها سوى أفراد قلائل من طبقات الأغنياء والأشراف ، ولكنها كثرت الآن حتى كادت أن تصير في متناول من يشاء . لم تتفوق على أعلى

مراتب النبوع والعبقرية في العصور القديمة ولكننا رفعنا مستوى المعرفة العامة فوق كل مستوى بلغه التاريخ في الماضي. ونحن إذا نظرنا إلى التاريخ نظراً مشارفاً شاملاً وجدنا أن تجربة التعليم العام لا تزال في مهدها . فالوقت الكافي لم ينقضِ عليها بعد لتثبت فائدتها وتستشرف أوسع آفاقها . إنها لا تستطيع أن تزيل في جيل واحد أو بضعة أجيال قليلة جهل عشرة آلاف سنة وأوهامها .

ولكن لا تحسبن التعليم سجلاً مملاً للحقائق والتواريخ بل يجب أن يكون وسيلة للاتصال بأعظم العقول والنفوس اتصالاً يرفع النفس إلى مستوى النبل . لا تحسبنه استعداداً للارتزاق وحسب ، بل إنماء القوى الكامنة في النفس حتى نستطيع أن نفهم عالمنا ونسيطر عليه . وفوق كل ذلك يجب أن نتخذه في أوسع معانيه وأكملها وسيلة لنقل التراث العقلي والفني والصناعي والأدبي إلى أكبر عدد من الناس ، فتطبع نفس الفرد بطابع البشر . إننا لا نكاد نولد بشراً ولكننا نصير كذلك بما تسبغه البشرية علينا بمثات الوسائل والطرق التي تنقل من الماضي الى الحاضر ذلك الارث الثقافي الذي رفع البشر اليوم شيئاً ما إلى مستوى لم يبلغه جيل آخر من قبل .

الكتابة والطباعة : هنا تخذلنا مخيلتنا لاننا لا نستطيع أن

نتصور حالة العصور التي سبقت استنباط الكتابة لما كان الناس لا يستطيعون أن ينقلوا تجاربهم إلا بالكلمة الشفوية من الوالد الى الولد . فاذا نسي جيل ما تلقن أو أساء فهمه اضطر أن يعود إلى أسفل سلم المعرفة ليتسلقه من جديد . فجاءت الكتابة ممهدة سبيل البقاء لمآثر العقل . إنها حفظت لنا في أثناء قرون من الفقر والجهل والوهم كنوز الحكمة التي كشفت عنها الفلسفة وآثار الجمال المرسومة في الدرامة والشعر . فربطت الأجيال المتعاقبة برابطة التراث المشترك .

وكما ربطت الكتابة الأجيال المتعاقبة تربط الطباعة الحضارات وتلاقح بينها . قد تغير الحضارة موطنها ولكنها لن تزول من وجه الأرض إلا بزوال الأرض . فاذا حدث لها ما دمرها في بلاد ما كحرب أو جفاف أو جليد أو وباء فيمكنها أن تزدهر في بلاد أخرى لأن جميع أسبابها وأساليبها مدونة في الكتب التي تتداولها الأمم . ليست الحضارة عبداً اقطاعياً مرتبطاً بالأرض التي ولد عليها ولكنها مجموعة من المعرفة الصناعية والابداع الثقافي . فاذا كان في الامكان انتقال هذه المعرفة وذلك الابداع الى موطن جديد فلا يصح القول بأن الحضارة زالت لأنها إنما غيرت موطنها ، والفيلسوف لا يهمه أن تخلد مدينته التي ولد فيها إذا أتيح لمآتيه أن تنقل من جيل الى جيل حتى تصبح جزءاً من الارث الانساني العام .

نحنُ وأنتمْ

سيدي الكريم

وقع اختيار حزبك عليك لتحمل علمه في انتخاب الرياسة ، فأتمنى لك التوفيق ، ولست أتمناه لك لصلة خاصة تربطني بك ، ولكن لاننا نحن معشر العرب بتنا نتمنى وقوع تغيير في البيت الابيض بعد أن بلونا منه ما بلونا ، كما يتمناه ملايين من الامريكيين ، لاسباب مغايرة . ونحن نعلق هذه الامنية على

نشرت في صحيفة « الاهرام » على اثر ترشيح الجنرال ايزنهاور للرياسة الامريكية عن الحزب الجمهوري تموز (يوليو) ١٩٥٢ .

ظننا بأنك أصح أدراكاً لمنزلة جماعتنا من الشعوب، ورفعتنا من الارض ، في الجهاد الذي لم تزل تؤكد أنه جهادك – من أجل السلام والحرية .

ولكن لا يسعني أن أبين لك ما أتمناه عليك في أرضنا ، بعد توفيقك، إن لم أبدأ بما أتمناه لك في وطنك. وقد تأخذ عليّ، وأنا عربي ، أن أقول شيئاً فيما ينبغي أن يكون في أمة تبعد عني خمسة آلاف ميل أو تزيد ، وفي أمور ظاهرها يخصك ولا يخصني . ولكنني زرت وطنك غير مرة ، وخالطت غير جماعة وأحدة من خيرة جماعاته ، فصرت أعتقد أن أمريكا لن تستطيع أن تبذل للعالم خير ما عندها – وهو كثير – إن لم تصر هي مرة ثانية خير ما كانت ، وخير ما يمكن أن تكون . وهذا شيء يخصني ويخص كل انسان يميل الى الخير والعدالة والحق ، كما يخصك أنت . فلذلك أجرؤ على مخاطبتك ، وقد شجعني عليها حرصك ، وأنت قائد حربي ، على جعل القوة الخلقية في المقام الأول بين الأركان التي تقوم عليها منزلة الأمة .

قرأت منذ عهد غير بعيد لكاتب غير أمريكي فصلاً كتبه بعد ان زار عاصمتكم فقال : لو بعث أحد ابناء روما في القرن الخامس ، وقدر له أن يزور وشنطن اليوم وأخذ بظواهر ما يرى، لقطع بأن الرواية لم تتم فصولاً ، ولهاله ما يرى من مشابه

بين عاصمة الولايات المتحدة اليوم وعاصمة الامبراطورية الرومانية قبيل انهيارها .

ولعل الرجل قد أخطأ في التشبيه ، فقدكانت روما يومئذ عاصمة امبراطورية مترامية قامت على الفتح ، فكرّت عليها سنابك الزمن فاذا هي بين مفاتن الترف وصراع الطامعين بالسلطان قد أشرفت على الانهيار . وقد مضى على انهيارها خمسة عشر قرناً أو نحوها ، فلا يذكر الناس الجحافل الرومانية ، ولكنهم يذكرون القانون الروماني ، ويتدارسونه ولا ينسون الطرق المعبدة ، وفترة السلام الروماني وشعر فرجيل وحكمة اوريليوس وخطابة شيشرون . وأما أنتم فقد اخذت بتلابيبكم سورة حياة زاخرة متدفقة ترغب رغبة صادقة في التعمير والانشاء، فشتان ما بين الحالين ، واذا صدقت فراستي في تاريخكم فانكم على الرغم من الرخاء المادي ، لن ترضوا ، إذا استوحيتم ذلك التاريخ ، بغير الحرية والخير بديلاً ، ففي وسعكم اليوم أن تتربعوا على الأوج ، وأن تتقدموا دول العالم الحر في هذا الطريق ، إن أنتم تنكبتم مهاوي من سلف، ببقائكم أمناء على التراث الذي ولدكم . وهذا التراث اذا اقترن بالعلم والصناعة الحديثين – وأنتم من أربابهما – كان كفيلاً بأن يمد أمام البشر آفاق رجاء لا تحد .

طبعاً إن المشكلات التي تعانونها وتحملون عبء البحث عن حلول لها لهي مشكلات عاتية وهي لاتقتصر على المشكلات الداخلية كمشكلة العمال والصناعة ، وتعميم الحقوق المدنية ، ووقاية اقتصادكم الزاخر من أن تلم به نكسة، واستنفار شبابكم الى الفضائل عن الشهوات، ورفع الحياة النيابية عن مواطن الشبهات بل تشمل أيضاً المشكلات الخارجية التي تتصل بأمن الامة وسلامتها وصلاتها بالدول الاخرى وما لكل ذلك من أثر في مستقبل البشر على سطح الارض .

وليس لكم مفر من العناية بالطائفتين جميعاً. فأسلافكم الذين أنشأوا الولايات المتحدة، هجروا العالم القديم لينشدوا في سهوب العالم الجديد حياة قوامها الحرية والعدالة والخير والسعادة وان للمرء ما سعى، وقد وجدوا أمامهم أرضاً بكراً يتحدى تعميرها عزائمهم فأقبلوا عليها وفرغوا لها فشغلتهم عن سائر الدنيا وثبتت في نفوسهم واخلاقهم عقلية الرواد. ثم التفتوا شرقاً وغرباً فاذا محيطان مترامیان يفصلانهم عن سائر الارض ، وإذا العزلة حقيقة واقعة ، ومن عجائب القدر أن خروج الولايات المتحدة من عزلتها ، بعد استمساكها بها زمنا طويلاً، كان مرده على الأغلب إلى اختراعين كان للامريكيين فيهما يد كبيرة، فالشعب الامريكي نفسه قضى قضاء مبرماً على هذه السياسة يوم صنع الطائرة في

مستهل القرن العشرين ثم يوم صنع القنبلة الذرية قبيل انتصافه ـ وان كان فريق منه لا يزال غير مدرك لعواقب ما كان .

وقد تبينت في رحلاتي المتلاحقة الى بلدكم واحاديثي مع رجال التربية والعمل والسياسة من أهله ، أن في حياتكم ثلاثة تيارات عميقة، تفترق وتلتقي، وهي أولاً: انصراف عن الاستكفاء وخروج على العزلة وإدراك صحيح لاستحالتهما اليوم ، وثانياً سعي صادق إلى تعزيز نظام الاجتهاد الحر بتعديله حتى يجمع بين الجهد الفردي والتبعة الاجتماعية فيصير أسلم بنياناً وأقرب الى العدالة الاجتماعية واضمن لوئام الطبقات، وأخيراً اتجاه أهل الفكر والتربية إلى دراسة الاساس الخلقي والاجتماعي للحضارة الصناعية التى تعد أمتكم أبلغ مثل لها . وهذه التيارات الثلاثة متلازمة، فالحقائق الجغرافية والاقتصادية التي مهدت لعزلة الولايات المتحدة فيما مضى ، هي اليوم التي تقضي بأن لا تعود إلى عزلتها ، وعقلية الرواد التي عمرت نصف قارة في قرن أو أقل ، وأنشأت هذا الاقتصاد الزاخر الغزير الانتاج هي التي تستشرف العالم اليوم لتعمر وتنشىء . والولايات المتحدة أقل اعتماداً على الاصدار من سائر الامم الصناعية الكبيرة ، كألمانيا وبريطانيا ، إلا أنها أصبحت تدرك من الناحيتين السياسية والاقتصادية أن أمم العالم موصولة الأواصر ، وأنه يستحيل على العالم أن يعيش عيش

الرضا، بعضه في رخاء وبعضه في فاقة. ولو نقلتم إلى نطاق السياسة العالمية قول رئيسكم العظيم لنكلن: «يستحيل على هذه الأمة أن تعيش بعضها حر وبعضها عبد» لتم الادراك. ولعل التيار الثالث وهو الميل الصادق إلى فحص دخائل النفس وتبين التبعات الخلقية والاجتماعية الواقعة على كاهل الأمة ذات القدرة والقوة هو أدناها إلى الأصول، لان الحضارة القائمة على الزهو بالرخاء والقوة تصرف الناس، عن الفضائل العريقة، وعن معاودة النفس بأن هذه الفضائل هي النبع الذي ترتوي منه الحضارة فان غاض ذبلت ومشى اليبس في أطرافها.

تجوزون اليوم - يا سيدي الكريم - غمار تجربة سياسية وأجتماعية تستغرق كل نشاطكم وتتصل بالتقاليد العريقة في تاريخكم وتبسط ظلها مشرقاً أو قاتماً على طائفة كبيرة من أمم الارض وتؤثر في مسيرها ومصيرها، وأنتم تملكون من القوة والثروة ما يمهد لكم أن تستدرجوا مئات الملايين من الناس إلى مسايرتكم ومناصرتكم، بما تنشئونه من مشروعات وما تبذلونه عن سخاء من معونة اقتصادية أو فنية أو حربية، ولكن شبح روما يطل من وراء هذا كله - ذهب ذكر جحافلها ومغانيها وأقام ذكر قانونها وحكمائها. فان لم تكن أمتكم أمينة على الصميم من تراثها الانساني الذي جعلها هي ما هي، مثلت وشنطن مأساة

روما مرة اخرى ، فالثروة والقوة خليقتان إن استثمرتا أن تصرفاكم عن طلب الحق والحرية والعدالة ، وعن فهم من يطلبها والعطف عليه وتأييده ، فتنتفي الثقة بكم فاذا انتفت لم تغنكم عنها في آخر الأمر ألف ألف طائرة تحجب وجه الشمس، ويومئذ يحق لمن يشاء ان يقول: اطو الصفحة الامريكية في تاريخ البشر، يافتى ، واقلب صفحة جديدة . والسلام عليكم .

-٢-

وقفت في رسالتي الاولى اليكم، عند قولي بان أعظم مصلحة ينبغي أن تتوخاها أمريكا هي ثقة الناس بأنها لن تلقي بقوتها الأدبية العظيمة إلا في كفة العدالة والحرية، فان لم تفعل، فالقوة المادية قد تغنيها شيئاً زمناً ما ، ولكنها لن تغنيها شيئاً ما في آخر المطاف .

وهذا المعنى هو مدار الصلة بين أمتكم وأمتنا. فقد جاء زمن كنا نعتقد أنكم لا تنهجون سوى هذا النهج القويم، فكان لكم عندنا تقدير وود ، ولم يكن لكم يومئذ قوة حربية كقوة سائر الدول الكبيرة ، فلم ينقص ذلك من تقديرنا وودنا مثقال ذرة .

ولكن منذ أن طلعت علينا نظرية «ضرورات الانتخاب» فهمنا النظرية ولم نقبلها عذراً لما كان ، وقد ازددتم قوة فقل ودنا حتى كاد يتلاشى، منذ أن بدأتم تتنكبون نهجكم الأول. ولو كانت الولايات المتحدة اليوم، كما كانت إلى عهد غير بعيد معتزلة الدنيا، قانعة بالاقامة في قارتها بين محيطين متراميين يؤمنان سلامتها ، مكتفية بان يقوم معظم اقتصادها على سوقها الداخلية لحق للامريكيين أن يفعلوا ما يروقهم من إقحام «ضرورات الانتخاب» فيما يعالجونه من أمور السياسة العالمية . ولظلت مصائر الناس غير معلقة بما يهواه هذا المرشح أو ذاك ، أو ما يستهويه من تأييد هذه الجماعة من اليهود في ولاية نيويورك ، أو تلك الجماعة في ولاية اخرى .

أما وقد صرتم بعد الحربين العالميتين ، ولا سيما بعد ثانيتهما، في طليعة دول الارض قوة ونفوذاً، وأضحى مصير دول كثيرة وطوائف شتى من الناس ، معلقاً بما تتخذونه أو تدعونه من خطط سياسية ، وبما يقوله أقطابكم أو يمتنعون عن قوله ، فلا يعقل أن يكون تقرير هذه الخطط رهناً بأهواء الانتخاب .

وقد أتاحت لكم مشكلة فلسطين ، فرصة قلما تسنح في الدهر الطويل فرصة مثلها لأمة كبيرة، لتوفق في سياستها بين كرامة المبادىء التي ولدتها ونادت بها ودعت إليها وقالت إنها سر

كيانها ، وبين مصلحتها العليا ، فأغفلت الأولى ، وجعلت الثانية عرضة للبوار .

قرأت بيان سياسة الحزب الذي وضع علمه في أيديكم ، فاذا هو يقول إن تأييدكم الأمم المتحدة لا يفوقه تأييد ، أفهل لي أن أسأل ماذا تنوون أن تصنعوا ، بقرارات « وتوصيات » للأمم المتحدة ، وافقت عليها الكثرة من الاعضاء ، وعارضها الصهيونيون ، فلم تسو الحبر والورق الذي طبعت به أو عليه .

يقولون إن تنفيذها يحتاج إلى قوة ، وأنا أشك في هذا، لأن الوسائل التي تكفل تنفيذ قرار أو توصية باسم الأمم المتحدة اذا صح العزم وصدقت النية ، هي كثيرة لا تحصى، فأن لم تجدِ ولم يكن بد من اللجوء إلى القوة ، فليكن اللجوء إليها ، فقد لجأتم إليها يوم استبيحت جمهورية كوريا .

خذوا مسألة القدس، مثلاً. كان المسلمون حفظة على مقدساتها منذ قرون كثيرة، فأحسنوا الحفاظ، ولم يكن سهلاً على نفوسهم وكرامتهم أن ينزلوا عنه ، فلما طرح أمرها على الأمم المتحدة، احتدم النقاش في اللجنة السياسية ثم في الجمعية العمومية، واتفقت الدول الاسلامية والمسيحية على أن تدويل منطقة القدس هو خير نظام لهذه المدينة العريقة في الديانات الكبرى، وقد نال هذا الرأي في اللجنة السياسبة كثرة تؤيده ، ونال في الجمعية العمومية كثرة

أكبر . فكيف يستطيع ، كائناً من كان ، أن يزعم أنه يؤيد الأمم المتحدة ، ثم يتخاذل عن تنفيذ قرار وافقت عليه كثرة ساحقة من دول العالم — لأن الصهيونيين لا يريدون . وها هم أولاء ينقلون إليها وزارة خارجيتهم ويريدون البعثات السياسية الأجنبية أن تلحق بها — وقد قيل أنكم أبيتم أن تنقلوا سفارتكم، وهذا أضعف الايمان ، أما الايمان الصادق فهو التنفيذ الحازم لما أوصت به الامم المتحدة ولم تنكص عنه. وبين المدينة الجديدة، التي في أيديهم اليوم قوة وتحكماً ، والمدينة القديمة حيث حائط المبكى ، رمية حجر وحسب ، فكيف تظنون يا سيدي ، أن هذا التحدي للأمم المتحدة والنجاح فيه غير خليق أن يفضي إلى عدوان جديد ، قد يتقدم وقد يتأخر ، غرضه أن يكون حائط المبكى في نطاق السيادة الاسرائيلية — ويومئذ تصبح كنيسة القيامة والمسجد الاقصى وقبة الصخرة ايضاً في نطاقها ، وهذا، يا سيدي ، من الكبائر !

وكل مسألة أخرى من المسائل الخاصة بفلسطين ، للعرب فيها سند قوي من التاريخ والحق والعدالة وقرارات الأمم المتحدة ، فاذا صدقتم القول بأنكم تنوون أن تؤيدوا الامم المتحدة أقوى تأييد ، وإذا راعيتم تقاليدكم العريقة ومصلحتكم العليا جميعاً، لم يكن لكم مفر من أن تصلحوا ما أفسده غيركم.

قد يقول لك مديرو حملة الانتخاب في حزبك أن لا بد من ممالأة الجماعة الصهيونية حتى تظفروا بأصوات ولاية نيويورك في الانتخاب . لن تستطيعوا أن تمالئوهم أكثر مما مالأهم ساكن البيت الابيض اليوم ، ولكنهم لم يجعلوا نيويورك في صفه في انتخاب سنة ١٩٤٨ ، فاقضوا على هذا الوهم وانقذوا سمعتكم منه. وأنتم تذكرون فورستال ، أول وزير للدفاع الامريكي ، وقد كنتم في بعض عهده رئيساً لهيئة أركان الحرب ، وتعرفون ولا ريب شيئاً كثيراً عما سعى له حباً بامريكا لابغيرها ، من رفع قضية فلسطين ، فوق معمعة الانتخاب ، وأهوائه ، وكيف خذل ومن خذله . وأحب أن أقول لكم إن الأمر جد ، وقد أساء موقفكم في هذه القضية في مجملها وتفصيلها أبلغ إساءة لكم في الشرق العربي والعالم الاسلامي الأوسع ، وإذن فقد آن الأوان لأن تدعوا منافسكم في الحزب الديمقراطي ، إلى اجتماع يحضره أقطاب الحزبين ، وممثلو الطائفة اليهودية في أمريكا ، وأن تقولوا لهم بلغة الحزم إن أمريكا لا يسعها بعد الآن أن تعرض مصالحها العالمية للخطر بسبب ضوضاء على مصلحة خاصة تثيرها أقلية ، تزعم أنها جزء من الأمة الامريكية ولكنها في الحقيقة ذات ولاء موزع ، فلتكف فان لم تفعل فالحكومة الامريكية لن تتأخر عن كفها .

وأنتم ، ياسيدي ، من أعلم الناس بمصلحتكم . فهذه الرقعة من

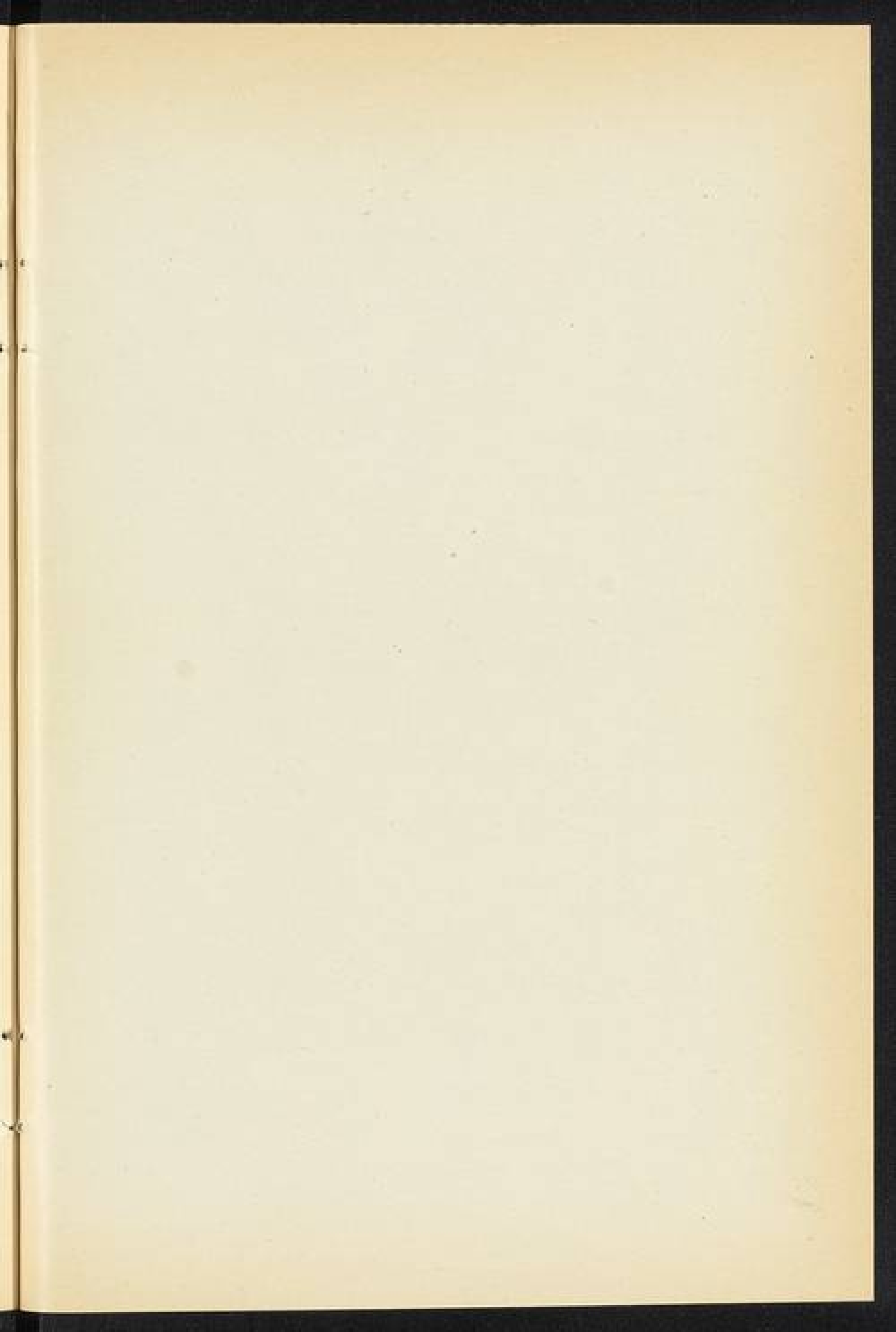
الارض ملتقى قارات ثلاث ، ولها من الشأن الحربي في أثناء الحرب ، ومن الشأن الاقتصادي في اثناء السلام ، ومن الشأن الانساني في ماضي الحضارة ومستقبلها ، ما يجعل رضاها شيئاً يطلب ، واستقرارها وتقدمها ومنعتها مصلحة عالمية كبرى - وهذه أشياء غالية ، ولكنها لا تباع ولا تشرى .

وقد قيل لي أنكم تسايرون بعض الدول الغربية التي كان لها عندنا فيما مضى - ولا يزال لها اليوم - نزعات استعمار واستعلاء، لأنكم في حاجة إلى معاونتها في الدفاع عن اوربا الغربية ، دار عشرات الملايين من ذوي الحضارة والحذق الصناعي ، وموطن مثلث صناعي قد لا يفوقه في العالم كله سوى مثلثكم الصناعي في الشرق الامريكي ، وهذا ولا ريب مصلحة غربية عظيمة ، ولكنني أرجوكم المعذرة إذا قلت لكم - وانتم القائد الكبير - قولاً له صفة عسكرية ، فالواقع أنه إذا أصبح الشرق العربي من ايران إلى مراكش ، معادياً لكم ، أو إذا أضحى مسرحاً للاضطراب، لأنكم في مسايرتكم لأصدقائكم في أوربا ، تنكرون عليه حقوقه وأمانيه، فالدفاع عن أوربا الغربية ذاتها يصبح عسيراً أشد العسر إن لم يصر مستحيلاً، إذ كيف يسعكم الدفاع المجدي عن أوربا الغربية ، إذا صارت شواطىء إفريقية الشمالية ومنابع الزيت حول الخليج الفارسي في أيد غير صديقة ..

سلوا من تشاؤون من كبار أمتكم الذين عرفوا هذه البلاد – سلوا وادزورث وإدي وبنكرتون من رجال السلك السياسي، سلوا دودج وبادو وبنروز وكارلتون من رجال التربية، سلوا ميلار باروز وهوكنج وفيليب حتي ودوروثي طمسون من المؤلفين والاساتذة والصحفيين، سلوا تري دوس وستيفن بكتل وهارولد هوسكنز من رجال الاعمال – سلوا من تشاؤون من هؤلاء، فان قال لكم أحد منهم إنني بالغت في تصوير الحال، أو انحرفت عن الجادة المستقيمة، فانني استميحكم عذراً أنني شغلتكم بما لا طائل تحته وأدعو الله أن يهديكم سواء السبيل.

وقع نظري منذ يومين على رسم استوقفني – فهذا شيخ جليل مرسل اللحية مغضن الوجه عليه مهابة الدهر، وهو يمثل التاريخ، وقد جلستم أمامه فألقى بكفه على كتفكم وهو يقول: «أرجو الله يا بني أن يوفقك إلى إسداء يد إلي». وقد عبر الرسام برسمه هذا عن الفرصة النادرة التي ستتاح لكم، إذا أسلمكم الشعب الامريكي زمامه، فان لم يسلمكم إياه، كان أسفي عظيماً، ولكنكم تستطيعون يومئذ أن تجهروا بما ترون غير متأثرين بنظرية «ضرورات الانتخاب» فتهزوا أعماق النفس الأمريكية هزاً.

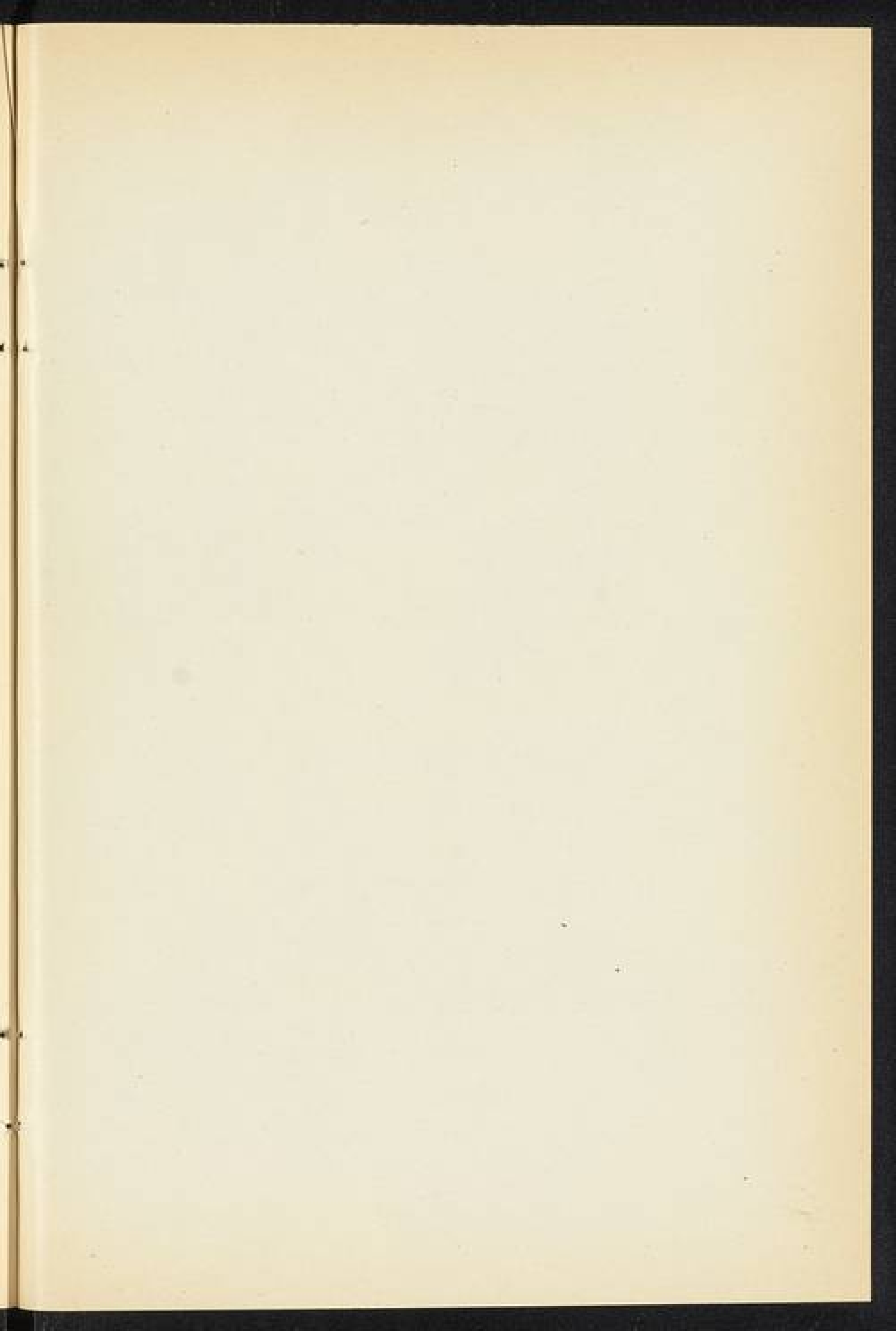
ارجو الله أن يهديكم في الحالين، حتى تسدوا إلى التاريخ يداً كريمة. والسلام عليكم.



- ٣ -

« ونحن نعيش في عصر ، قد وحد بين أجزائه ما طبق من أصول العلوم ، فان لم يستكشف الناس اخلاق النـــاس وعاداتهم وتقاليدهم واسرار نظمهم الاجتماعية وطرائق تفكيرهم ... عجزوا عن فهمهم والتفـــاهم معهم ، وهذه هي الطامة الكبرى في زمن غدت فيه القدرة على التدمير ما غدت ... »

[من مقال « صدمة الجناح الفضي » نشر في مجلة « أهـل النفط »]



صدمة الجناح الفضي

في هدأة الليل ، استيقظ في الحين بعد الحين ، على طائرة تمرق في الجو فوق الدار ، ولمروقها هدير وصفير . فهي على ما قيل لي الطائرة النفاثة التي تنقل الركاب من لندن الى بيروت .

وقد مرقت أمس فلم يزعجني هديرها وصفيرها، ولكنهما نبشا في هدأة الليل ، من دفائن الماضي ، ذكرى أيام قضيتها في مصر مع جماعة من الصحب ، مضى عليها اليوم خمس وعشرون سنة أو تزيد ولكن مرور الأيام لم ينل من صفائها .

مقال نشر في مجلة « اهل النفط »

كان ذلك في شهر أيار ١٩٢٧ ، وقد جلسنا الى الشاي تستبد بنا لهفة على طيار مغامر ، روت أنباء البرق ، أنه استقل طائرة ذات محرك واحد ، من مطار روزفلت في جوار نيويورك ، ثم امتطى بها متن الرياح ، ومضى على وجهه قاصداً الى باريس . كان وحده في الطائرة لا يؤنسه سوى هر أسود دخل طائرته بغير استئذان ، وليس بين يديه من الزاد ، سوى رقائق من الخبز بينها شيء من أدام ، وزجاجة مـــاء . ومضى تحته عباب مترام ، ومن حوله محيط من فضاء لا يعرف له حدوداً، وأمامه ساعات وساعات من بياض النهار وسواد الليل ، قد يغلبه في خلالها الملل أو يغلبه النعاس، أو تلهبه العاصفة بسياطهـــا ، أو تحرفه الرياح كريشة في مهابها ، فيضل الطريق .

لقد سبقه طيارون ركب الاقدام في نفوسهم، ولكن أحداً منهم لم يقدم على مـــا أقدم عليه . ففي أعقاب الحرب العالمية الأولى ، طار ريد الأميركي وصحبه مـن نيوفنلند الى الجزائر الخالدات ، وطار هوكر الاسترالي من نيوفنلند الى ارلندة فسقط في البحر ولكنه أنقذ، وطار الكوك وبراون الانكليزيان من نيوفنلند الى ارلندة فبلغاها . والايام القليلة التي سبقت قيام هذا الشاب من مطار روزفلت، كانت حافلة باللهفة والحسرة على مصير الطيارين كولي وتانجسر الفرنسيين ، فقد حاولا أن يطيرا

الى العالم الجديد، فأخرتهما الرياح التي تهب من الغرب الى الشرق فنفد الوقود ، فوجدا في العباب قبراً و كفناً . ولكن المسافة التي عبرها هؤلاء أو قصروا دونها لم تكن سوى بعض المسافة التي أقدم عليها تشارلز لندبرج ، فقد استخار ربه وعقد عزمه على أن يطير وحده ، من نيويورك الى باريس مسافة تدنو من ثلاثة آلاف ميل .

وقد ظللنا يوماً وبعض يوم نتنسم أخبار هذا الرائد – لقد شوهد طائراً فوق سانت جون في جزيرة نيوفنلند ، ثم شوهد فوق ارلندا متجهاً الى باريس، ثم فوق ثغر شربورغ ، و كنا في جروبي ساعة نقل الينا نبأ وصوله الى مطار لوبورجيه في باريس فقلت لصحبي : لن يلحق به لاحق، ولن يستطيع طيار بعده أن يقول إنه أول رجل عبر وحده المحيط الأطلسي على متن الهواء في مرحلة واحدة ، وذلك حسبه ان لم يصنع شيئاً بعد اليوم .

غلب النسر على دولته ... وتنحى لك عن عرش الهواء
وأتتك الريح تمشي أمة ... لك يا بلقيس من أوفى الاماء
روضت بعد جماح وجرت ... طوع سلطانين علم وذكاء

وقد مضى ربع قرن أو أكثر، واذا طائرات الركاب اليوم تعبر المحيط الأطلسي كل ساعة من ساعات الليل أو النهار، من الغرب

الى الشرق ، ومن الشرق الى الغرب ، لا تعوقها الرياح ولا يعرقل طيرانها المطر المنهمر أو الجمد الذي يتكون على أطراف الجناحين ، فان زمجرت العاصفة على ارتفاع مألوف (٧ أو ٨ آلاف قدم) حلقت الى ارتفاع ١٥ ألفاً أو ٢٠ ألفاً من الأقدام، فلا يشق ذلك على ركبها ، فضغط الهواء في جوفها كضغطه على ارتفاع يسير فوق سطح الأرض ، وحرارته كحرارة البيت مع أنها قد تبلغ في الفضاء خارج الطائرة بضع درجات تحت الصفر .

ولا تزال النكبات تنزل بالطائرات في الحين بعد الحين، ولكنها بالقياس الى عدد الركاب والاميال التي يقطعونها لا تعد أفدح من نكبات السكة الحديدية، وقتلاها حتما أقل من قتلى السيارات في المدن الكبيرة ، وقد عبرت المحيط الأطلسي بالطائرة عشر مرات أو أكثر، دون حادث يذكر، سوى مرة واحدة – ومع ذلك فلم يكن يومئذ شيئاً مذكوراً . فقد أنذرنا قائد الطائرة ونحن على نحو ساعة من مطار جاندر في جزيرة نيوفنلند ، بأن الضباب الكثيف مطبق على المطار ، فاذا تعذر عليه أن يحط عليه ففي خزانات الطائرة من الوقود ما يكفي للوصول الى مطار آخر في تلك البقاع ، فسرت أثارة من جزع ووجوم في نفوس الركب ، وأحس القائد بما كان ، فأحب أن يسرى عنها، فلما دنا من مطار جاندر دار بينه وبين مدير برج المراقبة ،

حديث أسمعنا إياه بجهاز تضخيم الصوت ، فاذا هو حديث برطانة انكليزية أصبحت خاصة بالطيارين وقل من يفهمها دونهم ، بيد أن معناها كما التقطناه من بضعة ألفاظ مفهومة جرت على لسان القائد، أو لسان المدير، أن الطيار قد أسلم نفسه وطائرته وركبها الى مدير البرج، يصدر اليه الأمر فينقاد له كالآلة المسيرة: يميناً ، يساراً ، اهبط الى مستوى ٥٠٠ متر ، الى مستوى ١٠٠ متر ، أنت مقبل على رأس المدرج الآن ، أنت فوق المدرج الآن ، حط العجل على الأرض .. ودرجت الطائرة ثم وقفت .. والحمد لله على المخاطبة اللاسلكية ورادار .

وهذه الطائرات جميعاً مما يسير بمحركات ذات مراوح يشتعل النفط المنقى في جوفها ، ولكن الناس بدأوا يمتطون متن الجو في طائرات نفاثة للركاب ، تقطع في خمس ساعات ونصف ساعة المسافة التي استغرقت من لندبرج ثلاثاً وثلاثين ساعة أو أكثر قليلاً، وتستغرق الآن من الطائرات ذات المحركات الأربعة ست عشر ساعة أو نحوها. وقد يذهب أحدنا الى التساؤل: ما جدوى ذلك؟ وقد يكون الجواب: لا شيء سوى السرعة وما تعقبه من تفزز الأعصاب . ولكن الاستيلاء على مقاليد السرعة يبعث في النفس نشوة، مردها الى الظفر على قوة من قوى الطبيعة وإخضاعها لمرام الانسان. فلو كانت طائرة الركاب النفاثة متاحة لك اليوم،

للطيران من لندن الى نيويورك، لسابقت الشمس أو الأرض في دورانها ، ولكدت أن تسبقها . فالظهر في لندن تقابله الساعة السابعة صباحاً في نيويورك ، ولو قمت عند الظهر من لندن ، في طائرة نفاثة ، لبلغت نيويورك عند الظهر أو بعيده بتوقيت نيويورك ، فتأكل طعام الغداء مرتين في يوم واحد وفي ساعة واحدة ، إن لم تحرك عقربيهــا ، وفي مدينتين متباعدتين على جانبي المحيط .

وهو أيضاً سؤال وجهه المتشائمون والمتشككون في جميع عصور التاريخ الى جميع أصحاب المكتشفات العظيمة والمخترعات المفيدة يوم كانت في مهدها . على أن تاريخ ارتقاء العلم من فجر التاريخ الى الآن هو جواب واحد متسلسل بليغ مؤداه أن كل عمل علمي يبدأ صغيراً ولا ينتظر أن تجنى منه فائدة عملية ما ثم يتقن ويرتقي فتتعدد وجوه الافــادة منه وتكثر نواحي تطبيقه على شؤون الحياة ومقتضياتها . والأمثلة على ذلك لا تكاد تحصى .

ومــا يصدق على الرحلة بالطائرة بين باريس أو لندن من ناحية ونيويورك من ناحية أخرى، يصدق أيضاً على الرحله بين عواصم العالم طراً وفوق بحاره ومفاوزه . وقد بدأت الطائرة النفاثة تنقل الركاب بين لندن والقاهرة أو لندن وبيروت ، فاذا الرحلة بينهما لا تستغرق أكثر من خمس ساعات وبعض ساعة بما

فيها توقف ساعة أو نحوها في مطار شامبينو بروما . فاذا ما تغلب أهل الهندسة والصناعة على مشكلة الوقود الذي تستهلكه هذه الطائره ، صار في وسعها أن تطير بركابها طيراناً مضمون المغبة من لندن الى احدى العاصمتين العربيتين بدون توقف في أربع ساعات ، وقد فعلت ذلك في أثناء التجربة ، بيد أن أصحابها يقدمون الآن سلامة الركاب والطائرة ، حتى يستوثقوا من أن مشكلة الوقود قد حلت .

قال علي رضى الله عنه : الناس أعداء ما جهلوا . وتقدم الطيران التجاري ، في ربع القرن المنصرم ، هذا التقدم الباهر ، كان وسيلة - أو كان ينبغي أن يكون وسيلة لرفع ستار الجهل ، فيقل عداء الناس لما يجهلون ، ويكثر اتصال الناس بعضهم ببعض ، فتزول الحواجز التي أقامها الجهل أو الغرض أو سوء الظن فتتوثق عرى المعرفة والصداقة . وقد يعترض الساخر المستريب بترديده قول من قال : أن تسمع بالمعيدي خير من أن تراه . ولكن الخير المركب في طبيعة الانسان ، خليق أن يتكشف بالمحادثة أو المعاملة ، ونحن نعيش في عصر ، قد وحد بين أجزائه ما طبق من أصول العلوم ، فان لم يستكشف الناس أخلاق الناس وعاداتهم وتقاليدهم وأسرار نظمهم الاجتماعية وطرائق تفكيرهم عجزوا عن أن يستطلعوا البواعث التي تحملهم

على قول ما يقولون وعمل ما يعملون ، أي انهم يقصرون عن فهمهم والتفاهم معهم – وهذه هي الطامة الكبرى في زمن غدت فيه القدرة على التدمير ما غدت .

فالاجتماع الدولي من ناحيتي الصناعة والاقتصاد واحد لا يتجزأ ، وأبناؤه ، لا يستغني احدهم عن الآخر، ويعتمد بعضهم على بعض في الف ناحية وناحية .

وسرعة الرحلة، انما هي ناحية واحدة من عالم وحدته منتجات الصناعة وآيات العلم ، ويساويها بل قد يفوقها التقدم العظيم في الاتصال الذهني من طريق المخاطبات والاذاعة ونقل الصور والمرئيات . فالمرء في هذا العصر لا يكتفي بتناول أخباره وآرائه من الصحف المطبوعة، بل يرغب كذلك في أن يصغي الى الملوك والرؤساء وأقطاب العمران ، في حجرته أو خيمته. وهو يعد مخاطبة من شاء في كل مكان على سطح الأرض أمراً مألوفاً. ولكنه قلما يخطر له حين ينظر الى الطائرة في الفضاء أو يدير مفتاح المذياع ، أو يرفع سماعة التلفون، أن في هذا الجهاز عنصر الكروم من روديزيا أو روسيا أو تركيا ، وعنصر الكوبلت من الكونجو البلجيكي أو المكسيك ، والقصدير من جزائر الهند الشرقية أو بوليفيا ، والمطاط من مالايا أو جزيئات النفط من العربية السعودية أو فنزويلا أو تكساس، والحرير من الصين أو

اليابان ، والمينـاء من زيلندا الجديدة ، والقنب من الفلبين أو الهند . واذا كان يعيش في مدينة كبيرة ، فانه لا يفرغ طوال نهاره وليله من الاستمتاع بأشياء ذات منفعة أو ذات جمـال ، مردها الى أنه عضو في مجتمع تتعدى حدوده الجبـال والبحار ، وهو مجتمع يشمله نظام اقتصادي يتيح للناس وللاشياء وللافكار، أن تنتقل انتقالاً حراً سريعاً وبغير نفقة تذكر، وهو نظام يضيق ذرعاً بالحدود والقيود .

أجل إن التقدم في ركوب متن الهواء الذي تمّ منذ يوم لندبرغ يسّر نقل البريد السريع والصحف والأدوية التي تشتد الحاجة اليها، ورجال السياسة والتجارة والصناعة والتربية والنزهة، ولكن جدواه المقدمة شأناً وأثراً هي أنه يصدم النفوس بحقيقة وحدة العالم، وراء مظاهر الاختلاف، وبضرورة السعي الى الفهم والتفاهم في عالم تتشابك أصوله ومصالحه ، وحسبها جدوى !

معانٍ مجنّحة*

-١-

في ليلة من ليالي خريف ١٩٤٩ جلست في دار صديق يقيم في ضاحية من ضواحي مدينة فلادلفيا بالولايات المتحدة الأمريكية. كان الرجل من أوساط رجال الأعمال، ولكن نشأته الفكرية هيأت له زاداً غير يسير من العلم والفلسفة الاجتماعية، وإن كان غير متخصص في فرع من فروعهما.

كان جو الحياة في أمريكا يومئذ، حافلاً بالوجوم، فمنذ

*مقالان نشر اولهما في مجلة « اهل النفط » وثانيهما في مجلة « الكتاب »

أسبوعين أعلن الرئيس ترومان أن عنده ما يدل على حدوث انفجار ذري في روسيا في الأسابيع الأخيرة. وكان كل حديث، مهما طوفت به على معارف الناس وآرائهم ، ينتهي الى حديث القنبلة الذرية ، بيد أن حديث الليلة ، انتهى إلى القنبلة الذرية ، ليكون مطية لتأمل فلسفي في منزلة العلم في العمران الحديث .

ولست أريد اليوم أن أنقل فحوى الحديث، ولكن لما قلت لصاحبي إن نفع العلم الحديث وضره، رهن بأخلاق الناس، هب من مكانه إلى جهاز في داره، وأدار زراً وقال : إليك مصداقاً لما تقول .

فقلت ما هذا ؟ فقال هذه لوحة التلفاز ، وكنت قد رأيتها من قبل فبرمت بما شاهدته عليها، ولكن ما رأيته الليلة أخذني. فهذا « طبيب الأسرة » ، يعرض مشهداً مع أعوان له ، وغرضه أن يعلم الناس بعض الحقائق الصحية الخاصة بالدرن الرئوي ، في تمثيل متقن وكلام منتقى يقع في النفس .

وهذا الطبيب ليس طبيباً حقاً ، بل هو ممثل يحسن تمثيل دور الطبيب ، وقد كتبوا له، ولمن معه الكلمات التي يتفوهون بها ، ووصفت لهم المشاهد التي يمثلونها، حتى لا تجد مأخذاً يؤخذ عليها من ناحيتي الفن والحقيقة .

أعجبت بما رأيت ، فهذه وسيلة لعلها من خيرة الوسائل

لتعليم جماهير الناس كل شيء ينفع، وإن كانوا من الأميين . فقد جمع العلم والصناعة بين الصوت والصورة ، جمعاً يكفل لمن يشاهدها ادراك أعوص الأمور، إن أحسن عرضها . وقد تتعدد المدارس في أمة ما ، فلا يؤمها سوى الذين في سن الطلب ، من الصغار الى الشباب ، وقد تتفاوت قدرة المدرسين فيها ، ولكن هذه المدرسة الشعبية التي تتيحها أساليب التلفزة الحديثة ، تستطيع أن تشمل كل من يريد أن يقتني جهازاً مستقلاً من أجهزة التلفزة ، أو يرضى أن يؤمّ مركزاً شعبياً فيه مثل هذا الجهاز فيجده هناك مقروناً بالأساليب التي تكبر صورة المشهد المذاع ، وتتيح للجماعة المتفرجة أفضل المعلمين .

أي أنها جمعت بين السينما والراديو .

تقصيت بعد ذلك، نواحي هذه التربية الصحية التي أعجبت بها، فعلمت أن طبيباً من الأطباء ، لم يزل منذ عهد الراديو الأول ، يشق الطريق للانتفاع بوسائل الاذاعة ، في نشر التربية الصحية . فلما صارت التلفزة متاحة عمد اليها ، فهي أجدى في تحقيق ما يريد ، لأنها تعلم عن طريق العين والأذن جميعاً ، وعلماء التربية يقولون إن ازدياد عدد الحواس المشتركة في تعلم أمر ما ، أكفل بتعلمه وتذكره ، فكأنهم نقلوا إلى ميدان التربية قول الشاعر العربي : «ألا فاسقني خمراً وقل لي هي الخمر» .

وقد عاونه في عمله هذا رجـــال السلطات الصحية وكليات الطب ، وبدأت إذاعة السلسلة الجديدة في أواخر ١٩٤٨ ولم يزل اثرهـــا النافع يزداد ، وإن كانت التلفزة التجارية للتسلية أغلب وأروج .

كل مشهد من المشاهـد التي تذاع ، هو في الواقـع رواية صحية قصيرة ، تمثـــل وتذاع على عشرات الألوف او مئات الألوف من الناس . خذ مثلاً على ذلك برنامج التلفزة الخـاص بالحمى التيفودية .

ترى الطبيب جالساً في عيادته ، وامامه الممرضة التي تعاونه. فتدخل عليه أم ومعها طفلها ، وقد جاءت من حي حدثت فيه في الأيام الأخيرة ، إصابات بالتيفود ، فالمشهد يبين للمشاهدين المستمعين ، كيف أفضت تنقية الماء وإغلاء الحليب الى درجة معينة ، والعناية بالمجاري ، وتنظيف الحضر ، الى محو لعنة التيفود من المدن الكبيرة ، ثم نشاهد كيف ينفع التلقيح في توليد المناعة أو زيادتها ، وفي هذا كله يمتزج تمثيل الطبيب والممرضة والأم بكلامهم وبرسوم بيانية في الحين بعد الحين ، على أن تكون الرسوم مبسطة ميسورة الفهم .

وعلى هذا النمط يستطيع الكتاب والمخرجون البارعون أن يستعينوا بكبار العلماء في التمهيد لعرض كل موضوع من

موضوعات الطب والصحة عرضاً بارعاً يستوقف النظر وينفع في تعليم الناس – كالدفتيريا والعناية بالحامل ورعاية الطفل أو ما تشاء .

وقد يعمد مدير البرنامج حيناً بعد حين الى الاستعانة بالأطباء ذوي الصيت الكبير والسمعة العالية ، للظهور في هذه المشاهد. فالفرق بين الراديو والتلفزة، أن الأول وسيلته الصوت، ولكن الثاني وسيلته الصوت والصورة معــا ، فهي تقدم مشاهد حية ناطقة ، فتنشأ كذلك صلة إنسانية وتجاوب نفسي بين المشاهـد المعروضة وبين الرجل الذي يراهـا ويسمعها ، ولذلك لن تجد بين يدي رجل في مشهد متلفز ، ورقاً يقرأ منه ، فذلك يوحي بالتكلف ، بل يجب أن يحفظ كل رجل وكل سيدة مـا عليه أن يقوله، ثم أن يراعي في قوله لهجته الطبيعية ، حتى يدخل في روع المشاهد أنه يرى مشهداً حقيقياً لا مشهداً ممثلاً .

والغرض من هذا البرنامج ، هو أن تزداد معرفة الجمهور بالحقائق والوسائل التي تعين مراعاتهـا على حفظ الصحة ، وتبين أعراض المرض وهي في أوائلها، والمبادرة الى العلاج. وأسلوب العرض يختلف بين بلد وبلد وفقاً للحاجة والبيئة، وما تحققه التلفزة في البرنامج الصحي يمكن تحقيقه في تعليم الناس أي شيء تريد .

ومن هنا التلفزة وخطرهــا . فالنفع مكفول إن أحسن

استعمالها لتعليم الناس ما ينفع ، وخطرها لا يعدله خطر ، إن أسيء استعمالها لبث الدعايات الهدامة ، فهي مثل آخر على ان نفع العلم الحديث وضره ، رهن بأخلاق الناس .

-٢-

أخذني العجب حين رأيت المجهر الكهيربي ، ولكن عجبي لم ينقضِ برؤيته . فقد التفت اليّ صاحبي ودليلي وقال : أسمعت بمعجزة « الألترافاكس » ؟ فقلت : وما هي ؟ ما معنى هذه الكلمة ؟ فقال : إنها كلمة جديدة، سوف يكون لها في المستقبل من الشأن ما للتلغراف والتلفون والراديو والتلفزة ، بل شأنها أعظم ، لأنها تجمع اهم مزاياها ثم تضيف إليها مزايا اخرى لا عهد لنا بها من قبل . إنها اسم لوسيلة مستحدثة ، تضافر عليها العلماء والباحثون في شركتنا وشركة كوداك، فاذا هي أحدث وأدق وأسرع وسيلة عرفها الناس، لنقل المخطوطات والمرسومات والمطبوعات. وأنت تعلم ولا ريب، أن في وسعنا أن ننقل الصور نقلاً لاسلكيًا ، وأن وسائل التلفزة تتيح لنا أن ننقل مشاهد الحوادث حين حدوثها ، فقلت : أعرف ذلك ، وقد رأيت

صوراً كثيرة نقلت ونشرت ولكنها لم تكن واضحة الوضوح المطلوب ، وقد شاهدت في دور الأصدقاء هنا وفي الفنادق والمطاعم لوحات التلفزة وعليها العاب رياضية تعرض ومسرحيات تمثل ، فكأنني ، في الملعب أشهد اللعب أو في المسرح أرى التمثيل . فقال : إن « الألترافاكس » يشأو هذه جميعا في دقته وسرعته . وقد جربنا في أواخر السنة الماضية تجربة نقلنا فيها ، فيما نقلنا، رواية « ذهب مع الريح » من الفها إلى يائها، في دقيقتين وإحدى وعشرين ثانية ، وهي كما تعلم من أطول الروايات ، صفحاتها في طبعتها الأولى تعد ١٠٤٧ ومجموع كلماتها ٤٧٥ الف كلمة . قال : وأعجب من ذلك أننا نستطيع ان نصور الشيء المنقول على التو ، فاذا هو أمامك في ثوان معدودات ، كأنه الأصل الذي نقل .

هذا هو الكلام المجنح، الذي ذكره هوميروس منذ قرون متطاولة ، وقد صار صوراً واضحة تراها رأي العين . فقد نفث مورس وبل قوة الكهرباء في الكلام فاذا هو ينقل نقطاً وخطوطاً أو كلاماً مألوفاً في أسلاك التلغراف والتلفون. وجاء مركوني وده فورست وأصحابهما فأعاروا الكلام أجنحة من موجات الأثير، فاذا هو يعبر القارات والمحيطات ، وتبعهم على الأثر بيرد والصباح وزوروكين ، فاذا المرئيات نفسها تتخذ من

الأمواج الخفية أجنحة تطير بها .

فوسيلة « ألترافاكس » تجمع بين النقل اللاسلكي والتلفزة والتصوير الضوئي السريع ، حتى ليصح أن تعد مستهل عهد جديد في المخاطبات بين البشر .

ووجوه الانتفاع بهـا لا تكاد تحصى . هذه حرب تدور رحاها ، وفي حجرة في ساحة القتال ، قائد فرقة يطيل النظر في الخريطة الحربية على مائدة أمامه ، وقد ظهر عليها مواقع قواته ومواقع أعدائه كما استطلعها وقدرهـا . وفي ناحية أخرى من الحجرة جهاز « ألترافاكس » للاستقبال . واذا ضوء يضيء في أعلى هذا الجهاز ، فيعلم قائد الفرقة أن رئيسه في مقر القيادة العامة للجيش ، عنده شيء يريد أن ينهيه اليه ، ولا تنقضي ثوان حتى ينطفىء الضوء الأحمر ، فيخرج الضابط من الجهاز صورة لخريطة حربية ، هي كالخريطة التي بين أيديهم ، ولكن القوات قد وزعت فيها على وجه جديد كما تريدها القيادة العامة أن توزع. وقد صنعوا الخريطة الجديدة في القيادة العامة ، ووكلوا بهـا جهاز « الترافاكس » للارسال ، فأرسلها فاذا عند قائد الفرقة في الميدان ، صورة منها كالأصل تماماً ، لاتحتمل الخطأ ولا التأويل، فقد استغنت القيادة عن خطر كل خطأ خليق أن يقع في حديث يدور بالتلفون، أو خطر تسقُّط العدو لما يدور في ذلك الحديث،

او خطر وقت يضاع في الاتصال التلفوني أو التلغرافي .

أو خذ مثلاً آخر : وقعت جريمة في مكان ما، فخف رجال الشرطة إلى البحث ، فوفقوا إلى بصمات يريدون أن يتحققوا من هو صاحبها ، أهي بصمات مجرم معروف ؟ وهم يعرفون أن في مقر الشرطة العام ، سجلاً وافياً لبصمات المجرمين والمشبوهين ، ففي وسعهم أن يرسلوا صورة تلك البصمة بوسيلة « ألترافاكس » الى مقر الشرطة العام ، فيقابلوها هناك على ما عندهم من بصمات المجرمين في السجل العـام ، فيكون ذلك معواناً على التحقيق .

وعلى هذا الغرار تنقل رسوم التصميمات الهندسية، وصفحات المؤلفات الموسيقية، وخرائط الأحوال الجوية، وتقارير الشركات المالية ، وصور المخطوطات القديمة ، فلا يقع خطأ في النقل ، ويتم ذلك كله بسرعة الضوء ، حتى لقد قيل إن هذه الوسيلة ، كفيلة بعد إتقانها ، بأن تنقل مقدار مليون كلمة في الدقيقة الواحدة . وقد كانت هيئة أركان الحرب الأميركية ، في وشنطن ، تتلقى كل يوم ما يقدر بعشرة ملايين كلمة من تقارير القتال ، ولو كانت وسيلة « ألترافاكس » متاحة لهم يومئذ لكان في الوسع نقـل هذا المقدار من الكلام في عشر دقائق ، ولو استعملوا عشر محطات ارسال وعشر محطات استقبال ، لاستطاعوا أن ينقلوا هذا القدر من الكلام في دقيقة واحدة .

ومبدا الوسيلة الجديدة ، غاية في البساطة ، فالتلفاز المرسل، يبعث في الأثير ثلاثين صورة متلاحقة في الثانية ، أي ان الثانية تجعل ثلاثين جزءاً فينقل الجهاز في كل جزء منها صورة كاملة تتبعها الأخرى على الأثر . فاذا كان المشهد الذي ينقل بالتلفاز المرسل مشهد ملاكمة أو مصارعة أوتمثيل ، أرسل الجهاز ثلاثين صورة متلاحقة في الثانية ، فترى على لوحة التلفاز المستقبل ، مشاهد الملاكمة أو المصارعة أو التمثيل، كأنها تدور امام عينيك. فإذا أحللت مكان كل صورة ، صفحة من كتاب أو صحيفة وكانت في الصفحة ٥٠٠ كلمة كان في وسعك أن ترسل ثلاثين صفحة في الثانية تحوي ١٥ ألف كلمة ، أي ٩٠٠٫٠٠٠ كلمة في الدقيقة . فاذا كان عندك في الجهاز المستقبل وسيلة ترسم هذه الصفحات المتتالية على فيلم يمكن تحميضه وتجفيفه في ثانية او أكثر قليلاً ، كان في وسعك أن تعرض أمام نظرك ، بالسرعة التي تريدها ، هذه الصفحات المتتالية ، بعد إرسالها بثوان وحسب .

وهذا هو ما يصنعه « ألترافاكس » تماماً .

ولدت وسيلة « الترافاكس » من أب هو العلم الكهربي ، وأم هي التصوير الضوئي ، وقد كانت الحرب العالمية الثانية مهدها .

ففي اثناء هذه الحرب ، اشتدت الحاجة ، الى نقل رسائل الجنود من أهلهم وأحبابهم نقلاً سريعاً، لأن وصولها من أسباب القوة المعنوية في نفوسهم . ولكن نقلها بالسفن بطيء ، ونقلها بالطائرات يستغرق مكاناً ووزناً تنوء به الطائرات المطلوبة لأعمال حربية كثيرة خطيرة الشأن . فابتكروا لنقلها وسيلة جديدة . فكانت الرسائل تكتب على ورق خاص ، من حجم معين ، ثم تمر من خلال جهاز صنع منذ ربع قرن – يدعى ريكورداك – فتصور مصغرة على فيلم عرضه ١٦ مليمتراً ، وكان في الوسع أن ترسم مئات من الرسائل أو ألوف على فيلم واحد ، ثم ينقل الفيلم بالطائرات فاذا التوفير في وزن ما ينقل ٩٩ في المئة . فاذا وصل الفيلم إلى طيته ، دفعه القائمون على أمره في جهاز خاص ، فتكبرّ الرسائل إلى حجمها الطبيعي ، وتصور على ورق يقص قصاً آليـًّا وتوزع كل رسالة على صاحبها .

ولكن إعداد الفيلم كان يستغرق زمناً لا يقل عن ساعة ، حتى يجف ويسهل لفه على بكرة ، ويصير صالحاً للنقل . وكانت ثمة ضرورات حربية ، تتصل بالانتفاع برادار ، وتقتضي طريقة جديدة لتحميض الفيلم وتجفيفه في ثوان قليلة ، فأمر العلماء بابتكارها فأكبوا عليها حتى تمت .

و « الترافاكس » هي في الواقع وسيلة تجمع بين التلفزة

والراديو، تضاف اليهما الطريقة الجديدة في تحضير الفيلم على أسرع وجه مستطاع .

هذه وسيلة جديدة لنقل المعرفة . أفيستطيع الانسان الذي يزداد معرفة على الأيام أن يزداد حكمة في الانتفاع بها على وجه لا ينتهي الى القضاء عليه ؟ هذا هو السؤال – على قول هملت – الذي يثيره كل ضرب جديد من ضروب التقدم العلمي العجيب.

الذرّة الكاشفة

لعلّ العين البشرية من أعجب الآلات التي ولدتها الطبيعة ، في دقة تركيبها وإرهاف إحساسها ، وحسن مطابقتها لقوة الضوء وضعفه ، ولكن ارتقاء العلم الحديث قضى بان تُمدّ آفاق العين البشرية ، وتُعزّز قدرتها على الابصار ، حتى يرى العالم ما تتعذّر رؤيته عليه بالعين المجرّدة فصُنع المرقب والمجهر ، للنفوذ إلى المتناهي في البعد من ناحية ، والمتناهي في الصغر من ناحية ، ثم صنعت وسائل جديدة غاية في الدقة والبراعة والاحكام ، كمصور

مقال نشر في مجلة « الآداب »

الطيف الذي يبيّن لك العناصر في جسم نجم من النجوم النائية ، ومصوّر الأشعة السينية الذي يكشف عن بعض ما يستتر عن العين في باطن الجسم ، وغرفة ولسون الغائمة ، التي تستطلع وتصوّر مسير الذرّات المؤيّنة وجسيماتها . وقد طلعت على أهل العلم منذ عهد قريب ، وسيلة جديدة هي « الذرّات الكاشفة » وهي ذرّات قد وسمت بميسم خاص ، وأرسلت في ثنايا الجسم ، سواء أجسم إنسان كان أم جسم حيوان أو نبات أو معدن ، فراحت تتجسس عليه وتستطلع خفاياه . وقد صارت هذه الذرّات ، وسيلة مجدية في علاج طائفة من الأمراض كانت قد استعصت على الجراحة والعقاقير ، ولكنّ نفعها من حيث هي معوان للعين والعقل على استطلاع أسرار الطبيعة ، وجدواها من حيث هي وسيلة جديدة للبحث أعظم وأبقى .

للطاقة الذرّية نفع في علوم الطب وفروعها وما يتصل بها من علوم الحياة. ففي السنوات الخمس الأخيرة من القرن التاسع عشر، تم للعلماء أربعة كشوف خطيرة كان أولها الأشعة السينية التي كشفها رنتجن ، وثانيها ظاهرة النشاط الاشعاعي التي كشفها بكريل، وثالثها كشف عنصر الراديوم – وقد كان نتيجة طبيعية لكشف بكريل – الذي تم لبيير كوري وزوجته . وكان رابعها كشف الكهيرب الذي تمّ لجوزف طمسن . ولم تكن

هذه الكشوف الاربعة أحداثاً خطيرة في تقدم علم الطبيعة ودراسة الذرة وحسب ، بل كانت أيضاً مراحل ذات شأن في تقدم علوم الطب والعلاج ، ولاسيا الثلاثة الاولى منها . ولست إخال أحداً ينكر أن للانتفاع بالاشعة السينية وأشعة الراديوم أثراً يذكر في وسائل العلاج الطبي الحديث ولا سيما السرطان . وأبلغ دليل على أثرها ومنزلتها ، أن صار بين علوم الطب علم جديد هو علم الأشعة والانتفاع بها في التشخيص والعلاج .

ومنذ عشرين سنة أو أقل قليلاً كشف العلماء كشفين خطيرين . أما الاول فهو النترون وأما الثاني فهو النشاط الاشعاعي المستحدث، أو النشاط الاشعاعي المصطنع. وللنترون شأن خطير في تركيب نواة الذرّة ثم في شطر نواة ذرة اليورانيوم والبلوتونيوم وإطلاق الطاقة الذرية . ولكن قبل أن يتم للعلماء الألمان شطر ذرة اليورانيوم تم لغيرهم في منتصف العقد الرابع من هذا القرن تحويل العناصر غير المشعة إلى عناصر مشعة . فقد وجدوا أن عناصر ساكنة مستقرة كالفضة والنحاس والكربون وغيرها — وهي أبعدما تكون في طبائعها عن عنصر دائم التفجر والانحلال كالراديوم — يمكن أن تهيجها فتصير عناصر مشعة . فكأنك اخذت مقعداً مشلولاً ونفخت فيه روحاً جديداً أو حقنته بعقار قوي فقفز من سريره وأصرّ على أن يشترك في

الألعاب الأولمبيـــة . والعناصر المشعة نادرة في الطبيعة ولذلك تراهـا غالية الثمن . وقد كان الغرام الواحد من الراديوم يباع بآلاف الجنيهات أو أكثر ، وكانت المستشفيـات تتنافس في سبيل الظفر بقليل منه، ويوم أرادت الأمة الاميركية أن تكرم مدام كوري اكتتبت بالمـال لشراء غرام وحسب من الراديوم وأهدته اليهـــا . فتحويل العناصر غير المشعة إلى عناصر أخرى مشعة خطوة عظيمة الشأن في دراسة طبيعة المادة . ولمـــا كان بعض العناصر له نفع طبي ، أو شأن في دراسة طبائع الأحياء ووظائف أنسجتها وما يجري فيها من تفاعل كيميائي ، فإن تحويل غير المشع منها إلى مشع خطوة عظيمة الشأن أيضاً في علوم الطب وما يتصل بها من علوم الحياة .

وهذا النفع لا يقتصر على استعمال هذه العناصر في العـلاج وحسب ، كالانتفاع بالصوديوم الذي استحدث فيـه النشاط الاشعاعي بدلاً مـن الراديوم . ويمتاز الصوديوم المشع عـــلى الراديوم ، بأن « نصف حياته » ، أي الزمن الذي يصبح فيـه إشعاعه نصف ما كان ، لا يزيد على ١٥ ساعة ، على حين أن « نصف حيـاة » الراديوم يبلغ ١٦٢٢ سنة . فـــلا خطر من الصوديوم المشع إذا استقر في أحد الاعضاء أو الانسجة ، أمـا الراديوم فاذا استقر ظل يطلق القذائف المنبعثة من انحلاله زمناً

طويلاً على الانسجة المختلفة ، فينتهي به الامر إلى إحداث الانحلال أو التسمم . ثم إن الصوديوم المشع لا يطلق إلا أشعة جا ، أما الراديوم فيطلق دقائق ألفا ، فاستعمال الصوديوم المشع في الطب أسهل وأقل خطراً من استعمال الراديوم .

وقد صنع العلماء قبل نشوب الحرب العالمية الثانية حتى سنة ١٩٤٠ ما يبلغ ٤٠٠ نظير مشع من نظائر العناصر المعروفة . وكثير من هذه النظائر له نفع في الطب والعلوم المتصلة به ولكن نفعه لا يقتصر على العلاج بل يتعداه إلى ما هو في نظري أجل شأناً من العلاج . فالذرات المشعة أصبحت الآن أداة نافعة في أيدي الرجال الذين يبحثون بحوثاً أصيلة في وظائف الأعضاء والأنسجة وما يجري فيها من تفاعل كيميائي في حالتي الصحة والمرض ، فهي كالمجهر والمرقب وغيرهما من الوسائل الجديدة للبحث تعين الباحث على أن يسبر أسراراً كانت مستكنة عنه في باطن الجسم الحي .

وأصل هذه الأداة يعود إلى كشف تم مصادفة في سنة ١٩١٣ ولم يأبه له غير نفر قليل من العلماء . فقد وجد باحثان أن الخواص الكيميائية لمادة راديوم (د) – وهي مادة مشعة – لا تختلف عن الخواص الكيميائية لعنصر الرصاص أي أن الأول نظير الثاني . فاذا مزج قليل من المادة الأولى مع كثير من

المادة الثانية تعذر بعد ذلك فصل إحداهما عن الأخرى بأية وسيلة كيميائية معروفة ، فأفضى هذا الكشف على مراحل متوالية إلى ابتكار الطريقة المعروفة باسم « الذرات الكاشفة » .
خذ مثلاً عنصراً كالصوديوم أو الحديد، واصنع منه نظيراً مشعاً – أي استحدث فيه الاشعاع فهو ليس بالعنصر المشع – ثم امزج قليلاً من ذرات هذا النظير المشع بكثير من ذراته المعهودة ، وأدخل هذا المزيج في أي مركب مثل كلوريد الصوديوم ، أي ملح الطعام، وضع هذا الملح في طعام فأر أو أرنب أو إنسان. ففي العادة لا تستطيع أن تعرف كثيراً عما يتم لهذا الملح متى دخل الجسم ، ولا أن تتبع مراحل تحوله ، ولكن الذرات المشعة التي دخلت في تركيب هذا الملح لا تلبث حتى تنمّ عليه أي تكشف وجوده في خلال سيره في الجسم ، ومن هنا أسماها الانكليز Tracer Atoms وخير ترجمة عربية لها فيما أعلم هي: «الذرات الكاشفة». ومثل الصوديوم المشع في ملح الطعام كمثل حوض من الماء ملأته حتى الشفة ، ثم صببت فيه ابريق ماء ، فيطغى الماء على حافة الحوض ، ولكنك لا تعلم أفي الماء الذي طغى وانصبّ شيء من ماء الابريق ؟ فاذا ملأت الابريق ماء احمر وصببته في الحوض ، صار في وسعك أن تتبين مسير الماء المحمر في الحوض الممتلىء . فجزيئات الماء التي خضبت بالأحمر هي كذرات الصوديوم المشع .

وعلى أن الانتفاع بالطـــاقة الذرية ممثلة في إشعاع الراديوم والنشاط الاشعاعي المستحدث كان معروفاً منذ أوائل العقـد الرابع من هذا القرن ، وقد أنقذ من الناس أكثر مـن الذين فتكت بهم قنبلة هيروشيما ، فان التطور الجديد في إطلاق الطاقة الذرية على النحو المعروف في الأفران الذرية ، قد زاده زيادة كبيرة وفرت النترونات المتولدة مـن اليورانيوم ، وهـــذه النترونات لازمة لتوليد النظائر في مقادير أكبر وأقـــل ثمناً ، فصارت فرص الانتفاع بهـا في البحث والعلاج أوفر وأجدى ، ولذلك نرى العلماء يعتقدون اليوم أن ما تم حتى الآن ليس سوى توطئة يسيرة لما ينتظر .

وأشهر الأمكنة لتوليد النظائر المشعة مـــن العناصر هي « معمل اوكريدج » في الولايات المتحدة الاميركية ، ومعمل « هارويل » في انكلترا ، وقد أنشىء أولهـــما في سنة ١٩٤٣ ، وجعـل توليد النظائر المشعة في أفران اليورانيوم فيه ، جزءاً أصيلاً من مهمته منـذ أيامه الأولى ، وكان عـــلى علمائه أن يستقصوا خواص هذه النظائر حتى يستطيعوا أن يوقوا العاملين في إنتاجها شر التعرض لها ، وأن يضعوا القواعد لقياس قوتهـا وضمان نقائهـا وحسن تعبئتها ، حتى تصير متاحة لمن يطلبها من معاهد البحث . وقد دأبوا على ذلك ، فلمـــا كانت سنة ١٩٤٦

أذاعوا أنه صار في وسعهم أن يزودوا معاهد البحث العلمي بمقادير وافرة منها ، ومنذ ذلك اليوم بعثوا بعشرة آلاف شحنة منها أو أكثر إلى معاهد في الولايات المتحدة وأخرى متفرقة في أربعين بلداً آخر أو نحوها . والثاني على غرار الأول .

وكل نظير مشع له قدرة معروفة على الاشعاع ، وإشعاع بعضها ضعيف تحجبه صحائف قليلة من الورق، وإشعاع بعض آخر منها وسط تحجبه رقائق من المعدن أو اللدائن ؛ وأما إشعاع البقية فقوي نافذ كالأشعة السينية والنترونات، ولا تحجبه سوى طبقة من الأبرق (الاسمنت المسلح) سمكها بضع أقدام أو لوح من الرصاص سمكه بضع بوصات .

والطلب على هذه النظائر المشعة كثير ، وأكثر الطلب على نظير اليود ١٣١ ، فعلى نظير الفصفور ٣٢ ، فعلى نظير الكربون ١٤ ، وقد بلغ عدد النظائر المشعة التي صنعت ووزعت على معاهد البحث مئة أو تزيد ، وبينها نظائر الصوديوم والكبريت والكلسيوم والكلور والنحاس والكوبلت والذهب والحديد والزئبق والفضة والقصدير والزنك .

وإذا أردت الاجمال فقد انتفع العلماء بهذه النظائر في دراسة تركيب الدم ومقدار الحديد الذي يحتاج اليه الجسم المعافى ،

ولِمَ يفقد الجسم مقداراً كبيراً من أملاحه بعد أن يصاب بأذى حاد ، وكيف تؤثر بعض العقاقير في الجسم المريض – بالبول السكري مثلاً ، وفي استطلاع أسرار ضروب من النوامي السرطانية وهكذا ، ومن أحدثها وأعظمها شأناً استطلاع السرطان في النخاع بواسطة الفصفور المشعّ .

وإذا طلبت شيئاً من التفصيل ، فلنذكر أن من أعجب التجارب التي تمت في هذا الصدد تجربة أجروها على ميناء أسنان الجرذان ، فقد وضعوا في اللبن فصفوراً يحتوي قليلاً من ذرات نظير مشع من نظائر الفصفور ثم قدّم اللبن للجرذان ، فتتبع العلماء سير هذا الفصفور في جسمها حتى استقر في ميناء أسنانها . أو خذ عنصر اليود، فهو من العناصر التي ولدت لها نظائر مشعة، فثبت أن نظير اليود المشع يغني عن الراديوم وعن مبضع الجراح في علاج النوامي السرطانية وبخاصة ما كان منها في الغدد الدرقية. ذلك بأن اليود المشع يسير بطبيعته بعد أن يدخل الجسم إلى مستودعه الرئيسي في الجسم وهو الغدة الدرقية ، فاذا بلغها جعلت الذرات المشعة تطلق إشعاعها الى حين ، فيفعل هذا الاشعاع فعل إبر مغروزة في الغدة تحتوي على مقدار من الراديوم .

ثم أن الذرات المشعة في مقدار ما من اليود أي « الذرات

الكاشفة » تمكن علماء وظائف الأعضاء والكيمياء الحيوية من أن يتتبعوا مسير اليود في الجسم ، فهو ينمّ على مسيره بما ينطلق منه من أمواج تُكشف وتحصى بأجهزة صارت شائعة – كجهاز « عداد جيجر » .

وقد وجدوا منذ بضع سنوات بواسطة الذرات الكاشفة من الفصفور المشع أن جرعة من الفصفور تتركز بعد تناولها في المراكز التي تولد الدم في الجسم فصار هذا الكشف أساساً لعلاج بعض أمراض الدم مثل اللوكيميا التي تطغى فيها كريات الدم البيض وتوصف أحياناً بـ « سرطان الدم » . وعلى أن الفصفور المشع ليس علاجاً ناجعاً في مرض اللوكيميا ، إلا أنه من الوسائل التي تفضي إلى تحسن الحالة. ولكن المواد المشعة التي كانت تولد في الجهاز الرحوي Cyclotron قبل أن صنع الفرن الذرّي ، كانت غالية تجعل كلفة العلاج الواحد في حدود مئة دولار ، فلما صارت الأفرن الذرية تولد النظائر المشعة هبطت الكلفة إلى ستة دولارات أو أقل. وقد استعمل المنغنيس المشع والذهب المشع في هذا الباب أيضاً ، والحديد المشع في دراسة فقر الدم. وعمد بعض الباحثين إلى محاولة استطلاع سرّ السرطان فتراهم يضيفون النظائر المشعة إلى شتى العقاقير والمواد كالهرمونات الجنسية وهرمونات قشرة الكظرين ويحقنون بها ، فتدلهم

الذرّات الكاشفة على أشياء كانوا يجهلونها عن تكاثر الخلايا تكاثراً طاغياً . وهذا التكاثر هو منبت السرطان .

وقد عمدت جماعة أخرى من العلمـــاء إلى الانتفاع بالنظائر المشعة وذراتها الكاشفة في التجسس على أسرار النبات، فاستعملوا الزنك المشع في دراسة موضوع الغذاء في النبات ، والكربون المشع في استطلاع التركيب الضوئي وهو كما تعلم ، عماد كل غـــذاء نباتي وحيواني في الطبيعة ، وفي تحديد تاريخ البقايا الكربونية التي ترتد إلي عصور موغلة في القدم، والكبريت المشع في استكشاف تركيب البنسلين ، والفصفور المشع في دراسة باشلس السل وكيف يدخل جسم الانسان وكيف يؤثر فيه .

آه، لو عقل الناس لوجدوا في الطاقة الذرية خيراً عميماً ، ولتوقوا شرها المدمر المهلك .

الانسان - ما هو؟

نظر الانسان الى جسمه فأخذه الزهو بانه سيد المخلوقات على سطح الأرض ، فلما ارتقت علوم الأحياء وجعل يقابل بين جسمه وأجسام الحيوانات الأخرى أدرك أن بينه وبين القردة آصرة قربى، ثم قابل بين جسمه وبعض المخترعات الحديثة ، فقال إن جسمه آلة تصنع الطاقة والحرارة ، أو أنه معمل كيميائي يركب المواد العجيبة التي تحفظ عليه الحياة والعافية ، أو أنه جهاز كهربائي يولد أمواجا بينها وبين الحياة والفكر صلة وثيقة.

مقال نشر في مجلة « الشهر » المصرية

ومنذ عهد غير بعيد قال الفيلسوف الانكليزي « برود » قولا ساخرا ظنه كفيلا بنسف دعوى أصحاب الفلسفة الآلية :

« لو أطلق رجل على أخيه أو هرته وصف آلة بارعة لعددتَ الرجل اما أحمق واما عالما من علماء وظائف الأعضاء! »

ولو تأخر الزمن به شيئاً قليلا لحشر علمـــاء الكهربائية الحيوانية وعلماء الكيمياء الحيوية وأنصار السلوكية من علماء النفس وغيرهم في زمرة الحمقى أو علماء وظائف الأعضاء !

ولكن الحقيقة التي لا مراء فيها أن جسم الانسان إذا نظرت إليه من ناحية خاصة وجدته كالمحرك الذي يولد الطاقة ، وهل الطعام سوى وقود ؟ وهل المعى سوى ضرب من الأفران التي تحيل الوقود إلى حرارة؟ فالطعام يتحول طاقة حرارة في الجسم، كما يتحول الفحم في الموقد ، ومن هنا مـا اتفق عليه العلماء من قياس قيمة الحرارة بوحدة أطلقوا عليهـا باللغات الأعجمية لفظ « كالوري » ونقلناها الى العربية بلفظ « سعر الحرارة » .

وقد تواضع العلماء على لفظ « التمثيل » لتأدية معنى استحالة بعض الطعام إلى طاقة حرارة وبعضه إلى مواد تدخـل في بناء الأنسجة . فأذا قيس معدل التمثيل في الجسم لاح الشبه الكبير بين الجسم والآلة. فقدر بعينه من السكر يولد من طاقة الحرارة

في الجسم ما يولده في فرن أحكم صنعه . والجسم يختزن وقود السكر في الكبد والعضل ، كما يختزن الفحم في حجرات خاصة في مصنع توليد الطاقة .

والشبه بين الجسم والآلة أدنى إلى التمام إذا كانت المقابلة بين الجسم ومحرك الاحتراق الداخلي ، فالخبز والزبد في الجسم يستحيلان إلى سكر ، والسكر يستحيل إلى كحول ، والكحول يتفجر في خلايا العضل ، فيعطيها الطاقة . وفي الجسم ملايين وملايين من الخلايا ، وكل منها تتلقى قدراً قليلاً جداً من الكحول ، فلا نستطيع أن نسمع التفجر الذي يتم فيها ، ولكن الجسم الحي يمضي على هذا المنوال ، كمحرك الاحتراق الداخلي الذي يتحرك ويحرك السيارة والطائرة بسلسلة التفجرات الصغيرة التي تتم في البنزين الذي يتلقاه . وكفاية الآلتين واحدة في الحالين أو تكاد ، وتبلغ نحو ٢٣ في المئة .

وفي وسعك أن تمضي في دراسة الشبه بين الجسم والآلة إذا نظرت إليهما كما ينظر المهندس ، فالفكان ليسا سوى كماشة قوية يطبق شقاها على ما بينهما فيطحنانه طحناً ، والعضلات مبسوطة على العظام بحيث تستطيع أن تدفع وأن تشد ، والرئتان كالمنفاخ ، ولكنهما يدفعان الأكسجين في الدم ولا ينفخانه على نار موقدة حتى يزداد سعيرها ، ومفاصل الذراعين والفخذين

وغيرهمـــا كمفاصل هذه الأذرع التي تتحرك في المصانع فترفع وتخفض وتقبض براثنها وترخيها ، والقلب مضخة لا تدانيهـــا مضخة أخرى صنعت ، ولكنه مضخة على كل حال .

يبلغ الشبه ذروته بين الجسم والآلة فيما صنعه الدكتور كاريل الذي أخذ غدة ووضعها في وسط مناسب يوقيها خطر الجراثيم ، وحفظ الحياة نابضة فيها بجهاز كالمضخة يدفع فيهـا سائلاً مغذياً . وتعهد عالم آخر كتلة من نخاع العظام بجهاز كان للنخاع في منزلة الرئتين والكليتين والدورة الدموية . وقد صنعت كلى صناعية تستطيع أن تنقي الدم من الأوضار العضوية التي تشوبه حين عجزت الكليتان الطبيعيتان المريضتـــان . واستطاع غيرهم أن يرفع عن القلب عبء عمله فترة ما حتى يستريح ، مستعيناً على ذلك بجهاز ميكانيكي يفعل فعل القلب في دفع الدم في الشرايين .

كشفت ظاهرة النشاط الكهربائي في أدمغة الحيوانات سنة ١٨٧٥ ، ولكن دراستها دراسة منتظمة تجريبية ترجع إلى سنة ١٩٢٩ ، ففي تلك السنة أخذ العالم الألماني هانس برجر سلكين ووضعهما على صدغي رجل ووصلها بأنبوب مفرغ يقوي التيارات الكهربائية الضعيفة ويضخمهـــا ، فوجد التيارات المنطلقة من الجمجمة يمكن تدوينها ، بعد تضخيمها ، بريشة على لوحة منسابة ،

فتبدو لها حركة موجية منتظمة معقدة .

ويرجح الباحثون أن هذه التيارات الكهربائية ، التي تضخم وتدوّن صورة أمواجهـــا على الورق المناسب ، تنشأ في خلايا قشرة المخ ، حيث تتم أعمال التفكير المبدع التي لم تزل محجبة بستر الجهل ، ولكن الأجهزة الجديدة التي استنبطت للايغال في دراسة موضوع الكهربائية في المخ قد تفضي إلى تقدم خطير في فهم الجهاز العصبي على نحو ما تم من التقدم في دراسة التشريح المرضي والجراثيم بعد ما صنع المجهر .

وقد صنع جهاز أطلقوا عليه اسم «مصورة الكهرباء في المخ» يوضع قطباه الكهربائيان على منطقتين مختلفتين من فروة الرأس ، فيتبين الباحث تياراً كهربائياً سارياً في المخ . وفي جامعة هارفرد حجرة خاصة لهذه التجربة ، وقد وضع فيهـا مقعد وثير يستلقي عليه الرجل حتى اذا بدأت التجربة كان مستريح الجسم ناعم البال . وهذا لا غنى عنه لأن صورة التيار الكهربائي الصادر من مخه تختلف في النوم عنها في اليقظة ، وفي حالة الاضطراب وانشغال البال عنهـــا في أثناء الراحة . فاذا استلقى المرء على المقعد ، ووضع القطبان الكهربائيان ملامسين لفروته ، أمر أن يضرب ١٨ في ١٣ مثلاً ، فلا يكاد يشرع في إجهاد عقله بالضرب حتى يتغير انتظام الأمواج . وفي الحالة الثانية تكون الأمواج

اقصر وأسرع توالياً منها في الأولى ، فكأن حشد الدماغ لقدرته الواعية وإقباله على التفكير في معضلة معروضة عليه يؤثران في التيار الصادر منه . وتدوم هذه الحالة بضع ثوان ، ثم تعود صورة الأمواج إلى ما كانت عليه في حالة الراحة . وبعد قليل تضطرب الابرة ثانية فتقصر الأمواج . ويسرع تواليها كأن الدماغ قد عاد الى نشاطه ، والواقع أنه عاد إلى نشاطه ، فقد سئل الرجل في ذلك، فقال إنه بعد ما ضرب العددين ارتاح إلى إنجاز المهمة، ثم عاد فاضطرب اذ خطر له أن الجواب قد يكون خطأ فأعاد الكرة على عملية الضرب .

وقد درست حالة الأمواج الصادرة من المخ في أحوال شتى من اليقظة والنوم ، فثبت أن ما يصدر منه خلال النوم ثلاثة أنواع من الأمواج : الأول أمواج منتظمة السياق تصدر منه في حالي اليقظة والنوم الخفيف المتقطع ، والثاني أمواج تدل آثارها على أنها نتيجة نشاط يشتد فجأة ثم يخبو فجأة ، والثالث أمواج تظهر في حال النوم العميق وهي غير منتظمة في ظهورها وشكلها. ومن أغرب ما تبينوه أن الانتقال من تسجيل الأمواج من النوع الثالث إلى تسجيل الأمواج من الضرب الأول يحدث بمجرد التحدث مع النائم ، ولكن الأصوات الرتيبة التي تعودتها الأذن كصوت مرور قطار أو بوق سياره لا تسبب هذا الانتقال .

وهذه المباحث الطريفة ذات جدوى في التشخيص أو العلاج . فقد ظهر أن هناك صلة بينة بين الظاهرات الكهربائية في الدماغ وبين الاصابة بداء الصرع ، وأن نوبة الصرع يصحبها نوع معين من الأمواج ، وأنه قبل حدوث النوبة تظهر أمواج منذرة بقرب حدوثها ، وهي تسبق ظهور الأعراض الجسمانية الظاهرة. ولضبط البحث أخذ هؤلاء المجربون اثني عشر رجلاً سليماً ونشقوهم النتروجين حتى أشرفوا على الاغماء ، وسجلوا الأمواج الصادرة عن المخ خلال ذلك فوجدوها تشبه في بعض خواصها الأمواج الصادرة عن أمخاخ المصروعين أو المشرفين على نوبة الصرع. وقد نوعت هذه التجربة تنويعاً كثيراً ، فكانت النتيجة واحدة تقريباً في جميع الأحوال .

وقد تستعمل هذه الأمواج لتشخيص علة خفيفة ، فهذا رجل معافى إلا أنه يخطىء الحساب في أمور بسيطة من أمور الحياة مع أنه تعود ضبط الحساب ، ففحص بالمصورة الكهربائية للمخ فوجد أن صورة الأمواج الصادرة عن مخه تختلف عن صورة الأمواج الصادرة عن مخ سليم. فاشتبه الأطباء في وجود خراج في الدماغ ، فانصرفوا إلى التدقيق في البحث على ضوء هذا الاشتباه ، ثم أجروا جراحة ، فوجدوا الخراج ، واستأصلوه ، وعاد الرجل سليماً . وهذا عامل شكا العمى ، وظن أنه متعام،

ففحص، فثبت ان الأمواج الصادرة عن دماغه هي الأمواج التي تصدر عن دماغ أصيبت بعض مراكزه بآفة .

احقن في تيار الدم قليلاً من مادة غريبة ، من لقاح أو مصل ، فماذا ترى؟ لا يكاد ينقضي على الحقن زمن قصير حتى يهب الجسم معبئاً جنده للدفاع عنه والقضـــاء على الغزاة الذين انتهكوا حرمته ، والأسلحة التي يستعين بها الجسم هي مواد كيميائية يصنعها هو ويدخرها لمثل هذه المعركة . ومن هذه الأجسام المضادة مـادة تدعى « أوبسونين » تجعل الجراثيم الغازية طيبة المذاق فتلتهمها اللواهم في الدم ، ومنهـــا مادة أخرى تدعى « أجلوتينين » ، مهمتها أن تجعل الجراثيم الغازية كتلاً كتلاً حتى يسهل على اللواهم أن تلتهم منها مقادير كبيرة في وقت ما .

وليست هذه المواد الكيميائية هي كل ما يصنعه هذا المعمل الكيميائي الذي هو جسم الانسان ، بل هو يصنع اصنافـــاً كثيرة متباينة منها ، لا غنى عنهـا في الصحة والمرض ، وفي طليعتها الأتوار (الهرمونات) التي تفرزها الغدد الصم في الجسم ، والأنزيمات التي تحول مادة كيميائية الى أخرى، والفيتامينات.

خذ الدم مثلاً على ذلك ، فالدم في حالته السوية قلوي بعض القلوية ، فاذا مال به الميزان قليلاً إلى الحموضة أسفر عن الغيبوبة والموت ، وإذا مـــال به إلى درجة من القلوية أعلى من درجته

المعتادة أسفر عن إصابة الجسم بالتشنج . ومقدار السكر في الدم يجب أن يكون في حدود دقيقة لا يتعداها زيادة أو نقصاً ، فاذا نقص عن المقدار السوي في نطاق هـــذه الحدود أصيب صاحبه بالتشنج والغيبوبة ، واذا زاد كانت العاقبة وبيلة كذلك ، ولذلك جهزت الطبيعة الجسم البشري بوسيلة تمكنه مـن إزالة الفائض من سكر الدم عن طريق الكليتين عندما تقتضي الحاجة ذلك . وفي أثنـاء الرياضة العنيفة تولد العضلات مركبات حمضية سامة وينقص سكر الدم . ومـع ذلك فالذين يمارسون هذا الضرب من الرياضة لا يصابون بالتشنج ولا بالغيبوبة مع نقص السكر في دمهم عن معدله السوي ، ولكنهم يلهثون ويزداد خفقان قلوبهم ، فيزداد ما ينقله الدم الى الأنسجة من أكسجين نقي فيحرق هذه النفايات الحمضية التي تولدهـــا العضلات . وفي الوقت نفسه يحول النشاء المخزون في الكبد إلى سكر فيعوض الدم ما خسره منه ، ويعود التوازن إلى حالته الطبيعية .

أبين يدي الانسان معمل كيميائي أدنى إلى تلبية الطالب في التحول الكيميائي من هذا ؟

وفي الجسم غدد صم كثيرة تفرز مفرزاتها (الأنوار) في الدم مباشرة ، ثم يوزعهـا الدم على أعضاء الجسم وأنسجته ، وبعض هذه الأنوار ينتقل من غدة صماء إلى أخرى ، فيحركها ويحملها

على إفراز تورها أو أتوارهـا . وهي جميعا تضبط افعال الجسم الحيوية ضبطاً دقيقاً . والدليل على ذلك مـا يصاب به الجسم عندما يضطرب إفراز غدة منها فيفوق المعدل أو ينقص عنه .

أرأيت إلى أبله مهزو الرأس زائغ البصر مندلع اللسان ؟ إن الفرق بينه وبين الرجل العاقل السوي قد يكون جزءاً من ألف جزء من الأوقية من الثيروكسين ، وهو التور (الهرمون) الذي تفرزه الغدة الدرقية القائمة على جانبي الحلق . وقد يولد أطفال وغددهم الدرقية عاجزة عن توليد المقدار الوافي من الثيروكسين ، فتبدو عليهم أعراض البله ، على تفاوت بينهم. فإذا غذوا في طفولتهم الأولى بالثيروكسين أو بالغدد الدرقية المجففة المستأصلة من بعض الحيوانات تغلبوا على أعراض البله وبدت عليهم أمائر النشاط والذكاء. وهذا التحسن في حالهم يدوم ما دامت المعالجة.

ومن الغدد التي تتصف بأوصاف عجيبة الغدة النخامية الواقعة داخل الجمجمة في قفـا الرأس ، فهي تسيطر على النمو ، فاذا نقص مقدار ما تفرزه من أحد أتوارها كان صاحبها قزماً ، وإذا زاد كان مارداً . ولكن الغدة النخامية لها بين وظائفها الكثيرة وظيفة أخرى متصلة بما اصطلحنا على وصفه بقولنا « حب الأمومة » ، فعندما تلد الأم يزداد ما يفرز من أحد أتوار الغدة النخامية فيهـا ، فيولد في الأم عاطفة الحدب على وليدهـا ،

فتضحي بكل شيء حتى بحياتها لحماية هذا الوليد . وقد أثبتت هذه الحقيقة بشتى الأساليب ، ومن أشهر التجارب التي جربت حقن مقادير كبيرة من هذا التور الخاص في اناث لم يبلغن سن الولادة أو تحطينها ، فتولدت فيهن هذه العاطفة القوية ، حتى الذكور الذين يحقنون – للتجربة – بهذا التور تظهر عليهم هذه الصفات. وقد أجريت هذه التجربة على فرخة لم تبلغ سن البيض بعد فبدت عليها صفات الأم الولود ، كما أجريت على دجاجة تخطت سن البيض وحضنه فبدت عليها هذه الصفات كذلك .

ويبدو أن مفرزات الغدد الصم ولا سيما مفرزات الغدة النخامية – وهي عديدة – تسيطر على أفعال الانسان والحيوان المتغيرة بتغيرالفصول، فحين كتب تنيسون الشاعر قولهالمشهور في قصيدة لوكسلي هول: «في الربيع يتجه خيال الشاب الى الحب» أفرغ في بيت من الشعر الرقيق قول العلم الحديث بأن إفراز أحد مفرزات الغدة النخامية يزداد في الربيع فيؤثر في إفراز التسترون وغيره من الأتوار الخاصة بالحياة الجنسية .

أما الأنزيمات فمن مكتشفات العصر الحديث، مع أن تأثيرها من الحقائق القديمة المعروفة ، وقد استخرج العلماء عشرات منها ، واستفردوا طائفة في قالب مبلور ، وهي تفعل فعلها بمادة كيميائية ما فتحولها إلى أخرى بغير أن يطرأ تغير على الأنزيم

نفسه ، فكأنها في علم الأحياء في منزلة الوسيط الكيميائي في الكيمياء غير العضوية . وبعض عملها في الجسم أنها تؤثر في مواد الطعام فتحولها إلى المواد الكيميائية التي يحتاج إليها الجسم، ولا تصنع منها سوى المقادير المطلوبة، ويفرز الجسم ما يتبقى من الطعام.

والطائفة الثالثة من المواد الكيميائية الحيوية في الجسم هي طائفة الفيتامينات ، وهي لازمة لنمو الجسم البشري نمواً سوياً. ونقص أحد هذه الفيتامينات يفضي إلى مرض من أمراض كثيرة تصيب الجسم ، ومنها بعض اضطرابات الأمعاء والأسكربوط والكساح والهبوط العقلي الحاد والنزف ونوع من الشلل والتهاب الأعصاب والبلاجرا ، والعقم أيضاً . وقد تأكل من الطعام الشهي ما تشاء ، وقد تحس بالشبع أو بالتخمة ، فإن لم يكن الطعام محتوياً على الفيتامينات فبدنك مصاب بجوع حقيقي وإن كنت شبعان. وصحيح أن الجسم يتناول الفيتامينات من مواد الطعام ، ولكنه يركب بعضها في أحوال معينة ، ويحيل البعض الآخر إلي شكل ييسر على الجسم أن ينتفع به .

هل جسم الانسان آلة ؟ هل هو معمل كيميائي ؟ هل هو مولد كهربائي ؟

هو كل هذا وأكثر منه . فأسرار الحياة والروح والعقل لا يزال معظمها محجوباً عن أنظارنا .

ثروة في دقيقة

إذا كنت طالب ثروة على عجل ، فخل عنك « الوقوف في دار مية » فلن تجد في هذا الفصل وصفة تنيلك ما تريد في أقصر زمن وأيسر جهد — برغم العنوان ! ولو كانت الثروة تنال على هذا المنوال لفقدت بريقها وقيمتها . والثروة هنا ليست مالاً تودعه في خزانة، بل هي علم وعمل دائب وإنتاج، وسلع يستعين بها الناس على حسن العيش ، سلع لم يكن لها وجود ، فاذا العالِم يخلقها ، والصانع يصنعها ويشيعها ، وإذا الناس يقبلون عليها . والدقيقة ليست قطعة من الوقت ، وقد قالوا إن الوقت

مقال نشر في مجلة « اهل النفط »

من ذهب وأنا أقول إن الذهب يذهب ويجيء ، هو في جيبي اليوم ، وفي جيبك غداً . ولكن الدقيقة التي تمر ولا ننتفع بها تذهب إلى جوف الزمن ولن تعود، فكلانا خاسر... أما الدقيقة المقصودة في هذا المقال ، فهي قطعة من مادة لم يكن لها شأن منذ قرن من الزمان أو أقل ، فاذا هي اليوم محور الصناعة والنقل والسياسة والقوة ، وقد تدول دولة هذه المادة العجيبة ، فتغيض ينابيعها أو تحل محلها مصادر أخرى للطاقة المحركة ، ولكن القليل منها يظل معيناً غزيراً يستخرج العلماء من دقائقه - جزيئاته في عرف الكيميائيين - ثروة تكاد لا تحد .

نفذ الكيميائي في هذا العصر إلى طائفة كبيرة خطيرة من أسرار تركيب المواد ، فعرف أولاً انواع العناصر التي تتألف منها المواد المركبة ، وأرسى التحليل الكيميائي على قواعد ، فتبين مثلاً - وهذا أبسط مثل - أن الماء مؤلف من عنصري الايدروجين والاكسجين ، وأن ملح الطعام مؤلف من عنصري الكلور والصوديوم ، وهذا هو التحليل النوعي . ثم تقدم خطوة أخرى فعرف المقادير التي تدخل من كل عنصر في تأليف مادة مركبة ما ، فتبين أن الماء مؤلف من قدرين من الايدروجين وقدر واحد من الاكسجين ، وأن ملح الطعام مؤلف من قدرين متساويين من عنصري الكلور والصوديوم ،

وهذا هو مبدأ التحليل الكمي ، ثم تقدم مرحلة اخرى في البحث عن السر فعرف ترتيب الذرّات في جزيئات عدد كبير من المواد ، البسيطة والمعقدة ، متصوراً أن لكل ذرّة ذراعاً أو أكثر من ذراع تتماسك بها الذرات لتأليف الجزيئات ، فجزيء الماء مؤلف — على تصورهم — من ذرة أكسجين لها ذراعان تمسك بهما ذرّة إيدروجين من ناحية ، وذرة إيدروجين أخرى من ناحية . وأخيراً صار في وسعه أن يفكك بعض الجزيئات، ومنها ما هو ضخم معقد مؤلف من مئات من الذرات ثم يعيد تركيبها على وجه يراه ، أو يحذف من الجزيء ذرّة أو ذرّات أو يضيف اليه ذرّة أو ذرات أو يضم طائفة من الذرات بعضها إلى بعض، فاذا هو قد استحدث مادة جديدة لا عهد للناس بها من قبل ، أو كانت نادرة فجعلها بما فعل مألوفة وافرة .

فالكيميائي الذي يغير معالم الجزيئات بالتفكيك والتركيب، أو بالحذف أو بالاضافة ، أو بضم الجزيئات بعضها إلى بعض حتى تصير سلاسل طويلة ، يشبه بعض الشبه الخياط الذي يأخذ قطعة من القماش ، فيقصها قطعاً مختلفة الشكل متفاوتة الحجم ، ثم يعيد تأليفها بالخياطة ، فاذا هي أثواب متباينة ، توافق صاحبها ، سواء أبديناً كان أم نحيفاً، وقصيراً أم طويلاً، وذكراً أم أنثى.

وكل من يزور مصفاة من مصافي النفط ، يلفي نفسه ذارعاً

شارعا بعد شارع ، تقوم على جوانبها ، أجهزة متراصة ، مختلف اشكالها ، تحير العين والعقل ، من أساطين دقيقية كالمنائر ، إلى أسطوانات ربعة جاثمة على الارض كأنها بروج ، إلى خزانات شكل كل منها كشكل كرة قطم ربعها الاسفل ، ودهنت بدهان كالفضة ، إلى أبراج عالية صنعت من عمد متشابكة من الفولاذ ، إلى أنابيب دقيقة وأخرى ضخمة تسير متحـــاذية على سطح الارض ، وتلتوي هنا وهناك مجاراة لغرض أو آخر من الاغراض المتعددة التي يطلبها الناس ، فتلبيهـا ذخائر لا حد لها تستخرج من دقائق هـذا السائل العجيب الذي يسمونه النفط .

تم أكبر ظفر للكيميائي الحديث، الذي أغار على الطبيعة في عرينها ، في مادة قطران الفحم التي تتخلف عن الفحم الحجري بعد إحمائه في إناء مقفل . وهي كثيفة لزجة سوداء اللون كريهة الرائحة ، كانت تنبذ نبذ النواة لا خير فيهـا ، ولكن العبقرية الكيميائية ، استشفت في هـــذا القطران ، مصدراً زاخراً بمركبات ، ليست هي عجيبة في حد ذاتهـا . ولكن في الوسع أن تصنع منها مواد عجيبة ، بعضها يباري مـا تبدعه الطبيعة وبعضها ليس له وجود في الطبيعة على مـا يعلم . وكذلك صنع رجال الكيمياء من هذا القطران اصباغاً زاهية اللون ، ثابتة لا تنصـــل ، ومتفجرات تجدي في السلم ، وتدمر في الحرب ،

وعطوراً تباري ارواح الورد والبنفسج والقرنفل ، وعقاقير نافعة كالاسبرين، ولعل اشهرها هو عقار السلفا الذي تبينه العالم الالماني دوماك ، قبيل الحرب العالمية الثانية ، في صبغ برتقالي اللون ، هو صبغ البرونتوزيل المستخرج من قطران الفحم الحجري .

وقد ظل قطران الفحم الحجري أزخر المصادر بأصول المواد الجديدة حتى ارتقت صناعة النفط وتبين علماؤه والباحثون في كيميائه أن دقائقه أي جزيئات المواد الايدرو كربونية في النفط الخام ، هي أغنى مصدراً وأزخر من قطران الفحم الحجري ، ولا غرو ، فبين المادتين صلة نسب عريقة ، فالقطران متخلف من الفحم الذي تكوّن في عصور متغلغلة في القدم ، من نبات قبر في جوف الارض ، وجاءت عليه القرون بالحرارة والضغط والزمن فحولته إلى فحم ، والنفط تكوّن في أغلب الرأي من مواد عضوية نباتية وحيوانية ، قبرت في جوف الارض وجاءت عليهـــا القرون بالحرارة والضغط والزمن فتحولت إلى نفط ، والايدروجين والكربون فيهما جميعاً هما العنصران الاصيلان .

نعم إن النفط طُلب أول مـــا طلب في النصف الثاني من القرن الاخير من أجل المواد التي تستعمل في الاضاءة والطبخ ثم من أجـــل المواد التي تحرك محركات السيارة والطائرة أو التي تحرك قاطرة ديزل أو مولدات الطـاقة الكهربائية أو السفن التي

تمخر البحار ، ولا يزال الجانب الاكبر من النفط الخام الذي يستخرج كل سنة ، يستعمل في هذه الاغراض أو ما كان على غرارها ، ففي استعماله إكفاء لجانب كبير مما يحتاج اليه العالم الحديث ، من أسباب الطاقة المحركة التي تطرد حاجة العمران إليها .

ما كاد أهل النفط يدركون ما تنطوي عليه مركباته ، من أصول مواد جديدة نافعة ، حتى أغدقوا المال على رجال البحث الكيميائي لكي يشقوا الطريق ويكشفوا الحجاب بعلمهم ، ويخرجوا للعالم ببراعتهم ، مواد يحتاج الناس إليها ، أو مواد لم يعهدها الناس ، ولكنها تسدي اليهم يداً في حياتهم وعمرانهم .

وقد توسل هؤلاء الرجال بأساليب التفكيك والتركيب ، والحذف والاضافة والضم في الكيمياء الحديثة فاستطاعوا أن يحدثوا في جزيئات المواد الايدروكربونية المختلفة تعديلات كثيرة فأنشأوا صناعة جديدة يطرد نموها ، هي صناعة المواد الكيميائية المستخرجة من النفط (Petro-Chemicals) وقد وفقوا إلى صنع مئات من هذه المواد النافعة — صنعوا مطاطاً أو مواد كالمطاط تفوق المطاط الطبيعي في كثير من خواصها ، وأدهاناً يطلى بها الخشب والحديد ، والمادة الحمراء التي تلون بها شفاه الغواني ، واسبرينا يخفف ألم الصداع ، و « نوجولا » يلين المعى ، وجوارب وقمصاناً وأثواباً وستائر من « النايلون » ،

و«جليسريناً» يصنع منه الصابون ، ولدائن «بلاستيك» تصنع منها أقلام الحبر وأكر الأبواب والفناجين والصواني وأشياء أخرى لا تحصى ، ومطهرات تقتل الجراثيم ، ومبيدات للحشرات وللأعشاب الضارة ، ومواد التطرية التي لا تستغني عنها الحسان .

وكل ما تقبل عليه الحسان خليق أن يكون ميدانا لنشاط المبتكر والصانع والتاجر . فالنساء نصف سكان الارض أو اكثر من النصف ، ولو حذفت من البيت الحديث جميع المواد المصنوعة أو المستخرجة من دقائق النفط لافتقدت ربته أكثر ما تألفه فيه – المشمع الذي تغطي فيه ارض بعض الغرف وموائد المطبخ ، والدهان الذي تدهن به الجدران والخزائن أو سور الحديقة ، والمحلول المطهر الذي تمسّ به داخل أنفها أو أنف طفلها عندما تبدو بوادر الزكام ، والمطريات التي تطري بها جلدها قبل النوم وبعد اليقظة ، ورذاذ د.د.ت. الذي تقتل به الذباب والبعوض والصراصير ، والمشط الذي تمشط به شعرها ، حتى الصحيفة التي تطالعها في الصباح تنبسط امامها صفحة بيضاء ، لأن حبر المطابع يحتاج الى مادة تستخرج من النفط هي «أسود الكربون» ، فاذا تحولت إلى جهاز الراديو ، رأته عارياً أمامها ، مؤلفاً من أسلاك وصمامات فالصندوق الذي يوضع فيه الجهاز ، والازرار التي تديرها ، تصنع الآن على الاكثر من لدائن ،

مردّهـــا إلى دقائق هذا النفط العجيب ، فاذا هممّت بالخروج والسماء تنذر بمطر ، بحثت عن المعطف الذي يقيها من الرذاذ فلا تجده ، فهو أيضاً مصنوع من النفط .

في اوائــل الربع الثاني من القرن التاسع عشر ، أحدث الكيميائي الالماني ، وهلر ، انقلاباً في علم الكيمياء العضوية ، يوم ركب من مواد غير عضوية مـادة « اليوريا » التي توجد في الدم والبول، فكان ذلك إيذاناً بفاتحة عصر جديد في علم الكيمياء وقد اطرد هذا التقدم وتعددت أبوابه فلمـــا استخرج بركن الانكليزي أصباغاً زاهية من قطران الفحم الحجري خطا علم التركيب الكيميائي خطوة كبيرة نحو الذروة ، ولكنه لم يوف عليهـا حتى ثبت أن دقائق النفط أو جزيئاته هي خزان لا ينفد لمواد يركب منها ما ذكرنا بعضه وحسب، من الاشياء النافعة. فهذا علم ينافس الطبيعة ويكملها في آن واحد ، ولو كان العقل سيداً مطاعاً لكان في وسع الناس أن يستعينوا به أتم استعانة ، فيحلوا البحبوحة محل العوز ، والصحة محل المرض ، والرضى محل السخط ، والطمأنينة محل الخوف والاضطراب ، والتعاون على الخير محل تخاصم ينذر بالشر المستطير .

ربة التاريخ تهز إصبعها

نعيش اليوم في عصر ، تغيرت فيه موازين الحياة ومعايير الاشياء . فقد دعيت في الشتاء الماضي الى مشاهدة فلم يعرض عرضاً روائياً ، ولكنه عرض دقيق ، مشكلة الطائرات التي يحاول اصحابها أن يدفعوها بسرعة تفوق سرعة الصوت . ولا أزال أذكر مشهداً من مشاهد الفلم استغرق ثانية أو أكثر قليلاً ، وقع في نفسي ، فحملني على التفكير في ملابساته ، فقد ركب أحد ابطال القصة طائرة مع عروسه ، ليمتحن سرعتها

حديث أذيع من محطة الشرق الادنى .

ليعلم أهي قريبة من سرعة الصوت ، وطار من لندن قاصداً إلى القاهرة . فلما كانت الطائرة فوق باريس ، قال الطيار لعروسه ها هي ذي قوس النصر تحتنا، فانتفضت عروسه وقالت: أين؟ فرمى الطيار بصره الى أمام وقال : هذه قمم جبال الألب ، نوشك أن نتخطاها .

ومع ذلك ، فانا أذكر يومـــاً في القاهرة منذ ربع قرن ، مرت فيه الطائرة الأولى من لندن إلى بومباي مفتتحة خطا جوياً منتظماً بينهما ، فاستغرقت رحلتها ثلاثة أيام وبعض يوم ، وقبل ذلك أذكر أن دانيـــال بلس مؤسس الجامعة الاميركية في بيروت ، قطع منذ تسعين سنة المسافة بين بيروت ونيويورك ، في خمسين يوماً على سفينة شراعية ، وأنا قطعتها منذ سنتين في أقل من ثلاثين ساعة بطائرة ذات محركات ، ولو ركبت اليوم الطائرة النفاثة إلى لندن ، وأخرى من لندن إلى نيويورك لكان في وسعي أن أقطعهـــا في أربع عشرة ساعة أو أقل ، متوقفاً ساعة في رومـا ، وساعتين في لندن للراحة أو للتزود بالوقود ، أو لتغيير الطائرة .

ويوم وضـع الدستور الاميركي ، في أواخر القرن الثامن عشر ، التزم وأضعوه فترة أربعة أشهر تنقضي بين انتخـــاب ناخبي الرئيس ، ووصول الناخبين من ولاياتهم المختلفة إلى العاصمة

لاختيار الرئيس ، فالسبيل الوحيدة لقطع المسافة كانت صهوات الجياد أو عربات تجرهـا الجياد ، ولذلك نصوا على أن الرئيس ينتخب في تشرين الثاني (نوفمبر) ، ولا يتسلم زمام الرئاسة قبل آذار (مارس) ، ثم قدموا الموعد إلى كانون الثـاني (يناير) . ووسيلة الانتقال هـذه التي كانت أسرع وسيلة معروفة في آخر القرن الثامن عشر ، كانت هي هي الوسيلة المعروفة في القرن السادس قبل التاريخ الميلادي ، يوم عنى داريوس الفارسي بتنظيم الامبراطورية الفارسية . ففي الحـالين ترى أن أيام جورج واشنطن تشبه أيام داريوس ، في أن الجواد كان أسرع وسيـلة للانتقال .

ثم كان مـا كان ، من بخار أو نفط يسير القطرات والسفن والسيارات والطائرات ، وإذا الوسائل الجديدة ، تمكن الأنسان من أن ينهب الارض نهباً ، ومن أن يلغي من الزمن شطراً كبيراً . وإذا الوسائل التي تختصر الزمن الذي يستغرقه قطع المسافات ، يقلّص المساحات أيضاً ، فالولايات المتحدة المترامية إذا قيست بالوقت الذي يستغرقه عبورها من الغرب إلى الشرق أو من الشرق إلى الغرب ، بالطائرة النفاثة ، لا تزيد على دويلة من دويلات اليونان القديمة ، يوم كان اجتيازهـا من طرف إلى طرف ، رهناً بالجياد وفرسانها .

فاذا أضفنا إلى الطاقة التي تجعل وسائل النقل والانتقال على هذه السرعة العجيبة، جميع وسائل المخاطبات، والرؤية عن بُعد، بأساليب الراديو والتلفزة ، زاد الانكماش في المسافات والمساحات ازدياداً عظيماً . وقد ذكر لنا صديقنا الدكتور شارل مالك ، يوم أمّ بيروت ، بعد الانتخابات الأميركية الأخيرة ، أن الاعتماد على وسائل التلفزة ، مكن من يشاء من الأميركيين ، من أن يشهد بأم العين وهو لا يبرح داره ، ما كان يجري في شيكاغو ، حين عقد الحزبان الكبيران مؤتمريهما لترشيح من رشحا عنهما للرياسة ونيابتها ، وما دار بعد ذلك ، في جميع حفلات الانتخاب الكبيرة .

وسرعان ما أفضى هذا التطور في معايير الحركة والمسافة والمساحة ، إلى آثار خطيرة في حياة الدول والشعوب .

فقد قلبت هذه الحقيقة ، كثيراً من حقائق الحرب ، رأساً على عقب . وقد ظلت بريطانيا قروناً ، منذ معركة الارمادا المشهورة ، تعتمد على بحر المانش في حمايتها من غاز يغزوها من سواحل البر الاوربي ، فلذلك صارت دولة بحرية، ذات اسطول، كان في وقت ما ، أقوى من أقوى أسطولين أوربيين . وقد كان ذلك صحيحاً يوم كانت سرعة السفن لا تزيد على خمس عشرة عقدة أو عشرين عقدة في الساعة ، ولكنه لا يمكن أن يكون

صحيحاً اليوم لأن الطائرات التي تفوق سرعتها سرعة الصوت تستطيع أن تعبر بحر المانش في دقيقتين أو أقل . وقد كانت الولايات المتحدة الاميركية ، مطمئنة إلى عزلتها ، لأن المحيط الاطلسي ، المترامي ، يحميها من ناحية الشرق ، والمحيط الهادىء ، وهو أشد تراميا ، يحميها من الغرب . ولكن الولايات المتحدة نفسها صنعت الطائرة الاولى ، ثم تعاون علماؤها مع علماء أمم أخرى فصنعوا القنبلة الذرية وشقيقتها ، فلما بلغت الطائرة ، وما يمكن أن يلحق بها من صواريخ وما يشبهها ، ما بلغت ، صار المحيط الأطلسي من ناحية ، والهادىء من ناحية أخرى ، لا تزيد سعتهما ، في حساب السرعة والزمن ، على سعة بحر المانش في القرن التاسع عشر ، أو حتى في أوائل القرن العشرين ، فلذلك صارت العزلة الاميركية المتأصلة في وضع أميركا الجغرافي ، والتي غلبت ويلسون في أعقاب الحرب العالمية الاولى ، شيئاً مناقضاً لمنطق الواقع — اليوم .

وليست هذه هي المرة الاولى في التاريخ ، يقع فيها انقلاب ، في وسائل النقل ، فيكون له أثر بالغ في حياة الناس . ففي القرن السابع عشر قبل الميلاد تمكنت بعض القبائل في آسيا الوسطى من ترويض الحصان ، وشده إلى عربة ذات عجلات فآتاها ذلك قدرة في الحرب غلبت بها جاراتها ، وفي القرن الخامس

عشر بعد الميلاد ، تمكن أهل البرتغال من صنع سفن شراعية تقوى على أن تشق عباب اليمّ إلى أماكن بعيدة فكانت عاقبة ذلك تطوراً أصيلاً مديداً غيّر وجه أوربا.

كانت الدولة في أوربا ، قبيل الانقلاب الذي تم على أيدي البرتغاليين ، دويلة وحسب، فهذه البندقية، وجنوى، وفلورنسة أمثلة عليهـا ، فلم يكد البرتغاليون يصنعون سفنهم ويمخرون البحار حتى بدأت الدويلات تخلي مكانها للدول القومية على مسرح التطور التاريخي ، فقامت دول البرتغال وأسبانيا ، وفرنسا ، وبريطانيا ، وهولندا ، وقد ظلت هذه الدول قائمة منذ القرن السادس عشر ، إلى مطلع عهدنا هذا ، وهي مسيطرة بسفنها وتجارتها وصناعتها ، وأمبراطورياتها ، على معظم الدنيا ، ولكن نشأة الطائرة وتقدمها ، قد خفضا من منزلة هذه الدول ، لانها صارت صغيرة ، بالقياس إلى المسافات المترامية التي تقطعهـا الطائرات بسرعة ، ومهد لقيام دولتين ضخمتين ، هما الولايات المتحدة الاميركية والاتحاد السوفيتي وكلتاهما دولة مترامية حقاً. فالبندقية وجنوى كانتا بالقياس إلى أسبانيا وبريطانيا وهولندا يومئذٍ، كأسبانيا وبريطانيا وهولندا اليوم بالقياس إلى الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي، أي أن الانقلاب الذي تم في وسائل النقل ، وأفضى إلى اختصار المسافات ، وانكماش المساحات ،

قد أفضى بدوره إلى تغيير أصيل في عوامل القوة والقدرة ، فاذا الصغير يخلي مكانه للكبير. فاذا مضينا في هذا التسلسل التاريخي إلى نهايته المنطقية ، قلنا إن عصراً تجتمع فيه وسائل النقل الذي يتم بسرعة تسبق الصوت ، والقدرة الذرية على التدمير ، لا بدّ أن ينتهي إلى قيام دولة واحدة على الارض ، لأن قيام هذه الدولة الواحدة، هو وحده الذي يحول دون أن يستعمل الناس أسلحتهم الذرية ، للقضاء على انفسهم بانفسهم ، أو لارتكاب «هاري كيري» ذري عالمي على الطريق اليابانية .

والعبرة التي نستطيع أن نستخرجها من هذا كله بينة — وفيها ينطوي أبلغ إنذار لامم العصر الحديث عامة ، ولنا في هذه الرقعة من الارض على وجه خاص .

كانت دويلات ايطاليا في مستهل القرن السادس عشر ، أغنى وأقوى مجتمعةً ، من الدول القومية التي ذر قرنها يومئذٍ. ولكن كل واحدة منها على حدة كانت كالقزم بالقياس إلى عملاق أسبانيا أو فرنسا أو غيرهما ، وقد استخرج مكيافللي العبرة من ذلك في كتابه «الأمير» فقال للدويلات الايطالية ، إما أن تتحدن ، واما أن تسقط كل واحدة منكن على حدة . وقد مات مكيافللي في سنة ١٥٢٧ ولكن مملكة ايطاليا المتحدة لم تقم سوى في سنة ١٨٦١ أي بعد قرنين ونصف قرن ، وقد

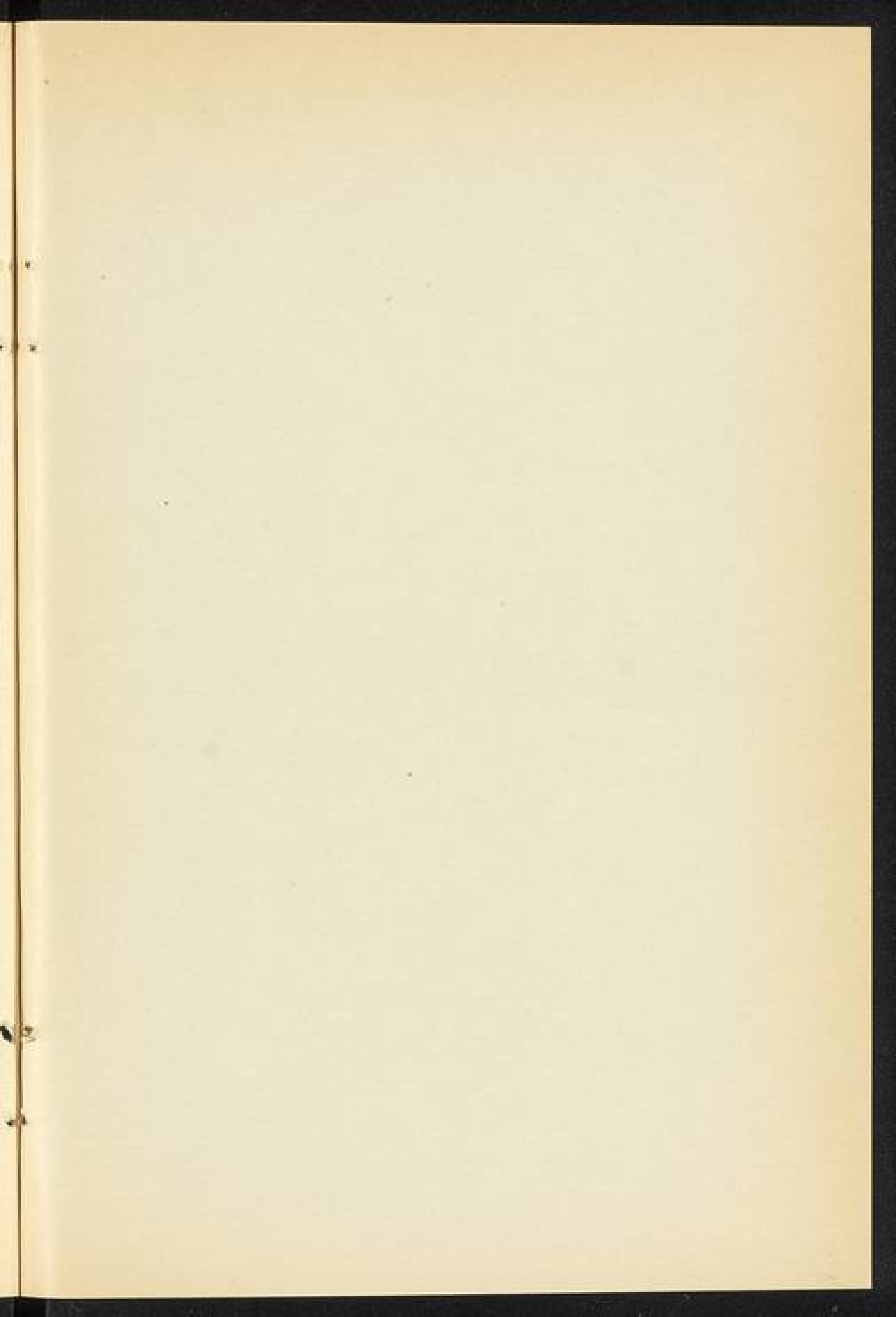
كانت مأساتها أنها صارت ، في خلال الفترة بين الانذار والاتحاد ، معتركا لدول أوربا ، بدلاً من أن تكون مصنعاً ومصرفاً ومدرسة لاوربا . ولو استطاعت ايطاليا أن تتحد يوم أنذرها مكيافللي بوجوب الاتحاد، لكانت في أغلب الرأي الدولة القومية الاولى في العالم الغربي ، في العصر الحديث ، ولكن اتحادها جاء متأخراً ، فلما دخلت في زمرة الدول القومية ، كانت الدول القومية نفسها ، في مرحلتها الأخيرة مشفية على نهايتها .

وما حدث لدويلات ايطاليا، حدث مثله من قبل، لدويلات اليونان ، يوم تعاظم جبروت مقدونيا ثم جبروت روما . وقد أنكرت دويلات اليونان الانذار الذي سمعته في الحالين ، فأبت أن تتحد بالاتفاق فيما بينها ، فوحدت خاضعة عن يد ، بالقوة والفتح .

إن المؤرخ الفيلسوف المعاصر ارنولد توينبي ، صاحب هذا المذهب التاريخي، يرى أن ما حدث في العصور السابقة، ينطوي على انذار خطير ، لاهل هذا العصر . فقد طرأت على الحضارة المعاصرة ثورة نبتت في أحضان العلم والصناعة ، فغيرت المعايير، التي تقاس بها الدول . وقلب المشكلة اليوم – في رأيه المستمد من نظرة ثاقبة في التاريخ المقارن – هو أن الذهن العلمي ماض

قُدماً ، يُحدث تبديلاً أصيلاً سريعاً في حياة الشعوب ، ودولها ، على حين ترى النفس الانسانية ترحف زحفاً بطيئاً كالسلحفاة ، في مطابقتها وإحكام الملاءمة بينها وبين واقع الحياة . وأخشى ما نخشاه أن يفضي ذلك إلى رجمة عمياء ، تنتهي إلى كارثة ، إن لم تتمكن الأمم من الوصول إلى نهج في الحياة يتيح لهـا أن تعيش جنباً إلى جنب زمناً مـا ، حتى تلحق النفس البشرية بالذهن العلمي وما خلق ، وتوائم بينها وبين البيئة الجديدة التي قامت نتيجة لا مفر منهـا لتطور العلم والصناعة . ورجال السياسة الذين يستطيعون أن يحققوا هذا «التعايش» خليقون أن يضعهم التاريخ بين بناته ـ أو هو على الأقل ، لا يضعهم بين مدمريه .

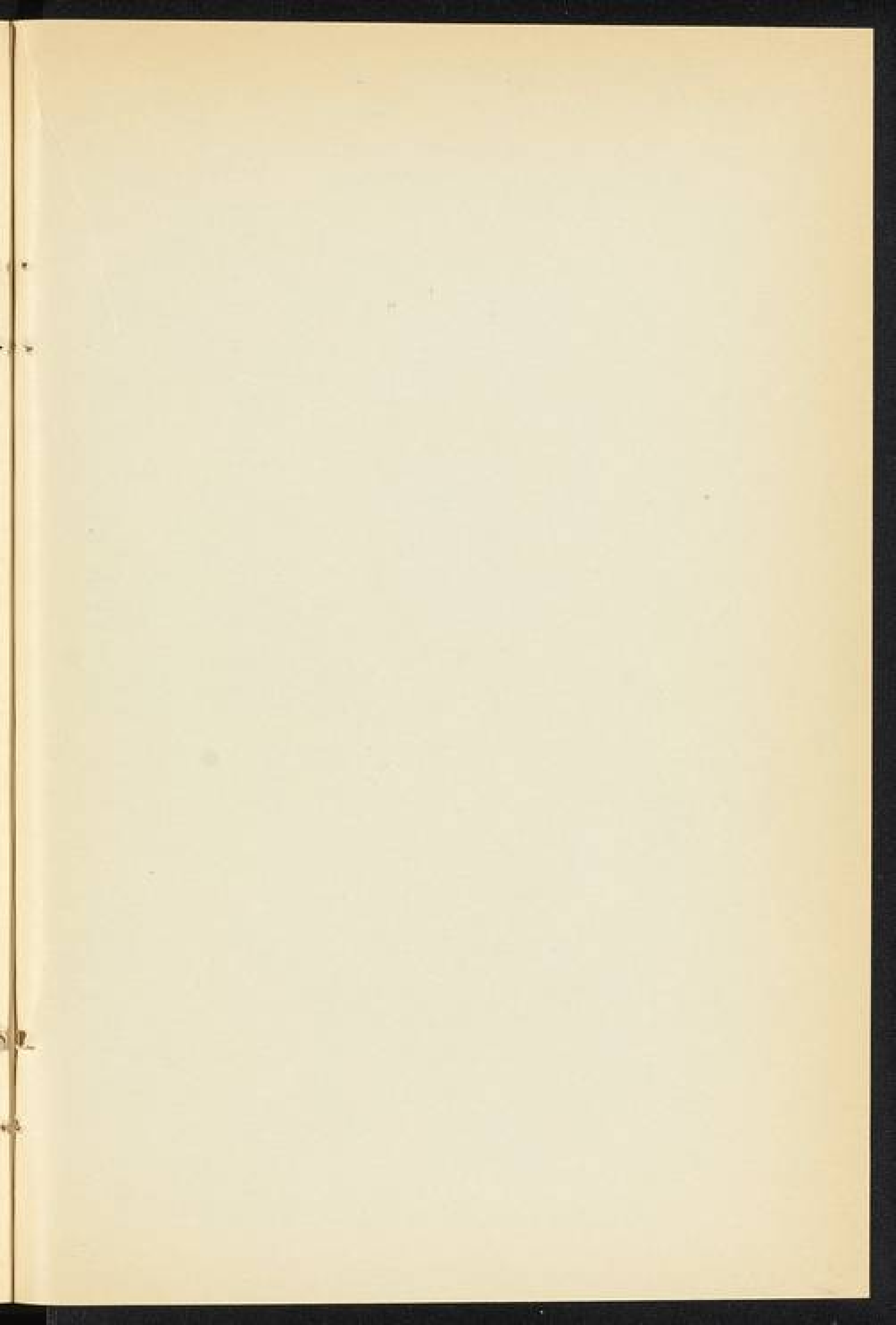
هذه ربة التاريخ ، تهز اصبعها في وجوهنا ، وهي تذكرني بقصة «العيدان المجتمعة والمتفرقة» ـ أفنعتبر بها ؟



-٤-

« ليس في وسع الأمة العربية أن تشيد بنيانها الراسي على الزمن ، ان لن نرسخ في نفوس أبنائنا أن طلب الحق لا تجدي فيه العجلة في البحث ، ولا الهرولة في الاستقراء ، وان الحرية هي معركة دائمة ، تتجدد كل صباح ولن تنتهي ... »

[من حديث «صاحب المعلم الثاني» اذيع من محطة الشرق الأدنى للاذاعة العربية]



صاحب المعلم الثاني*

تجوز أمم الأرض في هذا العصر ، فترة من حياتها ، يلوح فيها أن عناية الناس بالفضائل والقيم الانسانية الأصيلة الثابتة في حياة الأفراد والجماعات ، هي أقل من عنايتهم بكل ما يبهر الطرف ، ويخطف البصر ، ويؤتي ثمراً عاجلاً من قوة أو ثروة أوشهرة . أما مناقب الصبر والأناة والاتقان والوفاء والجهد الدائب الذي لا يكل ولا يسترعي ، في سبيل هدف اجتماعي بعيد ، فلا تكاد تستهوي نفوسهم لأن الحضارة الآلية الحديثة

* حديث اذيع من محطة الشرق الأدنى للاذاعة العربية

التي جعلت السرعة والانتاج الواسع النطاق ، شيئاً مستطاعا ، قد أذهلت الناس بوسائلها ، عن فضائل العقل والخلق التي مهدت لقيامها، وعن الغرض الاجتماعي المنطوي فيما تتيحه من قدرة على الخير .

وليس في وسع الأمة العربية أن تشيد بنيانها الراسي على الزمن ، ان لم نرسخ في نفوس أبنائنا أن طلب الحق لا تجدي فيه العجلة في البحث ، ولا الهرولة في الاستقراء ، وأن الحرية هي معركة دائمة تتجدد كل صباح ولن تنتهي، وأن رفع مستوى الحياة لن يتم بأعمال ومشروعات تؤتى ثمرها بين ليلة، وضحاها ، وأن المسحة البراقة على وجه كل شيء نعمله لن تغني عن الاتقان والضنى في سبيله .

ووسائل التربية الخاصة والعامة ، التي تكفل العودة إلى النهج القويم ، نهج العناية بما ينفع الناس على الأيام ، نهج التأمل في الأصول واستخراج القواعد الثابتة على الدهر ، نهج التخلق بالخلائق التي تتردد أصداؤها في أروقة التاريخ ، هي ولا ريب وسائل متعددة، تشترك فيها المدرسة والصحيفة والاذاعة والمطبعة ولكن من أفضلها في نظري وأجداها ، دراسة سير الأخيار العظماء من الناس ، واستكشاف فضائلهم ومناقبهم ، واذاعتها واستلهامها ، فالحياة عمادها صدقهم وقدوتهم وإقدامهم وصبرهم

وفناء اشخاصهم في أغراضهـا العليا ، فليس من العبث أن تكر القرون ، وأسماؤهم لا تزال كالنجوم الهادية في القفر، «أما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض» .

وقد أتاحت لي الحياة أن أعيش في كنف واحد من هؤلاء الرجال ، وما فتئت روحه تطالعني كل يوم من سبعين مجلداً مصطفة على يميني . وقد ترددت كثيراً قبل كتابة هذا الحديث لما بيننا من صلة ، ولكن الرجل مضى إلى لقاء ربه منذ ست وعشرين سنة ، فهو في غنى عما نقوله فيه ، ولكننا لسنا في غنى عما في حياته الحافلة من العبر . فأنا عند مـا أروي نواحي من حياة يعقوب صروف ، أجرد نفسي من صلة الاسم والقرابة — على فخري بهما — ومن صلة المعلم بتلميذه ، — على عظم ديني له — وأقف موقف واحد من أبناء الامم العربية اللسان تجاه هذا الرجل الذي كان ركناً من أركان النهضة الفكرية والاجتماعية الحديثة فيها .

كان رجلاً جمع بين الذهن المتوقد والخلق النبيل ، أي أن برديه ضما العلم والفضيلة ، فكانت حياته زاخرة بالنفع .

ولو نشأ في بيئة وطئت فيها مسالك العلم ، وعظم الاقبال على العلماء ، لكان على الغالب من العلماء المبدعين . ولكنه نشأ في بيئة كانت قد انقطعت صلتها بسير العلوم منذ قرون ،

وغلبت عليها أساليب أدنى إلى الغيب منها إلى الوثوق ، وإلى الاستبطان منها إلى الاستقراء والتجربة . نشأ متزوداً من أصول العلم الحديث بقدر وافر هيأ له ، أن يكون أحد الرواد لعصر جديد في حياة العرب يصلهم بما انقطع من ماضيهم المجيد. ونحن إذا طوينا القرون إلى مستهل الفكر العربي الذي أبدع وأنجب في عصره الذهبي بعد أن لقح بلقاح العلوم والفنون المنقولة عن اليونان والهند ، وإذا اتخذنا من جمهور المترجمين والنقلة في ذلك العهد ، من يمثلهم في شخص حنين بن اسحق ، فأغلب الرأي أننا قل أن نقع على ندّ له إلا بعد ألف سنة تقريباً في شخص يعقوب صروف .

ولد في حدث بيروت سنة ١٨٥٢ وتلقى علومه في المعهد المشهور اليوم بالجامعة الاميركية في بيروت ، وكأن الطبيعة أرادت أن تعده خاصة لعمله النافع، عمل تلقيح الذهن العربي في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ، بلقاح العلوم الغربية الآخذة في التفتح والازدهار ، فأتاحت له بعد تدريس قصير في صيداء وطرابلس ، أن يدرس العلوم الرياضية فالعلوم الطبيعية والكيميائية ، فآداب اللغة العربية وقواعدها في الجامعة الأميركية خلال إحدى عشرة سنة . فاستكملت بذلك عدته الفكرية ، من اطلاع واسع وفهم دقيق لأصول العلوم الطبيعية

الحديثة ، وطرائق العلم التجريبي ، وقلم بليغ في سهولة وامتناع، يرتد إلى أبلغ الأساليب العربية وأيسرها في صدر الاسلام .

إن الخطة العلمية التي وضعها منشئا المقتطف وجريا عليها ، جعلته الصلة الفكرية الموثقة بين الشرق الحديث والغرب الحديث. وقد نشر من المقتطف بين إنشائه في بيروت سنة ١٨٧٦ ووفاة يعقوب صروف سنة ١٩٢٧ أكثر من سبعين مجلداً في ما لا يقل عن خمسين إلى ستين ألف صفحة ضمت فصولاً مطولة وموجزة ونبذاً وآراء في شتى فروع المعرفة الانسانية . فمجلة المقتطف كانت باشراف يعقوب صروف، وبما دونه فيها من حقائق العلوم ومتخير الاراء والمذاهب العلمية والفلسفية والاجتماعية ، ومـا راجعه ووافق على نشره فيها من أقلام العلماء والأدباء والشعراء، تأخـذ باليمين لتعطي باليسار ، تأخذ من العـالم والمستنبط والفيلسوف والأديب لتعطي الزارع والتاجر والصانع والمدرس والطـالب وربة البيت . فكانت بذلك صلة بين عالم الابداع الفكري وعالم التطبيق العملي. كانت مرتبة متوسطة بين مباحث العلمـاء الفنية الدقيقة ، ومدارك الجمهور الذي يطلب الحقائق واضحة جلية ، تقبلها العقول وتسيغها الافهام . والعلم لا يرتقي ولا ينـال قسطه من الذيوع والتأييد ، ولا تجنى الفوائد التي يجب أن تجنى منه الا إذا اتصلت نتائج المباحث العلمية بمقتضيات

العمران وتغلغلت في حياة الفرد والمجتمع . لذلك كان بسط الحقائق العلمية ونشرها لازمين ككشفها وتحقيقها ، وهذا البسط والنشر جانب من المهمة العظيمة التي أخذها المقتطف على عاتقه عندما عزم صروف وصاحبه فارس نمر في ذلك اليوم التاريخي في بيروت أن ينشئا «مجلة علمية صناعية» . ولا يسعني إلا الظن بأنه إذا حاول المؤرخ في المستقبل ، أن يكتب تاريخ النهضة العربية الحديثة على قاعدتين من الانصاف والتحقيق ، فانه لن يغفل ذكر المقتطف وذكر يعقوب صروف الذي اقترن به حتى أصبحا متلازمين . ذلك بأن النهضة في أمة ما تبدأ أولاً في صدور النخبة من أبنائها وعقولهم . وأكثر النخبة من أبناء الشرق العربي من أواخر القرن الماضي إلى أواخر الربع الأول من هذا القرن ، يشهدون بأن المقتطف كان « معلمهم » ، ومن هنا أطلق عليه شاعر العراق الفيلسوف جميل صدقي الزهاوي وصف « المعلم الثاني » .

هذا العمل النافع ما كان مستطاعاً لولا تلك الفضائل الاساسية في خلق الرجل الذي وقف حياته عليه : حب راسخ للعلم وللخير ، ومثابرة لا تسترخي ، وتحقيق وتدقيق لا يحرفهما التسرع في المعالجة ، وإيمان لا ينثني بقدرة اللغة العربية وبمستقبل الأمة العربية .

والعظمة في الرجال ينظر إليهـــا من ناحيتين : ناحية النفع الذي تصيبه الأمة التي ينتمون اليهـا وسائر الأمم من بعد ، وناحية السمو والنبل في حياتهم الخاصة وعلاقتهم بالناس .

أمـا الناحية الأولى في حياة يعقوب صروف فتمثلها المكانة التي ظفر بهـــا المقتطف ومحرره عند كبار الأمة العربية من ملوكها وأمرائها إلى وزرائها وعلمائها وكتابها وشعرائها ، وعند فريق غير يسير من علماء الغرب ، وما أسدياه كلاهمـا من يد الى تحرير العقول وتثقيفها ببسط العلوم الحديثة والحث على الأخذ بهـا والتطبع بأساليبها وتطبيق قواعدها وحقائقها وتطويع اللغة العربية لها، وذلك في زمن كانت «الدرب فيه غامضة على الرواد». وحسبي في وصف هذه المكانة أن أشير إلى عيد المقتطف الذهبي الذي أقامه أفاضل العرب في القاهرة وبيروت سنة ١٩٢٦، وإلى قول أحمد شوقي :

مشينا بنورَيْ علمها وبيانها فلم نسر الا في شعاع شهاب
وعشنا بها جيلين قمت عليهما معلم نشء أو إمام شباب

وأما الناحية الأخرى فهي الناحية الذاتية، وقد كان صروف في مناقبه العقلية والخلقية مثالاً لمن يقرن العلم بالفضيلة ، فوصفه الأمير شكيب أرسلان في قوله ، إنه من « الرجال الذين لا

أجدهم الا في النادر الأندر من البشر » . ثم قال : « ولا شك أنه إذا كان أعلى أفق من الناس متصلاً بأقرب أفق من الملائكة فيكون فقيدنا طيب الذكر في الفوج الأول من الآدميين الفارطين إلى ذلك الأفق العالي » .

وقد اقتنى صروف أطباناً كان يراها ويضعها ، في المقام الثاني من عنايته ، وما كان ينفق عليها من الوقت والجهد عشر معشار ما ينفق منهما على المجلة التي كان يحبها كولده ولا يهنأ له عيش الا إذا أتم عمله فيها على الوجه الأكمل الذي في طاقته ، وأتيح له أن يحافظ على رسالتها العلمية الرفيعة .

وكان مثلاً للتسامح وله في ذلك نوادر يصح أن تجري مجرى الأمثال، منها أن خصماً صحفياً مشهوراً جاءه — وقد نفد الورق من مخزنه — يطلب ورقاً لطبع جريدته . فلما سُئل صروف في ذلك لم يزد على قوله : « ان جاع عدوك فاطعمه وان عطش فاسقه .... »

وكان مستقيماً كالرمح لا يحيد عن الصدق في القول والعمل قيد شعره . جاءه يوماً رجل عزيز عنده وطلب منه وساطة عند كبير على أن لا يعلم الكبير أن هذا الرجل في القاهرة . فقال: « لا أستطيع أن أقول غير الصدق . سافر من القاهرة ثم أرى ما يمكن ، وأبلغك ما يتم » .

وكان وديع النفس لا يأنف من مقابلة أصغر الطلبة ومحادثتهم وإرشادهم وتقبل آرائهم ومناقشتها، وعندي عشرات من الأمثلة على أحداث أتوه متهيبين فخرجوا من مكتبه وكأنهم خارجون من بين يدي والد حنون. وقد حدثني أحد الكتاب المشهورين بأنه رأى، وهو شاب، مأخذاً على بعض ما نشر في المقتطف فذهب إلى مقابلة الدكتور صروف وهو يقدم رجلا ويؤخر أخرى، فأحسن وفادته وقبل نقده ونشره، فكان ذلك الحافز الأول الذي دفع صاحبنا إلى المضي في الكتابة وهو اليوم من أعلامها. وكان أبيّ النفس لا يرضى عن الاباء والكرامة بديلا. جاءه مدير أعماله يوماً وقال له إذا حدثت فلان في القضية الفلانية فقد نوفر مبلغاً لا يستهان به. فقال: أخشى أن لا أصيب عنده ما يرضيني. كام الخسارة المقدّرة .... لتكن من حساب مما خسرنا أو كسبنا.

وكان وطنياً صادق العقيدة، اشترك في شبابه في الجمعية العربية الثورية الأولى في لبنان، وكان من أشدّ اعضائها حماسة، ولكنه لم يشتغل فيا بعد بالسياسة لأنه كان مؤمناً بأن نشر العلم هو في ميزان الوطنية كالاشتغال بالسياسة على الأقل.

ويقيني أنه عاش خمساً وسبعين سنة لم يأت إثماً وهو يعلم أنه إثم، ولم يضرّ أحداً وهو يعلم أنه يضر، بذل حياته كلها للخير

الخاص والخير العام فكان في عصره من طلائع الفكر العربي الحديث ورواده . وقد أحسنت محطة الشرق الأدنى للاذاعة العربية بما تبذله من عناية برجالنا الذين طبعوا عصرهم وبيئتهم بطابع علمهم وفضلهم ، فذكرى العاملين المتقنين هي الدليل على أن العلم والفضيلة إذا اجتمعا في رجل ، فالزمان لن ينسج على اسمه أو فضله خيوط النسيان . وفي هذا عبرة لنا نحن أبناء هذا العصر الذي يكاد يكون مصروعاً بجنون السرعة والثمر المعجل. إن طريق الخلاص إنما هو في العودة إلى الفضائل الاساسية التي أثبتت تجارب البشر خلال ألوف السنين أنها هي الاشياء الباقية.

مَيّ والمقتطف

لقيتها أول ما لقيتها في دارهـا في القاهرة في أواخر صيف ١٩٢١ ، فقد ذهبت إلى القاهرة زائراً يومئذ ، لقضاء أسبوعين فيها ، ونزلت ضيفاً على عمي الدكتور يعقوب صروف محرر المقتطف وأحد صاحبيه، وكان منزله يومئذ في شقة في شارع عماد الدين . وكانت الصلة الأدبية بـين هذه الأديبة العبقرية الناشئة والفيلسوف الشيخ ، قد أخذت تتوثق ، وكان يرعى انتقالها من الكتابة باللغـة الفرنسية إلى الكتابـة باللغة العربية ، أدق رعاية شأنه في ذلك شأن كبار الأدباء والشعراء في ذلك العصر كاسماعيل

مقال نشر في مجلة «الحكمة» سنة ١٩٥٣

صبري الشاعر ، وأحمد لطفي السيد الفيلسوف ، وكان معجبا بذهنها المتوقد واطلاعها الواسع ودأبها على المطالعة المجدية في كتب صنفت بلغات شتى . فلم يكد يستقر بي المقام في داره حتى قال : ينبغي أن نزور الآنسة « مي » . فسرني هذا « الانبغاء » . وقد جلست يومئذ بين الشيخ الذي أتاح لي ان أتعلم ، وبين هذه الأديبة التي أخذ نجمها اللامع يرتفع في سماء الأدب العربي ، ثم تألق بعد ما كتبته في المقتطف خلال السنة السابقة من فصول عن «باحثة البادية» . وقد جمعت هذه الفصول فيما بعد في كتاب ، ووضع له الدكتور صروف مقدمة قال فيها ما معناه : « إنه فتح جديد في ميدان النقد الأدبي باللغة العربية» ويرى الأديب الكبير الأستاذ عباس محمود العقاد أن كتاب « باحثة البادية » يمثل أكبر جانب من تفكيرها . وقد أخذتني الروعتان في تلك الجلسة روعة الحكمة الهادئة في كلام الشيخ وروعة التدفق في حديث الأديبة ، فلم أقل شيئاً سوى الرد على سؤال أو آخر متعلق بما تلقيته من علوم وما كنت أتولاه من عمل ، وهو يومئذ عمل ناظر على مدرسة ثانوية في سوق الغرب ، ومدرس فيها .

ولم أرها حتى كان صيف السنة التالية .

فقد جاءت مي مع والدتها الى لبنان في صيف السنة ١٩٢٢

لقضاء أشهر فيه، وكانت شهرتها قد سبقتها ، فلقيت من التكريم ما لم يلق مثله أديب عربي من قبل ، وربما من بعد . ونزلت بضعة أيام في فندق في أطراف بلدة سوق الغرب ، من ناحية عاليه ، وكان من أهل سوق الغرب في الصيف ، العلامة جبر ضومط ، أستاذ اللغة العربية في جامعة بيروت الأميركية، وقد بنى له ولأسرته داراً للاصطياف على ربوة في أعالي الضيعة تطل من ناحية على الجبال والأودية الرائعة المترامية الى الجنوب الغربي ، ومن ناحية على ساحل البحر إلى الغرب والشمال .

كان الأستاذ ضومط ، تلميذاً فيما مضى ، للدكتور يعقوب صروف ، وكان له بين أضالعه حب التلميذ واحترامه ، وكانت بينهما مراسلات كثيرة ، نشر بعضها في المقتطف ، وكان الأستاذ يقرأ المقتطف قراءة عالم متبصر ، ويستشهد ببعض ما يروقه فيه، في فصول البيان والبلاغة في الجامعة الأميركية ، فنشأ عنده منذ أن بدأت مي تنشر فيه فصولها في « باحثة البادية » إعجاب عظيم بذهن الأديبة وقلمها . فلما أوفت على سوق الغرب ، دعاها إلى اجتماع صغير، حول مائدة للشاي في داره، وكنت بين الذين دعوا اليه. وكلفني أن أصحبها ووالدتها من النزل الى داره. ولم يكد يستقر بنا المقام حتى أخذ الأستاذ ضيفته الكريمة إلى حافة السطح المنبسط أمام الدار ، ورفع يده بسباته اليمنى المشهورة عند

الذين تلقوا العلم عليه ، وجعل يشير إلى مباهج المشاهد الطبيعية التي تطل عليها داره . وكنت قد أعددت خطبة قصيرة — على العادة المألوفة يومئذ — للترحيب بها ، فألقيتها بعد أن رحب بها أستاذي صاحب الدعوة . وقد أعدت النظر في هذه الخطبة منذ عهد قريب ، فرأيتها كتمرينات الانشاء التي يحاولها طلاب المدارس ، ولكنها كانت تتصف بشيء واحد أظنه وقع من نفس مي يومئذ أحسن موقع ، فقد ضمنتها آراء وعبارات تخيرتها من مطالعة دقيقة لكتبها ومقالاتها المنشورة ، فكانت الخطبة نفسها على ما فيها من ركاكة ، متضمنة أحسن تحية توجه الى أديب — تحية الاطلاع على آثاره .

وقد سافرت إلى مصر في خريف تلك السنة ، فنزلتها بين أهل وأخوان في الصحافة والأدب ، وظلت مي في لبنان بضعة أشهر بعد ذلك ، تلقى من التكريم ما تلقى ، وتنفح مكرميها بخطب بلغت الأوج في علو الفكر وسمو العاطفة وحسن التعبير .

خلال السنوات الخمس التي قضيتها في المقتطف معاوناً للدكتور صروف في تحريره قبل أن اختطفته المنية في تموز ١٩٢٧ ، كانت الصلة بين المقتطف ومي أوثق ما تكون صلة . وكنت أزورها مع من يزورها من الأدباء في أيام استقبالها ، فلا ينقضي عجبي من الذهن الحاضر والعلم الواسع والحديث المؤدب المتدفق

والبراعة في توجيه أية مناقشة تدور . وكانت تكتب للمقتطف كدأبها من قبل ، مقالات منفصلة بعضها عن بعض، فيها شاعرية أو نقد ، ولكن الذي أكبرته فيها هي تلك المقالات التي كتبتها بعنوان « المساواة » وفصلت فيها بأسلوب ينضح بالفهم الدقيق والاستشهاد بالتاريخ القديم والحديث ، أصول المذاهب الاجتماعية والاقتصادية ، مبينة ما لها وما عليها من الاستبداد الى الدمقراطية الى الاشتراكية الى الشيوعية وغيرها . وكانت تقضي ايامها تطالع المطولات والأصول - فقد قرأت كتاب « داس كابيتال » لكارل ماركس بالألمانية - وتفكر في موضوع مقالها التالي ، حتى اذا حان موعده ، سهرت ليلتها مكبة على كتابته ، فاذا أصبح الصباح ، كان المقال في المقتطف ، على ورق جميل يطوف به طائف رقيق من أنوثتها ، وبخط عربي جميل أميل الى الخط الفارسي . حتى اذا نضدت حروف المقالة ، وصححت تجربتها الاولى ، أرسلت اليها التجربة مع الأصول ، فتصحح الأولى وتردها ، وتحتفظ بالثانية .

وكانت هذه المقالات على وجه خاص ، وغيرها على وجه عام ، موضوع مراسلات أدبية مسهبة بين الدكتور صروف ومي ، يتبادلان فيها ما تمهد له المقالات من مطارح الرأي بين مخالفة وموافقة وإسناد - وقد قرأت بعض هذه الرسائل يومئذ،

وفي ظني أنها لو أتيح لها النشر ، لكانت في مجموعها من خير ما كتبه صروف ومي. وأظن أن رسائلها اليه قد رُدَّت إليها بعد وفاته بسنوات ، وكان ظني أنها مع رسائله اليها محفوظة في ظرف ، عهد به - مع مراسلاتها الأخرى فيما أظن - الى انطون الجميل بعد وفاتها ، ولا أعلم أين هي اليوم . ويقول الأستاذ العقاد في رسائلها جميعاً : « لهذه الرسائل شأن عظيم لأنها لو جمعت وطبعت لكانت تحفة أدبية رائعة » .

وقد كانت مي قطب الجماعة الكريمة التي احتفت بانقضاء خمسين سنة على إنشاء المقتطف ، فقد اجتمع في دارها تلبية لدعوتها نحو ثلاثين كاتباً وأديباً وشاعراً ووزيراً للتشاور فيه ، وفي طليعتهم أقطاب القلم والفكر في ذلك العهد[1] .

وقد اختيرت مي أمينة سر اللجنة ، فوقع عليها عبء العمل فلم تفتر لها همة ، ورضي الملك فؤاد الأول فوضع الحفلة تحت

(١) رئيس لجنة الاحتفال : توفيق رفعت (باشا) . الاعضاء : سعيد شقير (باشا) وأحمد لطفي السيد (بك) وأحمد شوقي (بك) والسيد محمد رشيد رضا والشيخ مصطفى عبد الرزاق والدكتور محمد حسين هيكل (بك) وانطون الجميل (بك) والاستاذ محمد صادق عنبر والاستاذ عباس محمود العقاد والدكتور طه حسين والاستاذ ابراهيم عبد القادر المازني والاستاذ نقولا حداد والاستاذ سامي جريديني والاستاذ امير بقطر والاستاذ جبرائيل انكيري والاستاذ شارل استانبولية والاستاذ ادجار جلاد ، والسكرتيرة مي زيادة .

رعايته ، وأوفد اليها رئيس الديوان الملكي العالي دولة محمد توفيق نسيم مندوباً عنه لحضورها .

فلما اكتمل عقد المدعوين في مساء ٣٠ أبريل ١٩٢٦ كانت مي المرأة الوحيدة التي جلست على المنبر مع اعضاء اللجنة وخطباء الحفلة وشعرائها وصاحبي المجلة. ولم أحضر الحفلة يومئذ لأنني ندبت لأجيء الى بيروت فأمثل المقتطف وصاحبيه في حفلة كبيرة أقيمت في اليوم نفسه في جامعة بيروت الأميركية [1] — منبت المقتطف الأول — ولكن قيل لي بعيد عودتي أن ميا كانت تشعُ رضى وغبطة لما نالته الحفلة من توفيق .

فلما توليت رياسة تحرير المقتطف بعد وفاة محرره واحد منشئيه ، أحببت أن أدرج في صلته بالكتاب على نهج يماشي الطريقة المتبعة في تحرير المجلات في الغرب من حيث تقدير مكافأة عن كل مقال . ولم أوفق فيما أردت ، لضيق ميزانية المجلة يومئذ ، ولكنني أذكر أنني حرصت في نهاية السنة الأولى — سنة ١٩٢٨ — على أن أوفر من أبواب الانفاق ما تيسر ، وأرسلت الى مي تحويلاً بمبلغ يسير ، وطويته في كتاب قلت

(١) كانت الحفلة برياسة الرئيس بيارد دودج وكان من خطبائها جبر ضومط ، وبولس الخولي ، وداود قربان ، وأنيس الخوري المقدسي ، وسليمان ابو عز الدين ، وكاتب هذه السطور .

فيه ان هذا التحويل ليس سوى عربون لتقدير المقتطف وشكره، فردت التحويل في رسالة تفيض ظرفاً ولطفاً قالت فيها ، قبلت التحويل وما ينطوي فيه من مغزى، فاحتفظت بالمغزى وحولت التحويل الى اسمك فأرجو أن تقبله هدية مني لك ولعروسك .

وقد كان آخر عهد للمقتطف بمقالاتها ، في النصف الأول من سنة ١٩٣٥ ، فأنشأت سلسلة من الفصول عن طائفة من أدباء الغرب المعاصرين — بيراند للو ، اونامونو ، دوديه — وكان بيِّنا في هذه المقالات أن ذهنها بدأ يتجه إلى العناية بالالهيات الغالبة على طائفة من أدباء أوربا. ولعل الاستغراق في ذلك الاتجاه كان طليعة من طلائع ما أصابها بعد قليل .

وكان آخر عهد للمقتطف بها « مختارات من مي » نشرتها ، في عددي نوفمبر وديسمبر ١٩٤١ فقد كنت مبلاً من مرض طويل بالتيفود يوم وفاتها فلم أمشِ وراء نعشها . وفي عدد يناير سنة ١٩٤٢ نشرت في المقتطف ما يقوِّم بكتاب كامل عن مي، ضم بين دفتيه تسعة أحاديث عنها ، أدارهـــا الأستاذ محمد عبد الغني حسن بتكليف من المقتطف ، مع مصطفى عبد الرزاق (باشا) ، هدى هانم شعراوى ، الدكتور طه حسين (بك) ، الأستاذ عباس محمود العقاد ، السيدة ايمي خير ، الاستاذ انطون الجميل (بك) ،الدكتور منصور فهمي (بك) . أما الاستاذ محمد

عبد الغني حسن نفسه فأدار حديثه مع مي ، مستخرجاً آراءها ونظراتها من رسائلها وكتبها . وقد توسع الأستاذ المؤلف بعد ذلك في هذه الرسائل واضاف اليهـا واصدرها في كتاب على حدة فأحسن .

اطال الله عمر الأحياء ممن ذكرت ، ورحم الذين ذهبوا إلى لقاء ربهم رحمة واسعة ونفعنا بذكر أدبهم وفضلهم .

يومان وشاعر

لست أحسبني مبتكراً أو مغالياً إذا قلت إن الاحتفاء بشاعر عربي قضى نصف قرن أو يزيد وهو يشدو ، لهو حدث جليل القدر عظيم الدلالة من أحداث الأدب في العالم العربي ، بل من أحداث اليقظة العربية كلها . فقد عاصر هذا الشاعر نهضة العرب في عنفوانها وعبّ من النبع الادبي الذي أجرى في عروقها سورة البعث ، وعرف رجالها ، وخاض غمارها ، وشارك في ذلك كله بقلم صادق عفّ حصيف ، فكان لها على الايام لساناً يتغنى أحياناً ، ويتأسى أحياناً ، وينذر أو يرشد أحيانا . فهو ابن

خطبة القيت في مأدبة تكريم خليل مطران في فندق شبرد ١٩٤٧

قرون متطاولة من الأدب العربي ، قد احتشدت لتنتفض انتفاض البعث في نصف قرن ، وهو رائد قرون من آمال ومنى لا تزال في ضمير المستقبل ، ولكنها احتشدت أيضاً لتولد في نصف قرن. فهذا الصدر النحيل الذي وصفه الشاعر نفسه بقوله:

الله في صدر وهى وتقوست منه العظام
خاو كجوف الغارة لؤه المخاوف والظلام

قد انطوى على طيوف الماضي ومنى المستقبل جميعاً ، فلما تقطرت في فطرته السليمة أعارها من خياله أجنحة ومن بيانه قوة، فاذا كثيرٌ منها في سماء الحياة شعر خالد .

بين نبع رأس العين في بعلبك ، وأعمدة هيكل الشمس في قلعتها ، رأت نور الحياة أول ما رأته ، هذه الفطرة العبقرية الشاعرة . وإذا لها من ذلك النبع الرقراق صفاء هو في النفس صدق سريرة ، وإذا لها من تدفقه الهادىء من جوف الارض ومن روعة تلك الاعمدة الجبارة ، عزيمة الجبار ولكن بغير صلصلة الحديد. ثم ترعرعت هذه الفطرة بين دوالي الكرم على منكبي « جارة الوادي » فتفتحت فيها أحلام الشباب وأزهار العقل ، فرقصت وشدت ، ثم بلغت أشدها في بيروت بين قنن لبنان العتاق ، وصفحة البحر الذي هرم الزمان ولم يهرم . وهناك

تمرست أول ما تمرست بسورة الصراع الدائر الرحى يومئذ ، بين النفس العربية المنبعثة من طوايا التراث المستترة ، المتطلعة إلى الحق والحرية، وبين قوى الظلم والجمود التي تحاول أن تلزمها الرغام . ثم شدت رحالها إلى الغرب ، إلى باريس التي كانت يومئذ موئلًا لفئة من أحرار العرب. فلم تكد تلقى عصا الترحال، حتى وقفت حيرى حيال قرار خطير . ولكن حيرتها لم تطل . وما هي إلا هنيهة من الزمن ، عانت فيها عذاب الكفاح النفسي ، حتى حزمت أمرها على أن تختار . وقد كانت مخيرة فيما تأخذ وفيما تدع : أتغرّب كما كانت تنوي ان تفعل ، إلى حيث يكفل لها العيش الرغد والراحة بل الثراء ، أم تشرّق فتعود إلى ميدان النضال ، وليس في العودة من شيء مكفول سوى شدائد النضال وآلامه ! ولعل أنصع دليل على الخير المركب في هذه الفطرة، وعلى قوة المنى التي كانت تجتاح النفس العربية في ذلك الحين ، أن فطرة الخليل اختارت أن تشرق ، مؤثرة غمرة الجهاد والكفاح ، على أفياء الثروة والراحة. وكذلك بتّ الفتى وهو في باريس ، وعزم أن يعود إلى مصر ، مشيحا بوجهه عن الشق الغربي من كرة الارض . فلم يكد يطأ أرضها، ويحسّ بعبق التاريخ يجري في عروقه مرة اخرى ، حتى انطلقت فطرته الشاعر على سننها ، وإذا الآثار المنطوية فيها من بعلبك وزحلة وبيروت ، قد أخذت تمتزج بها وتشد من أزرها آثار

الجهاد المصري الراني الى نور الحرية والكرامة ، وآثار الجهاد العربي المشوق الى بعث يعيد عصر المأمون وهارون الرشيد ، وآثار الحضارات القديمة ، التي قامت في هذا الوادي آية تجلو أسرار التاريخ النابض بالحياة المتجددة على الدهور .

وعلى أن خليل مطران كان صحفيا مبدعا ، في العقد التالي من سني حياته ، وعلى أنه اشتغل بشؤون المال والاقتصاد والزراعة ، فان فطرة الشاعر العبقري فيه وقفت مرة اخرى ، كما وقفت في باريس من قبل ، حيال قرار خطير : أتجعل قبلتها في الشعر أن تجاري الفحول من شعراء العربية أم تجعل قبلتها أن تتمثل خير ما جاء به الفحول ، ثم أن تنطلق في آفاق الحياة الرحيبة ، حتى تتفتح للشعر العربي أبواب الأدب العالمي ، يأخذ منه ويعطيه سواء بسواء؟ وفي البيان الموجز الذي صدر به الخليل « ديوان الخليل » ، قال :

« عدت اليه وقد نضج الفكر واستقلت لي طريقة في كيف ينبغي أن يكون الشعر فجعلت أنظمه لترفيه نفسي حيث أتخلى ، أو لتربية قومي عند وقوع الحوادث الجلى ، متابعاً عرب الجاهلية في مجاراة الضمير على هواه ... موافقاً زماني فيما يقتضيه من الجرأة على الالفاظ والتراكيب ... ذلك مع الاحتفاظ جهدي باصول اللغة وعدم التفريط في شيء منها إلا

ما فاتني علمه ... ولم أكن مبتكراً فيما صنعت . فقد فعل العرب في كل زمان قبلي ، ما لا يقاس اليه فعلي .. على أنني أصرح ، غير هائب أن شعر هذه الطريقة – ولا أعني منظوماتي الضعيفة – هو شعر المستقبل لانه شعر الحياة والحقيقة والخيال معاً ... »

وما كان النزاع الذي دار في نفس الخليل في الحالين ، نزاعاً يسهل الفصل فيه . وكان الاختيار الذي آثره ووطن العزم عليه ، غير ما يؤثره السواد من الناس . وليس هذا بالشيء العجيب ، فالخليل من الصفوة في كل عصر وفي كل قبيل . والحياة منذ كانت الحياة لم تتقدم خطوة واحدة إلى الأمام ،إلا بفضل القلة المصطفاة من الأحياء التي تأبى المتابعة والمطابقة التامة، وتخرج على الكثرة التي قلما ترضى عنهما بديلاً . فتسير هذه الفئة القليلة بالحياة صعداً يستحثها ناموس كناموس الجاذبية لا يُردُّ ، يأتيها نداؤه من وراء حجب الغيب ، فتلبي النداء راضية مختارة. وهذا في نظري هو سر العظمة في حياة الخليل وشعره. فقد كان في وسعه أن يغرب وأن يثري ، ولو فعل لكان خليقاً أن ينظم شعراً حسناً ، ولكنه اختار أن يشرق، فإذا حياته قد فنيت في حياة الشرق العربي ، أو هي اتسعت حتى تضم حياة الشرق العربي بين جوانحها . وكان في وسعه أن يجاري الفحول أو يحاول

أن يجاريهم . ولو فعل لكان خليقاً أن يستقيم له في بعض الأغراض قصائد أو مقاطع من قصائد تعد في الطبقة الاولى ، ولكنه اختار أن ينظم شعراً ، « ليس ناظمه بعبده » ، على ما يقول ، وأن يفتح للشعر العربي باب المستقبل حتى يكون « شعر الحياة والحقيقة والخيال معاً » ، وإذا هو بما قد اختار ، رائد له من مجد الرواد فضل الاقدام على المجاهل يرفع الستار عن مناكبها .

ولو طلب المال في الغرب ، وأوتي ما طلب ، لكان في وسع العالم أن يسلبه ما آتاه . ولو سعى وراء المتعة في الشرق أو في الغرب ، ونالها ، لكان نيل المتعة كفيلاً في حد ذاته باضمحلالها . ولو حاول ان يجاري الفحول واستقام له ما يريد ، لما خرج عن ان يكون واحداً من عشرات أو من مئات ، يحذو حذوهم ويجري على غرارهم . ولكنه أبى كل هذا ، وأركب النفس مركباً خشناً صعب المراس ، ولو هو لم يفعل سوى ان يحزم أمره على هذا الاختيار في كلا الحالين ، ولو هو لم توآته فطرته الشاعرة العبقرية على آيات وروائع ، لكان حسبه فخراً أنه اختار كما اختار . فليس في وسع أحد أن يسلبه فضل ما فعل .

ولذلك حين أعود إلى أوراق ديوان الخليل ، التي بليت بين

يدي منذ بدأت أطالعها منذ ربع قرن أو أكثر ، وأقرأ فيها في قصيدة « المساء » :

عمرين فيك أضعت ، لو أنصفتني لم يجدرا بتأسفي وبكائي
عمر الفتى الفاني ، وعمر مخلد ببيانه لولاك في الاحياء
فغدوت لم أنعم كذي جهل، ولم أغنم كذي عقل ضمان بقاء

أقول : ليس هذا المهرجان الذي حجت فيه العربية إليك ، ولا هذا التكريم السامي الذي أسبغ عليك ، سوى آية من آيات البقاء التي كتبت لشعرك ما دام في الدنيا عرب يتلون سورة أو يترنمون بقصيد .

والشعر سلم يرتقي الناس عليه من القريب إلى القصي ، ومن المدرك إلى الخفي ، ومن الحياة التي أسدل على وجهها برقع كثيف ، إلى الحياة في جوهرها المطلق الرحب المنبسط أمام وجه الشمس . والشاعر يصنع لنا هذا السلم من خيال يرى ما لا نرى ، وشعور يحس ما لا نحس ، وفكر يدرك الحقيقة المستترة وراء ظواهر الاشياء . وأنت تقف إلى جنب الشاعر فلا ترى مأساة الدهور في الوردة الذابلة ، ولا صراع الحقيقة أو الظلم أو الفضيلة ، في سيرة الرجل المسجى أو الجنين المجهض أو الشمس الغاربة ، ولا الآمال والمنى التي تموج في صدور خلائق هي « عد الرمال » . حتى إذا نطق الشاعر رأيت بعينه ، وسمعت

باذنه وأدركت بعقله ، وإذا ستار من الاستار المسدلة على روائع الكون ومعجزات الحياة ، قد رفع قليلاً فرأيت مشهداً يفتن الالباب ، وألفيت ضياء يدنيك قليلاً من فهم الحقيقة .

وشعر الخيال حافل بآيات رائعة على هذه الاغراض التي ينشدها الشعراء ، ولا تتم نعمتها العلوية إلا لكبارهم : —

ليس بالكفء لعيش طيب　كل من شق عليه العيش حرا

*

ليت البلاد التي أخلاقها رسبت
يعلو بأخلاقها تيار طغيان
النار أسوغ ورداً في مجال على
من بارد العيش في افياء فينان

*

ولكن قوما يذودون عن　حقيقتهم من يد المعتدي
ويدفعهم حب أوطانهم　ويجمعهم شرف المقصد
لو الموت مدّ إليهم يداً　لردّوه عنهم كليل اليد
نمنا على جهل وقد　عاش الكرام ونحن لم
فاذا انقضت آجالنا　فمن الرقاد الى العدم
وإذا بعثنا بعدها　فكأنها رؤيا حلم

*

لا يعصم الامم الضعيفة فطرة   إلا فضائل بالتجارب تكسب
فتكون حائطها المنيع على العدى
وتكون قوتها التي لا تغلب

*

ولم أر شيئاً كالفضيلة ثابتا   نبت عنه آفات البلى والمعاطب

*

يا للغروب وما به من عبرة   للمستهام ، وعبرة للرائي
أو ليس نزعا للنهار وصرعة   للشمس بين جنازة الاضواء
أو ليس طمسا لليقين ومبعثا   للشك بين غلائل الظلماء
أو ليس محوا للوجود إلى مدى   وإبادة لمعالم الاشياء
حتى يكون النور تجديداً لها   ويكون شبه البعث عود ذكاء

*

وكم في فؤادي من جراح ثخينة   يحجبها بُرداي عن أعين الناس
أرى روضة ، لكنها روضة ذوت
وأصغي وما في مسمعي غير وسواس
وأنظر من حولي مشاة وركبا
على مزجيات من دخان وأفراس
كأني في رؤيا يزف الأسى بها
طوائف جن في مواكب أعراس

انا الأسد الباكي أنا جبل الاسى
أنا الرمس يمشي دامياً فوق أرماس

*

وإلى ذلك كله كان قلم الشاعر في يد الخليل مزماراً يوقع عليه الحان الوفاء لمن يرحل من لداته ، حتى صار ديوان مراثيه صفحة مشرقة في تاريخ هذه الحقبة الحافلة بالعظماء .

على أنني أحس انني اظلمك أيها الخليل ، حين أقسم وأبوب وأستل من شعرك أبياتا من هنا ، وأبياتا من هناك ، فما كان البيت في قصيدك غاية تحدو اليها ركائبك ، ولا كان المعنى في شعرك منفصلاً عن المعنى العام الذي يضم الحياة كلها . ولكن ما حيلتي ! فلا بد لى من شيء كالموشور يحل ذلك الضياء المتوهج المنبعث من فطرة عبقرية شاعرة ، مـا زال سناها يغمر العالم العربي منذ نصف قرن أو يزيد .

فانفحنا أيها الخليل ، مد الله في عمرك ، من جديدك ، أو انشر علينا من قديمك شعراً نسمو به فوق ذواتنا الصغيرة إلى مسابح النجوم .

« تا لله مـا ظلل الغمام معاقل
تنأى عليك، ولا النجوم حصون »

الحصاة والجبل

نحن هنا اليوم لنكرم ذكرى رجل من الأخيار — لنكرمها، ولا أقول لنحييها. ولو لم يكن هذا الرجل قد وهب من ذات نفسه للحياة وأبنائها ما وهب، غير وان ولا ممسك، ولو لم يكن قد صنع بيديه وأيمانه ما صنع، لما كان هذا الاجتماع، ولا عشرة مثله، عملاً يكفل أن تبقى ذكراه حية على الزمن. فهو الذي نقش اسمه بيديه، على صفحة الدهر، وليس في وسع أحد من الناس أن يسبغ عليه فضلاً لم يؤته ولا أن يسلبه فضلاً آتاه إياه ربه. ونحن إذ نجتمع لنكرم ذكراه، نكرم أيضاً،

خطبة في حفلة تكريم ذكرى القس طانيوس سعد، حزيران (يونيو) ١٩٥٣

أنفسنا ، على مقدار الخير الذي تركه في كل منا ، وحسبنا ان يكون فينا قبس من الضياء الذي أطلقه على طريق الحياة ، فاذا نحن بما قبسنا ، أفضل ناساً ، وأدنى إلى الخير .

وقد عرفت رجالاً يصدق عليهم وصف الأخيار، أو وصف العظماءِ ، تحلو الحياة الدنيـــا في جوارهم ، وتصلح بحكمتهم ، وتغدو الحياة الآخرة في جوار الحق الأعلى ، أدنى منالاً لأنهم عاشوا . وقد كان معلمنا واحداً منهم ، ولكن اثره يدق عن الوصف ويتحدى الوزن والتقدير .

فقد عمد رجال العلم إلى أدق الوسائل ، وأبرع الحيل ، لوزن الأشياء وقياسهـا ، وقد قاسوا أبعاد الكواكب والسدم ، وأجرامها ، في رحاب الفضاء ، وتغلغلوا في الأجسام المتناهية في الصغر، فوزنوا الشحنة الكهربائية على الكهيرب ، والموجة المارقة من الاشعاع الخفي ، ولم يتركوا بين الكهيرب الذي يدق عن بصر العين والسديم الجبار الذي ينأى عنهـــا ويغور ، جسما لم يزنوه أو يحددوا أبعاده ، ولكن من منكم يستطيع أن يدلني ، على عالم يزعم أنه يستطيع أن يقيس أثر معلم في نفس طالب ، أو أثر رجل خـيّر في نفس جماعة ؟ .

وقد كان القس طانيوس سعد معلماً ، وما أشرفه من لقب ، وكان رجلاً خيراً ، وأكرم به من وصف . لم ينل من جامعة

رتبة علمية عالية ، ولا شهادة تعليم ، ولا درس فيما اعلم ، أو منذ عهدي بهذه الكلية ، على الأقل ، ولكنه مع ذلك لم يكف عن البناء للتعليم مادة ومعنى ، منذ أن أخذ الحجر الأول بيديه، إلى أن استرخت أنامله ، وجمدت عيناه .

أذكره يوم كنت طالباً وهو في ذروة رجولته، ثم أذكره زائراً أو ضيفاً في بيته الكريم ، وهو يرد عوادي الزمن ببنية وارادة كأنهما قدتا من الحجر الأعبل أو الحديد الصلب ، فأراه يغدو مع الفجر ، إلى حيث يطيب له أن يغدو ، في ثوب لا تخطئك معرفته ، بعد أن تراه مرة واحـــدة ، وإذا هو ينحني ليرفع عن الأرض حجراً ملقى على سطحها ، فقد كان يسوءه ويؤلمه أن يرى حجراً مهملاً ، وإذا هو يضعه في جدار أو فوق جدار . وترتد ذاكرتي إلى تلك الايام فأراه أيضاً وقد وقف منتصب القامة ، مرفوع الرأس يستقبل وجه الصباح ، بنظرة أو باشارة من إصبع أو عصا ، فاذا في النظرة أو في الاشارة أمر أو إرشاد ، وإذا الفعلة يقومون جداراً متداعياً هنا ، أو يرممون مبنى هناك ، أو يحفرون خندقاً ليضعوا في جوف الارض دعائم بناء جديد . ولو لم يكن البناء شهوة وايماناً ودستوراً في نفسه لما تم له في السنين التي عاشها ، وبهذة الوسائل القليـلة التي بين يديه ، أن يبني ما بنى . وقد فعل ذلك وحده ، لم يكن له سند من مجلس يهبه المال أو يجمعه له ، ولم يكن عنده ثروة خاصة

موروثة أو مصنوعة يقفها على البناء الذي شغف به ، وفرغ له ، وظل أبدا نجمه الهـادي تتعلق به عيناه في الصباح ، وتهفو له أنفاسه في المساء ، ويشغل ذهنه في هدأة الليل ، حتى لكأن البناء كان فطرة فيه ورسالة له في آن .

ولو كان من غير الطينة التي جبل منها ، لغلبه القنوط ، غير مرة ، ولكن ايمانه بأن المهمة التي وقف نفسه عليها ، هي مهمة خيرة وينبغي أن تؤدى ، جعله يغلب الخيبة بالعزيمة والصبر ، واليأس بالرجاء ، والقلة بالعمل والحرص وحسن التدبير ، وإذا هو يخلف للبنان ، وللامة العربية من حواليه – ولا أقول لأخي شارل وأسرته – معهداً أوفى اليوم على السبعين من حياته المباركة ، ومن حسن حظنا أن شرارة من شهوة البناء التي ركبت في فطرته ، قد سرت منه إلى نفس ابنه وخلفه ، فاذا هو بناء أيضاً ، وإن كان البناء على حساب راحته وخزانته .

لست أدرى أكان معلمنا يعرف الحكمة الصينية المأثورة ، التي تقول : إن من أراد أن ينقل الجبل ، فعليه أن ينقل الحصى الصغير . ولكن حياته كانت ولا ريب دليلاً قائماً متصلاً على صحتها ، فكأنه تلقاها واعيا أو غير واع ، من معين الحكمة الأعلى ، بيد أنه عكس آيتها ، فلم يحاول أن ينقل جبلاً بنقل حصاه ، حصاة حصاة ، ولكنه عمر جبلاً بنقل الحصى ، وهذا

لعمري هو أشق عملاً وأبقى أثراً واجدى .

وقد علمت أن مريديه وتلاميذه يريدون أن يصنعوا له تمثالاً، ويسرني أنهم فعلوا ، ويشرفني أن أساهم فيما يريدون ، فعملهم يذكر أبناء الأجيال التالية بأن لأهل الفضل كرامة عندهم ، فقد علمهم هذا ، ولكنني مع ذلك أحب أن أظن أن هذا الجبل الذي عمره ، هو تمثاله المادى الأبقى ، فعلى حجارته مس أياديه ، وقطرات جبينه ، ولهاث أنفاسه ، وفي حشاه اليوم تراب من ترابه .

بيد أن القس طانيوس سعد ، لم يكن يبني الدور ، لأنه يحب أن يمتع النظر بمرآها ، ولا لأنه كان يؤثر ان يقول لنفسه، او لزوجته ، او لأسرته ، انظروا إلى ما فعلت ، هذا كله ملك لك يا نفس ، او لك يا أم فؤاد ، او لكم يا أبنائي ، بل كان يبنيها لامة يريدها منبتا لشيء أعلى وأشرف وأنفع ، هو أن تنمو فيه النفوس الغضة ، والعقول المشوقة ، حتى اذا خرجت من المنبت ، كانت نفوس رجال ونساء ، يبنون للخير وللوطن كما بنى هو ، كل على حسب قدرته ورغبته . فهذه الدور ، لم تكن عنده غرضاً في حد ذاتها ، ولو كانت لشادها واحدة وحسب ، ولجعلها أدنى إلى القصور . ومنذا الذي يلم بها اليوم، وينظر إلى هذا الحشد الكريم الذي اجتمع حول ذكراه ، او

يراجع كشوف الرجال والنساء الذي مهرت نفوسهم وعقولهم هنا ، ولا يقول إنه قد بنى فأعلى في الحالين ، وإذا كان ابو الطيب قد قال في سيف الدولة الحمداني « بناها فأعلى والقنا يقرع القنا» ، فشاعر اليوم يحق له ان يقول في معلمنا ، بناها فأعلى والعقول تقرع العقول ، على سندان الحقيقة ، بناها فأعلى والنفوس تهز النفوس بمبسم الخير ، ولعمري ليس في الدنيا ذكرى أشرف وأبقى من ذكرى رجل ، يذهب هو ، وتمضي هي تنتقل منضرة الوجه من جيل إلى جيل .

* * *

روي ان الأصمعي رأى أعرابيا يرعى شاء ، فقال له : يا أخا العرب ، لمن هذه الشاء ، فقال : هي لله عندي .

اخي شارل ، يا ابن لبنان ، يا أخا العرب ، بالله عليك ، قل قول الأعرابي : هذا المعهد هو لله عندي .

مكتبة ورجل

بعد تطويف دام ثمانين سنة أو نحوها ، استقر المقام بمكتبة الجامعة الأميركية في بيروت ، فألقت عصاها منذ سنة ونصف سنة أو اكثر قليلاً في دارها الفخمة الجديدة التي تبرعت بنفقة تشييدها أسرة المرحوم نعمه شديد يافث — أرملته وأبناؤه ، تخليداً لذكر رجل كان من أبناء لبنان الأفذاذ ، ومن رجال العالم المعدودين في العمل والصناعة .

تقع الدار الجديدة ، إلى الشمال من مبنى « الكلية » (كولدج هول) أقدم المباني على أرض الجامعة ، وأعرقها ، وأعمقها أثراً

مقال نشر في صحيفة « الديار » في بيروت

في نفوس أجيال متلاحقة من ابنائها وخريجيها . ولا يفصل الدارين سوى صحن مرصوف بالحجر ، فيه ثغرات مستديرة غرست فيها أشجار يرجى أن تصبح من البواسق .

وهذا الجوار بين المبنى القديم ، والدار الجديدة ، هو في نظري رمز بارع إلى التقدم المطرد ، والتجدد الذي لا يكف ، في روح الجامعة ووسائلها . وهو جوار ترضى عنه نفس نعمة يافث ، لأنه في المبنى القديم تلقى علومه في الجامعة قبل أن يتخرج منها سنة ١٨٨٢ ، ولو أطلت روحه اليوم من النوافذ التي كان يطل منها على البحر ، لرأت بينها وبين البحر ، هذه الدار التي يجد فيها طلاب اليوم « جلساء لا يمل حديثهم » على قول الشاعر العربي ، ودنيا قائمة بنفسها يقبل فيها العقل المتفتح على مواكب الانسانية ، وقد لبست من النثر والشعر والمنطق والتجربة والاستقراء حلل الجمال الأسنى . ألم يقل شكسبير على لسان أحد أبطاله : « هذه مكتبتي وأية دوقية تساويها » ؟ وفي وسع كل طالب من طلاب الجامعة اليوم ، وكل أستاذ من أساتذتها ، وكل رائد من روادها أن يقول مع بطل شكسبير « بفضل نعمة يافث والجامعة هذه مكتبتي وأية مملكة تساويها »!

وقصة نعمه شديد يافث ، هي في حد ذاتها من القصص الرائع الذي ينبغي أن يتداوله أبناء معاهد العلم في لبنان ،

ليتخذوا منه مثلاً يحتذى في الهمة العالية والاجتهاد الذي لا يفتر، والاستقامة التي لا تنحرف . وعسى أن يتصدى مؤلف من مؤلفينا فيكتب سيرته ، لتنتفع بها الأجيال الطالعة ، كما انتفع هو – على ما روى الدكتور سعيد أبو جمرة – من سير رجال المال والأعمال التي نشرت في « المقتطف » ، وكتاب « سر النجاح » .

هبط نعمه يافث الجامعة من قرية الشوير ، وتخرج منها ، ثم درس في مدارس لبنان – مدرسة « الثلاثة الأقمار » – وألف في علم الحساب ، وأذكر أن عمي يعقوب صروف ، قال لي غير مرة إن نعمه يافث كان من أذكى من طلب العلم في الجامعة، وأشدهم إكبابا على التحصيل ، ووفاء للواجب ، وقوله فاصل لأن نعمه كان تلميذاً ليعقوب – رحمة الله عليهما .

وفي « مكتبة نعمه يافث التذكارية » مثال على قوة الصلة بين الرجلين وصفائها . ففي سنة ١٩٢٦ احتفل العالم العربي « باليوبيل الذهبي » لمجلة « المقتطف » فهبت الجالية اللبنانية في سان باولو ، وعلى رأسها ، أبناء نعمه يافث ، إلى الاعراب عن تقديرها ، في تمثال رائع من البرونز صنع خاصة ليهدى إلى صاحبي المقتطف في ذلك اليوبيل ، وركبت على قاعدته المصنوعة من الحجر الأعبل الوردي لوحة من ذهب نقش عليها الاهداء

في بيتين من الشعر الكريم نظمها المرحوم فوزي المعلوف :

هذا مثال عروس العلم حاملة
إكليل غار إلى شيخ المجلات
يُهدى على ذهب اكرامنا وعسى يهدى على الماس في يوبيله الآتي

وقد ذهب شيخ آل يافث ، والشاعر ، والمهدى اليهما ، إلى لقاء ربهم ، وتوقفت « المقتطف » ، ولكن التمثال اليوم قائم – هدية من بيت صروف – على رأس السلم المفضي إلى الطابق الأعلى في دار المكتبة الجديدة ، ويقيني أنه لو سئل يعقوب ونعمه عن مآله ، لما وجدا مكانا أبعث على رضاهما من مكانه اليوم .

أما الدار نفسها، فتجمع في خطوطها بين البساطة والروعة ، وهي ثلاثة أدوار ، تدخلها من بابها المناوح لمبنى « الكلية » فاذا أنت في بهوالاستقبال الذي يتوسط الدور الثاني – هنا الفهارس بالعربية والانكليزية ، مرتبة في بطاقات مصفوفة في أدراج قائمة في الجدارين الشمالي والجنوبي . وهنا أيضاً الشرفة التي تعار منها الكتب وتعاد . وفي الطرف الشرقي للبهو ، تمثال نصفي من الرخام الناصع لنعمه شديد يافث ، قائم على قاعدة من الرخام الأخضر إلى سواد ، وقد نقش على الجدار وراءه ، عبارة مؤداها

أن هذه الدار شيدت تخليداً لذكرى نعمه يافث . ويلي البهو من الشرق حجرة للمطالعة ، ومن الغرب مكاتب لمدير المكتبة وموظفيهـــا ، حيث تفرز الكتب وتفهرس – وليس للكتاب وجود حتى يدخل عنوانه واسم مؤلفه صفحات الفهرس العام – ومن الجنوب حجرة أخرى للمطالعة فيها طائفة مختارة كبيرة من المجلات . وأما بقية الدور فحجرة واسعة صفت فيها رفوف زاخرة بالكتب .

وتحت الدور الثـــاني – دور أرضي ، نصفه أو نحو نصفه خصص لرفوف الكتب ، وعند طرفيه الشرقي والغربي بهوان متسعان ، للدراسة والمطالعة ، أمـا الشرقي منهما ، فقد أقيم في طرفه الجنوبي تمثال مؤسس الجامعة ، الدكتور دانيال بلس ، وهو مصنوع من رخام كرارا الايطالي الفاخر، وقد صنع بأمر خريجي الجامعة في مصر والسودان وأهدى اليهـا (سنة ١٩٠٤) بعد أن اعتزل الدكتور دانيال بلس رياستها في سنة ١٩٠٢ وأما الغربي فهو للدراسة والمطالعة أيضـاً ولكنك ترى في ناحية منه رفوفـاً مباحة تحمل كتب المراجع الكبيرة ، من معجمات ومعلمات وما أشبه ، ويلحق بهذين البهوين حجرتان للاستراحة إحداهمـا للسيدات والثانية للرجال ، وبين البهوين رواق واسع تعرض فيه الكتب القديمة أو الحديثة والصور والرسوم وغيرهـا

من روائع الفكر والفن ، حينا بعد حين .

ويحتوي الدور الأعلى على حجرة صفت فيها رفوف للكتب العربية في المكتبة وبينها مجموعات كاملة لا تكاد تقدر بثمن لمجلات « المقتطف » «والهلال » « والمشرق » « والضياء » وغيرها. وقام على محاذاة جداريها الشرقي والشمالي ، قمرات خاصة تعين للطلاب أو الأساتذة الذين يقومون بأبحاث خاصة ، فيجمع كل منهم على رف قمرته الكتب التي يراجعها وينصرف إلى العمل في جو يعبق فيه عطر الحقيقة والجهاد في سبيلها ، وأمام كل قمرة نافذة واسعة عالية تطل على البحر أو على جبال لبنان . وفي الناحية الجنوبية خمس حجرات يستعملها الأساتذة لدراسات التخصص في الأدب أو التاريخ وغيرهما ، وفي الغربية حجرة يؤوب اليها موظفو المكتبة إما للراحة وإما لدراسة فنون المكتبات في محاضرات تلقى ومناقشات تدور .

وقد سايرت مكتبة الجامعة أقسام الجامعة في نموها واتساعها بفضل الذين تولوها على تعاقب السنين ، والذين وهبوها من كتبهم أو مالهم أو وقتهم ، وقد كانت في السنة الاولى بعد إنشائها لا تكاد تضم أكثر من ألفي مجلد فاذا مجلداتها اليوم توفى على التسعين ألفاً وهي تزداد ازدياداً مطرداً ، وفي طليعة ما تحتويه مئات ومئات من المخطوطات ، والمجلات المتخصصة في

شتى ألوان العلوم والفنون، والمنشورات الرسمية للدول العربية. وللمكتبة العامة فروع هي جزء أصيل منها — في كلية الطب، وكلية الهندسة ، وكلية الزراعة ، حيث تتاح كتب التخصص والمجلات العلمية المختصة لطلاب كل كلية وأساتذتها .

وإذا ما ألممت بهذه الدار ، التي تعد بحق قلب الجامعة ، وفرغت من دورة قصيرة بين رفوفها وفي أبهائها وعدت إلى بهو الاستقبال ، فلا مفر لك من أن تقف هنيهة أمام تمثال نعمه يافث — انظر اليه ترَ في قسمات وجهه ، ونظرة عينيه ، معاني القوة ، قوة الفكر وقوة الخلق ، فالعلم الذي ناله في الجامعة ، ثم ثبته ووسع نطاقه بالتعليم والمطالعة والتأليف قبل أن يبرح لبنان ، ثم قرنه بالتجربة في مدرسة الحياة بعد أن برحه ، قد هذب فطرته الصافية، وصقل طباعه الكريمة ، وإذا الرجل ينتقل من بيئة لبنان الضيقة التي ألفها ، إلى بيئة مترامية غريبة مستنكرة (بالكاف المكسورة) وإذا هو يتحول من التعليم إلى التجارة فالى الصناعة ، وليس في وفاضه حين تحول ، من عدة سوى الاقدام ، والصبر على العمل ، والاستقامة ، فأقبلت عليه الدنيا ، فأعطى مثلما أخذ ، فانهالت عليه علامات التكريم والتقدير . ولعل الذين يعنون اليوم بفلسفة العدالة الاجتماعية في ميادين الصناعة ، ويقرأون فيها الكتب التي تؤلف ، ويبحثون

النظم التي تتبع ، يدهشهم أن يعملوا أن نعمه يافث أقبل على تطبيق العدالة الاجتماعية على أعماله الواسعة، قبل أن تؤلف أكثر الكتب الحديثة فيها ، وقبل أن تصبح من المبادىء الراسية عند أهل التفكير الاجتماعي وفي مناهج الأحزاب — فالحكمة التي تقطرت في فطرته السليمة ، جعلته في هذا الباب من الرواد .

وإذا خرجت من الدار ، واستقبلت وأنت خارج مبنى « الكلية » القديم حيث عاش نعمه يافث وتعلم منذ ثلاثة أرباع القرن سمعت هاتفاً من أعماق نفسك يهتف بك: عسى أن تكون سيرته ، وهذة الدار التي بنيت باسمه هاديا لشباب اليوم ، وحافزا لهم إلى الاقبال على الفضائل الباقية في الحياة وعلى الايمان بأن الانسان إنما هو « حديث بعده ، فكن حديثاً حسناً لمن وعى » .

خاتمة

اشتغلت بالصحافة ثلاثين سنة متوالية ، فأتيح لي بحكم عملي ورغبتي ان أقرأ ما لا يسعني احصاؤه اليوم من الكتب والرسائل وفصول المجلات ، ونقلت كثيراً مما قرأت الى اللغة العربية ، في المجلات او الصحف التي أشرفت عليها او كتبت فيها ، ووضعت وصنفت من مختارها كتباً متعددة ، وقد تقطر من كل ذلك في نفسي آراء ومعان ، وجدتها تنفعنا ، ففاضت في الحين بعد الحين على اللسان أو من شق القلم ، فهي لي لأنني وجدتها تلائم ما في نفسي ، فأخذتها وتركتها تختمر زمناً يطول أو يقصر ، ثم دعوتها حين الحاجة اليها فلبت . وهي ليست لي أو معظمها ليس لي ، لأنني لا يسعني ان ازعم أن ذهني قد ولدها ، ولذلك جعلت العبارة تحت عنوان الكتاب « آراء ومعان لمتها عن طريق الحياة » .

وقد ضاعت في غياهب الأيام معالم الموارد التي وردتها ، أوأكثر تلك الموارد، ولكن بعضها لا يزال ماثلاً في ذهني ، بين وضوح وغموض ، فذكره فرض تقتضيه الحقيقة والاعتراف بالفضل لذويه .

ففي حديث « من وحي بيت الحكمة » إحالة على كتاب بريفولت « نشأة الانسانية » وفي خطبة « التحدي والاستجابة » قول في سكينة النفس مرده الى كتاب ليبان بالعنوان نفسه ، وفي حديث نحو عالم أفضل » أخذ عن برتراند رسل في كتابه « رجاء جديد في عالم متغير » ، وفي حديثي « التشاؤم والتفاؤل » و « قمم العصر الحديث » نقل عن ول دورانت في كتابه صروح الفلسفة » وقد ظهرت له طبعة جديدة عنوانها « مباهج الفلسفة » وفي حديث « ربة التاريخ تهز اصبعها » رأي أرنولد توينبي عن مجلة « اتلنتيك الشهرية » وغير ذلك مما طمست معالمه في ذاكرتي .

فؤاد صروف

بيروت ١٩٥٤

